لوكيوس أپوليوس

ترجمة : د.أبو العيد دودو

الحمار الذهبي

أوّل رواية في تاريخ الإنسانية

منشورات الاختلاف

الدار العربيّة للعلوم
Arab Scientific Publishers

بسم الله الرحمن الرحيم

تحميل كتب http://abbassa.wordpress.com

الحمار الذهبي

أول رواية في تاريخ الإنسانية

تأليف

لوكيوس أبوليوس

ترجمة

د. أبو العيد دودو

الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

منشورات الاختلاف

جميع الحقوق محفوظة لمنشورات الاختلاف

الطبعة الأولى: أفريل 2001 ــ الجزائر

الطبعة الثانية: أفريل 2004 ــ الجزائر

الطبعة الثالثة: نيسان 2004 ــ بيروت

ISBN 9953-29-774-6

الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

عين التينة، شارع ساقية الجنزير، بناية الريم
هاتف: 785107 - 785108 - 860138 (961-1)
فاكس: 786230 (961-1) ص.ب: 5574-13 - بيروت – لبنان
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

منشورات الاختلاف

22 شارع الأخوة مسلم الجزائر العاصمة
هاتف: 719063 21 213
فاكس 712791 21 213
e-mail: revueikhtilaf@hotmail.com

الطباعة: مطبعة المتوسط، بيروت – هاتف 811385 (9611)

مقدمة

أبوليوس وحماره الذهبي

د. أبوالعيد دودو

يعد أبوليوس واحدا من الأفارقة، أو من أبناء شمال إفريقيا كما نقول اليوم، الذين برزوا في ميدان الأدب اللاتيني مثل ماركوس كورنيليوس فرونتو Cornelius Marcus Fronto القرطي (القسنطيني، ت حوالي 169ب.م)، وكينتوس سيبتيموس فلورنس تيرتوليان Quintus Septimus Florens Tertullian (حوالي 150-222)، وماركوس مينوكيوس فيليكس Marcus Minucius Felix (القرن الثاني ب. م)، وأوريليوس أغوستينوس Aurelius Augustinus (354-430) فيما بعد (وليس في هذه الأسماء، إذا نحن قرأناها بمعزل عن المدن، التي يُنسبون إليها أحيانا، ما يدل على إفريقيتها أو نوميديتها إطلاقا !). ولعل حديث أبوليوس عن نفسه وعن حياته الخاصة وعن نزعته الدينية في روايته هو الذى أوحى للقديس أغوستينوس بكتابة اعترافاته وبوضع كتابه "عن مدينة الله = De civitate dei، الذى يدافع فيه عن الديانة المسيحية في مقابل دفاع مواطنه عن العبادة الشرقية. على أنه فاقهم جميعا من حيث شمولية معارفه، وتنوع كتاباته في المجالات العلمية، والميادين الأدبية والشعرية، خاصة الكتابات القصصية والروائية، وإن لم يصلنا منها غير جزء ضئيل، ومن ثم اعتبر أبوليوس بحق ممثل اللاتينية الإفريقية ووصف بأمير خطباء إفريقيا وأكثرهم نفوذا وشهرة في عصره، حتى ولو أهمله معاصروه من الأدباء ولم يتحدثوا عنه، خصوصا تيرتوليان، معاصره وابن مدينته المفضلة.

وليس هناك في الحقيقة ما يمنعنا من أن نعتبر روايته " الحمار الذهبي" ثاني رواية ظهرت في العالم، إن صح حقا أن رواية غايوس بيترونيوس أربيتر Gaius Petronius Arbiter (ت 66 ب. م)، وهي رواية " ستيريكون Satyricon " الساخرة، التي وصلتنا ناقصة واشتهر منها القسم المعروف تحت اسم "مأدبة تريمالخيو Cena Trimalchio" ـ إن صح أنها كانت الأولى فعلا. غير أن رواية أبوليوس تعتبر على أية حال أول رواية قديمة وصلت إلينا كاملة، وشكلت نوعا أدبيا جديدا، هو النوع الذى يعرف اليوم بالرواية الإطارية، التي تضم مجموعة من القصص من جهة، وبالرواية الأنوية أو الرواية، التي يرويها المؤلف نفسه بضمير المتكلم من جهة أخرى، وهناك العديد من الروايات الحديثة والمعاصرة، التي كتبت بالطريقة نفسها وحملت نفس الصفات في فترات تاريخية مختلفة.

حياته

ولد لوكيوس (وهناك شك في هذا الاسم لانعدام ما يؤكده في مؤلفاته بصورة قاطعة) أبوليوس عام 124 أو 125 بعد الميلاد في مدينة مداور، التي يطلق علينا اليوم اسم مداوروش، وكان موقعها على الحدود بين غيتوليا (نسبةً إلى قبيلة جدالة!) ونوميديا (1)، التي وصفها هونفسه بأنها مستعمرة مزدهرة splendissim acolonia. وكان يفخر بالانتماء إليها، فهو يسمي نفسه في مخطوطاته، التي احتفظت بشكلها الجيد، فيما ذكره بعض مؤرخي الأدب اللاتيني، وبقيت سليمة من العطب والتلف، أبوليوس المداوري الأفلاطوني حينا Apuleius Madaurensis Platonicus والفيلسوف الأفلاطوني Philosophus Platonicus حينا آخر، ولعله اتخذ هذه النسبة تمييزا له عن غيره من الحكام والمحامين الرومان، فقد كان هناك عدد منهم يزيد على عشرة، يحملون اسم أبوليوس (2). وهو ينحدر من أسرة غنية، فقد كان أبوه من أعيان المدينة، شغل بها عدة مناصب كبيرة، كان آخرها منصب الرجل الثاني Duumvir، وهو نائب حاكم المدينة أو رئيس البلدية. وكان لوالده ولد ثان لا نعرف عنه شيئاً، وإن كنا نعرف أن هذا الوالد كان حريصا على أن يتزود ولده ـ أعني صاحبنا ـ بالعلم والمعرفة منذ صغره، فأرسله إلى المدرسة في مسقط رأسه، ثم أرسله إلى مدرسة عامة في مدينة قرطاجنة، فدرس فيها النحو والبلاغة، ولعله درسهما على فرونتو، وسرعان ما برز على أقرانه وزملائه في الدراسة بشكل لافت للنظر. وأتم بعد ذلك دراسته في أثينا، فقد كانت له معرفة باللغة اليونانية منذ صغره، مما مكنه من الدراسة فيها، فتابع دروسا في الفلسفة والهندسة والخطابة والموسيقى والشعر،

ولكن كان للفلسفة مكانة خاصة في نفسه، وكانت صفة الفيلسوف أفضل صفة ارتضاها لنفسه. يقول عن ذلك في كتاب الأزاهير بأسلوبه المنمق: "هناك كلمة شهيرة لأحد الحكماء تتعلق بالمآدب، يقول فيها: القدح الأول للعطش، والثاني للمسرة، والثالثُ للذة الجسدية، والرابعُ للهذيان. ولكن قدح عرائس الشعر يُحدث أثرا معاكسا، فكلما كان مفعما، كان أقدر على مد الروح بالصحة والعافية. لقد تعاطيت القدح الأول من عناصر الآداب، فرفعني عن الفرارة، وتعاطيت الثاني من معلم اللغة، فزودني بالمعرفة، وتعاطيت الثالث من معلم الخطابة، فدرعني بالبلاغة. وعند هذا الحد يتوقف ما يتعاطاه أغلب الناس. لكني أنا أفرغت في أثينا أقداحا أخرى: قدح الشعر الممزوج، وقدح الهندسة الصافي، وقدح الموسيقى العذب، وقدح المنطق الحامض إلى حد ما، وتعاطيت قبل كل شيء قدح رحيق الفلسفة العامة، الذى لا ينضب معينه[3].

ثم يضيف مفتخرا بنفسه: "وأترك لكم الحكم: لقد كتب امبدوكليس الشعر، وافلاطون المحاورات، وسقراط الأناشيد، وابيخارموس الموسيقي، واكزينيفانيس التاريخ، واكزنوقراطيس الهجائيات، بينما يمارس أبوليوسكم كل هذه الأنواع ويُعنى بكل العرائس بالحماسة نفسها[4]".

عندما مات أبوه، ترك له ثروة كبيرةً، لم يلبث أن بددها أثناء الرحلات الكثيرة، التي قام بها، والتي استغرقت عشر سنوات، قضاها متنقلا من مدينة إلى أخرى في بلاد اليونان وفي آسيا الصغرى وفي ربوع الإمبراطورية الرومانية. صحيح أنه بدد تلك الثروة، ولكنه كسب معارف متنوعة، وانتمى إلى عدة جمعيات، كانت لها طقوس دينية خفية، أبدى الكثير من الاهتمام بأسرارها، وتعلم حتى الرُّقى والتمائم السحرية حبّا في معرفة الحقيقة، مما جعل فلسفته مليئة بهذ الأسرار الغريبة[5]. وأقام في رومة حوالي سنتين، اشتغل خلالهما بالمحاماة أو بتدريس البلاغة على حد ما جاء في الموسوعة البريطانية[6]، وبدأ في هذه الفترة نفسها يكتب رواية "التحولات". وعاد إلى إفريقيا وهو في حوالي الخامسة والعشرين من عمره، وقد عزم على الإقامة في مسقط رأسه مداور، فأخذ يلقي الخطب والمحاضرات، ويشارك مشاركة فعالة في الحياة العامة، فكسب ود الجماهير، فأخذت تكن له الاحترام نفسه، الذى كانت تكنه لوالده، وإن لم يتقلد هو أية وظيفة رسمية، وقد يعود ذلك إلى فتور طموحه السياسي وإلى رغبته في مواصلة نشاطه العلمي والأدبي، فواصل بحوثه رغم أن ثروته المالية كانت قد تقلصت إلى حد كبير[7].

وبعد فترة من الزمن عاوده الحنين إلى السفر، فركب الباخرة إلى مدينة الإسكندرية لزيارة مكتبتها الشهيرة، ولكنه مرض وهو في طريقه إليها، فتوقف في مدينة أويا (وهي مدينة طرابلس اليوم) وأقام فيها[8]. وبعد أيام من وصوله إليها زاره في منزل أسرة آبيا Appia، التي نزل عندها، صديقه بونتيانوس Pontianus، وكانت له به معرفة سابقة، تعود إلى أيام إقامته في أثينا، وعرض عليه أن يقيم في منزل والدته، لأن من شأن ذلك أن يعجل بشفائه من مرضه. فوافق أبوليوس على ذلك، وكان غرض بونتيانوس من ذلك في حقيقة الأمر أن يعرض على صديقه الزواج من أمه، emelia Pudentilla، التي كانت قد عزمت في ذلك الحين بالذات على الزواج مرة ثانية، بعد أن امتنعت عنه لأسباب مرضية قرابة خمس عشرة سنة منذ أن توفي عنها زوجها سيكينيوس أميكو Sicinius Amicus وترك لها ولدين، بونتيانوس وأخاه الأصغر بودنس Pudens. وذات يوم ألقى أبوليوس خطبة في مدينة أويا، أعجبت بها الجماهير إلى حد كبير، وطلبت منه أن يقيم فيها على الدوام وأن يصبح، وهو الأجنبي عنها، واحدا من مواطنيها. فا عتبر بونتيانوس هذا الحدث فرصة مناسبة لما كان قد عزم عليه، وتقدم إليه بطلبه، لكن أبوليوس تردد في بداية الأمر، ثم قرر الزواج منها، مع أنها لم تكن جميلة وكانت أكبر منه بحوالي عشر سنوات، إذ كانت هي في الأربعين بينما كان هو في مطلع الثلاثين أو دون ذلك بقليل[9]. فثارت عليه أسرة زوجها السابق بزعامة أخيه إميليانوس Aemilianus بسبب قرار الزواج، الذى اتخذه بموافقة الأرملة وابنها، وانضم إليها هيرينيوس روفينوس Herrenius Rufinus، الذى زوج ابنته من بونتيانوس، وراح يحرضه على الوقوف ضد هذا الزواج، فانقلب بونتيانوس على صديقه فعلا. لكن الزواج تم رغم اعتراض الجميع عليه. وحين توفي بونتانوس بعد حين، ولم تعرف أسباب وفاته، اتهمت الأسرة أبوليوس بقتله لا عتراضه على زواجه من أمه. غير أنها تخلت، حين تطلب الأمر إجراء تحقيق حول ظروف مقتله، عن هذه الدعوى، ووجه إليه عمه ايميليوس سيكينيوس، بعد أن كسب تأييد ابن أخيه الأصغر بودنس، تهما غريبة، تنص أقلها غرابة على أنه أوقع المرأة في شراكه واكتسب حبها عن طريق السحر والشعوذة، وسأشير إلى هذه التهم عندما أتحدث عن دفاعه[10].

وقدم أبوليوس للمحاكمة، ونقلت محاكمته إلى مدينة صبراته، التي تقع غرب مدينة أويا وكانت مقر محكمة الحاكم الروماني، وكان ذلك في عهد الحاكم أنتونينوس بيوس Antoninus pius، أي في حوالي 155 بعد الميلاد. لكن أبوليوس دافع عن نفسه ببراعة كبيرة، وسخر من غباوة متهميه، فانتهت المحاكمة بتبرئته مما نسب إليه،

..حر أعداءه وألحق بهم الخزي والعار، ومع ذلك لم يتعظوا، فقد اعترضوا على رغبة اهالي أويا في تكريمه بإقامة تمثال له تعويضا له عما لحقه من معاناة بسبب هذه المحاكمة، التي لم يكن لها ما يبررها في نظرهم، لكن الأهالي أصروا على إقامة التمثال. ومع ذلك يبدو أن معاناته كانت أكبر من ذلك بكثير، ولذلك فإن ذلك التكريم لم يمحُ تماما ما ترسب في نفسه من تلك التهم الظالمة، ثم إنه ما كان ليستطيع أن يترك زوجته بودنتيلا في بلد كشفت فيه أسرار حياته الخاصة، وكان ولداها من المشاركين في ذلك، يضاف إلى ذلك شعور بالغربة في المجتمع الذي صاهره. ومن ثم عاد، بعد أن قضى في أويا حوالي ثلاث سنوات، إلى المدينة، التي قضى فيها شبابه، إلى مدينة قرطاجنة، التي كانت مركز الحضارة، ووصفت بأنها أثينا وروما في ان واحد، إلا أنها تقع في إفريقيا، وقال عنها هو نفسه في الأزاهير: "هل هناك ما هو اجمل وأكثر تأكيدا من تمجيد مدينة قرطاجنة، التي لا أرى فيها سوى مواطنين ذوي ثقافة عميقة، فيها يتعلم الأطفال أنواع المعارف، وفيها يتولى الشباب نشرها، وفيها يدرسها الشيوخ؟ أجل، إن قرطاجنة هي المعلمة الجليلة لمقاطعتنا كلها، قرطاجنة هي الإلهة السماوية لإفريقيا، هي إلهة الذاكرة الرومانية!"[11]. وما كاد يستقر بها حتى خصه أهاليها بإكليل من الذهب، وكان ذلك تمهيدا لما سيحظى به من إجلال وإكبار. لقد اعترف به فيها أميرا للخطابة، فكان سكان المدينة يتخاطفون ما ينشره، ويتزاحمون في الأماكن، التي كان يلقي فيها خطبه أو محاضراته، وأقيم له تمثال باقتراح من إيميليانوس سترابون Aemilianu Strabo، حامي أبوليوس، فقرر ألا يغادر قرطاجنة، التي أصبح له فيها صولجان الخطابة وصار له نفوذ كبير لما كا ن له من موهبة خطابية متميزة، وكان قد أصبح فيها الكاهن الإقليمي Sacerdos provinciae للمذهب القيصري، وهذه الوظيفة تخول له أيضا أن يكون عضوا في المجلس الاستشاري[12]. وقد ألف معظم كتبه الأدبية والعلمية والفلسفية، فيما يرى بيتولو، وهو في حوالي الأربعين من عمره، لأنه كان يعيش في جو أدبي وعائلي يملأ نفسه بالغبطة والسعادة. وينقل بيتولو ما قاله أحد المؤلفين القدامى من أن تشجيعات بودنتيلا قد أخصبت ريشة أبوليوس، فقد كانت له بمثابة كالبورنيا Calpurnia بالنسبة لبلينيوس وتوليا Tulia بالنسبة لشيشرون[13].

وقضى حوالي عشرين سنة على هذه الحال، فقد ألقى خطبة في أواخر عهد ماركوس أريليوس Marcus Aurelius أو أوائل عهد لوكيوس فيروس Lukius Verus، نوه فيها برجل روماني يدعى سفيرونوس Severunus، وقد بقي جزء منها، يستشف

منه أن سُمعته كانت تنمو يوما بعد آخر. وألقى أيضا خطبة عام 174 أمام الحاكم الروماني سكيبيون أورفتوس Scipion Orfitus، الذي كان صديقا له منذ أيام شبابه، أبريزپ فيها ما تلقّاه من القرطاجنيين من تكريم.على أن آثاره بدأت تختفي ابتداء من السنة المذكورة، إذ كل ما عُرف عنه بعد ذلك يقوم على الظن والتخمين، فقد رأى بعض الدارسين أن أبوليوس استمر في التأليف وفي إلقاء الخطب والمحاضرات، التي كانت أحب الانشغالات إلى نفسه إلى أن عجز عنها، فتفرغ للتأليف، ومن المرجح أن تكون وفاتُه، فيما يرى أغلب الدارسين، قد وقعت حوالي سنة 180 بعد الميلاد . وكانت له شخصية تتسم بالوسامة والطرافة، أُرجىءُ الحديث عنها إلى فقرة لاحقة.

ولا ينبغي لي أن أهمل الإشارة ـ فلا بد أن تكون للتاريخ الأدبي كلمتُه مستقبلا فيما يتصل بالريادة ـ أن الشاعر الجزائريّ أحمد حمدي، وهو فيما أعلم الوحيد من بين الكتاب والشعراء العرب عامة ـ قد استوحى مسرحية من حياة أبوليوس، تدور أحداثها في مداور وأويا، وقرأ تاريخ حياته قراءة خاصة حين جعل منه فيها بطلا شعبيا، وحاول التركيز خاصة على قضية ثورته في مسقط رأسه ومحاكمته في مدينة أويا لتجسيم مقاومة النوميديين للرومان مع ما يتطلب ذلك من إسقاط ظاهر في جوانب كثيرة، ثم للتعبير من خلال الجو العام عن الصراع بين الشرق والغرب أو بين أروبا وشمال إفريقيا، هذا الصراع الذى يمثل الشرق من خلال الثقافة الفينيقية من ناحية، والعبادات الشرقية ومناهضة المسيحية من ناحية أخرى[14].

آثاره

كان أبوليوس ذا طبيعة متنوعة إلى حد كبير وصاحب موهبة عظيمة، فكان محيط كتاباته تبعا لذلك واسعاً جدا، فلم يقتصر في نثره على تأليف الكتب البلاغية فحسب، وإنما اهتم إلى جانب ذلك بالفلسفة وبعدة علوم أخرى، ومن ثم كان يفخر بتنوع معارفه. كان يريد، فيما يرى مارتين شرانتس أن يجمع في شخصيته امبدوكليس Empedokles (حوالي 483 ق. م) وأفلاطون Platon (348-428 ق. م) وسقراط Sokrates (470-399 ق. م)، وإبيخارموس Epicharmos (550-460 ق. م)، وكزينوفون Xenophanes (580-470 ق. م)، وكراتيس Krates (حوالي 320 ق. م) ويخدم كل عرائس الفن بالحماس نفسه[15]. فوضع مؤلفات عدة في الفلسفة والتاريخ والموسيقى والشعر والنحو والحساب وعلم الفلك، وعلم وظائف الأعضاء، والعلوم الطبيعية، والفلاحة، وعلم الأسماك وغير ذلك، ولكن لم يصلنا من خُطبه ورسائله

وأشعاره وكتاباته الفنية والعلمية الكثيرة، التي نذكرها فيما يلي، إلا القليل نسبيا[16] :

1- الدفاع Apologia، وهي مرافعة أو خطبة مطولة، لعله استمد اسمها من دفاع سقراط لأفلاطون، حين وجد نفسه، وهو الفيلسوف أيضا، في الوضع نفسه، وإن كان أساس التهمة مختلفا. وكان قد ألقاها أمام الحاكم الروماني كلاوديوس ماكسيموس Claudius Maximus، الذى كانت له بدوره ثقافة فلسفية، كتبها دفاعا عن نفسه عندما وُجهت إليه تهم باطلة، فضلا عن كون بعضها سخيفا تافها، فتحدث عنها حسب الترتيب، الذى وضعه لها أعداؤه، فقد قسموها على ثلاثة أقسام: الأوّل أنه رجل جميل جمالا لافتا للنظر، وبليغ، أرسل إلى أحد أصدقائه شيئاً مُنظفاً للأسنان، ونظم أشعارا غزلية، واستعمل مرآة من المرايا، وكان فقيرا. وقد رد على كل هذه التهم بانه لاحق لأحدٍ أن يلوم آخر على ما وهبته الطبيعة إياه، فالتاريخ يحدثنا عن رجال عظماء كانوا يتسمون بالوسامة والجمال، فقد كان فيثاغوراس، الذى كان أول من حمل اسم فيلسوف، أجمل رجل في عصره. وينقل قول باريس لهيكتور في إلياذة هوميروس (النشيد الثالث، البيت 65) : "حذار، لا تستهن بهدايا الآلهة الرائعة، خاصة ما تهبه من تلقاء نفسها!".

ويعترف بتهمة أنه بليغ، والاعتراف لهم بها تمجيد له، ويتساءل مستنكرا في خطبة الدفاع (بيتولو 13/4): "ماذا؟ لقد كرست حياتي منذ سنواتي الأولى روحا وجسدا لدراسة الآداب. احتقرت كل المسرات الأخرى حتى هذه السن التي بلغتها، ولعلي اشتغلت أكثر مما اشتغل أي رجل آخر، اشتغلت ليل نهار، أفلا يحق لي أن أحظى بموهبة خطابية؟" ويصر على أن من واجب الإنسان أن ينظف أسنانه، فحتى تمساح النيل يفتح فمه فوق الضفة لتنظف الطيور أسنانه دون خطر عليها، ويسأل إيميليانوس ساخرا عما إذا كان يغسل رجليه وعما إذا كان يعتبر ذلك أهم من تنظيف أسنانه!؟ ويصر كذلك على أن كتابة الشعر لا علاقة لها بالسحر، ويورد أسماء بعض من كتب الشعر الوجداني من اليونان والرومان. ويرى أن المرآة ضرورة لدراسة بعض الانعكاسات والمظاهر الطبيعية، ولا يرفض صفة الفقر، فما من سبب عنده غير نزاهته وبره وإحسانه.

ويتمثل القسم الثاني في تهمة السحر بصورة عامة، فهو ساحر لأنه يشتري السمك بصورة مستمرة، وهو ساحر لأنه سحر غلاما وأوقعه فوق الأرض، وكرر العملية نفسها مع أطفال آخرين ومع امرأة حملت إليه في نهاية الأمر، وهو ساحر لأنه

يخفي أشياء غامضة في منديل من المناديل، وهو ساحر لأنه قام بمعية أحد أصدقائه بتقديم نذور ليلية، بقي من آثارها ريش الطير في الغرفة والسواد في الجدار بفعل الدخان، وهو ساحر لأنه كان ينحت هيكلا صغيرا من الخشب، يتقرب إليه بالعبادة. ودحض هذه التهم أيضا بأن الإنسان يشتري السمك عادة ليأكله لا ليقوم بأعمال سحرية، لكنه هو يستعمله أيضا في دراساته الحيوانية، وأن الذين سقطوا عنده فوق الأرض كانوا من المصابين بالصرع . وأوضح أن ما يحمله في منديل ما هو إلا رمزٌ من رموز بعض الرهبانيات العديدة، وأن تهمة تقديم النذور ما هي إلا تلفيق من اختراع أحد الأنذال، ذكره باسمه، لم يحضر حتى لإثبات ذلك أمام المحكمة، وأن ذلك الهيكل لم يصنع بشكل سري، وإنما صنع في رابعة النهار، وما هو بهيكل، بل هو تمثال صغير جميل لعطارد .

وتمثلت تهم القسم الثالث في قضية زواجه من الأرملة بودنتيلا، وهي أنه أكره الأرملة على الزواج منه، وأن بودنتيلا اعترفت في رسالة من رسائلها أن أبوليوس سحرها، وأنها ما كانت ـ لولا هذا السحر ـ لتفكر في الزواج مرة ثانية وهي في الستين من عمرها، وأن الزواج تم في الريف، وأن أبوليوس قد استولى على ثروة بودنتيلا كلها . وتصدى لدحض كل ذلك بأنه لم يكن يرغب في الزواج منها، وإنما كان ابنها هو الذى فرض عليها بشكل ما هذا الزواج، وأن قضية الرسالة مخترعة على وجه مفضوح، وأثبت أنها لا تكاد تبلغ الأربعين من عمرها، وإذا كان الزواج قد تم في الريف، فما ذلك إلا لأن الزوجين كانا يريدان أن يتجنبا متاعب طريقة الزواج المتبعة في المدينة. وقدم للمحكمة في النهاية الدليل على أن زوجته لم تحمل له عند الزواج بها سوى مهر متواضع، فقد تضمن سجل العقد أن ثروتها تعود بعدها إلى من بقي من أولادها، ولم تذكر اسمه في الوصية إلا لتُظهر له أنها لم تكن تريد نسيانه. ويرد أخيرا على أن انتماءه هو إلى وطنه الواقع بين نوميديا وغيتوليا واعتباره بناء على ذلك نصف نوميدي ونصف غيتولي (جدالي) بأن ليس في ذلك ما يخجل، فقد تحدث هو نفسه عن ذلك، ويذكر مثلا على ذلك أن الفارسي سيروس العظيم كان من جنس مختلط، نصفه ميدي ونصفه الآخر فارسي[17] .

لقد عرض المؤلف التهم الموجهة إليه بصورة تتسم بالبراعة والسخرية في آن واحد، فيشير منذ البداية إلى أن قضية خصومه قضية خاسرة ويصفهم بالدناءة، والخسة، ويتحدث بعد ذلك بلهجة تنم عن التفوق عليهم والثقة في كسب قضيته معهم، ويسخر منهم محقرا لهم خلال الخطبة كلها، وكأن هدفه لم يكن إثبات بطلان التهم

الموجهة إليه فحسب، وانما كان يريد أن يجعل من الكذب دعابة مسلية، فراح يعذب متهميه قدر ما يستطيع، فكان لايتطرق إلى الموضوع مباشرة ليعالجه من عدة جوانبه، بل ينحرف عنه ويتحدث عن مواقف ثانوية قبل أن يوجه إليهم مايشبه الصدمة القوية. فما يُسميه خصومه سحرا، إنما هو عنده فلسفة، والفلسفة ـ على حد تعبيره في نهاية الدفاع ـ كانت عنده أعز عليه من حياته، لذلك فإن من حقه أن يدافع عنها، فالفرق بين السحر والفلسفة ضئيل جدا. وتتجسم جاذبية عرضه في مثل هذا الأثر، الذى يتركه في النفس، خصوصا عندما يقرنه بمعارفه الكثيرة عن اليونان وعن الفرس في بعض الأحيان. ولم يعثر الدارسون على ما يثبت لنا ما إذا كانت النسخة، التي وصلتنا من خطبة الدفاع، هي النسخة الأصلية أم أنها النسخة المنقحة، إلا أنه يغلب على الظن أن يكون قد أعاد صياغتها، فلم تكن الأيام التي وضعت تحت تصرفه أثناء المحاكمة، ولم تكن تتجاوز ثلاثة أو أربعة أيام، تسمح له بإعدادها بمثل هذه الصياغة الجميلة، ومن الممكن أن يكون ذلك قد تم في الفترة، التي أعقبت المحاكمة، أي فيما بين سنتي 158-155 على التقريب، وتعتبر على أية حال النموذج الوحيد عن الخطابة القضائية، الذى يعود إلى المرحلة الإمبراطورية، وقد نبه القديس أوغوستينوس إلى ما فيها من تهجم وإطناب(18).

2- الأزاهير Florida ويضم مجموعة من الخطب والملخصات النثرية، التي صنعت مجد أبوليوس، وجلبت إليه جمهورا كبيرا، فحظي بالاحترام الكبير، وأقيمت له التماثيل كما سبق القول. ولعل اسمها يدل على أنها خطب مُعتبرة، ويرى مارتين شرانتس أن هذه الخطب والمحاضرات ليست سوى مقتطفات، اختارها ناسخٌ ما مكتفيا فيها بما أعجبه منها، ذلك أن هناك اختلافا بين هذه المقتطفات، إذ بعضها عبارة عن فقرات مفردة، وبعضها الآخر يحتوي على قسم أكبر. وقد استطاع الناسخُ بهذه الطريقة أن يصل بها إلى ثلاث وعشرين خطبة، والغريب أن الأزاهير مقسمة إلى أربعة كتب، يحتوي الأول منها على تسع خطب، من بينها مقارنة بين نظر الرجل ونظر النسر، وخطبة عن الهند وفلاسفتها، وعن الإسكندر الشهير. ويحتوي الثاني على ست خطب، من بينها خطبة عن العناية الإلهية، وعن الببغاء، وعن أغاني الطيور، وعن كراتيس الكلبي، وعن بروتاغوراس Protagoras ومدرسته (410-480 ق.م)، وعن الفيلسوف هيبياس Hippias (حوالي 430 ق. م)، الذي تميز بمهارات عدة، منها إعدادُه لجميع ألبسته بنفسه إعدادا كاملا يُعد من أرقى الأنواع النسيجية، فوفر لنفسه نوعا من الاكتفاء الذاتي في هذا المجال(19) ويحتوي الثالث على ثلاث خطب،

من بينها خطبة يعبر فيها عن شكره للحاكم الروماني، المذكور سابقا، الذي أمر بإقامة تمثال له، ثم يتحدث عن موت الشاعر الساخر فيليمون Philemon (361-263 ق. م)، ويقدم حكاية عن بروتاغوراس وتلميذه ايواثلوس Euathlus بسبب الأجرة المتفق عليها، وعن ثاليس Thales الملطي (548-624 ق.م)، ويحتوي الرابع على ست خطب، منها حديث عن الطبيب أسكليبياديس Asklepiades (القرن الأول ق.م)، وعن مواهب المؤلف نفسه، وعن كراتيس Krates (حوالي 320 قبل الميلاد) الكلبي. ويبدو أن هدف أبوليوس من وراء ذلك كله كان إظهار جوانب عديدة مما كان يتمتع به من قدرات بلاغية ومعرفية متنوعة قصد إثارة الاعجاب لدى مستمعيه وتسليتهم. ولم يخطىء من اعتبره خطيبا وفيلسوفا وسوفسطائيا، ولكنه يختلف عن السوفسطائيين اليونانيين بموسوعيته، وقد تمثلت مهمته في العرض لا في البحث، لذلك جاءت عروضه العلمية مقتضبة على خلاف ما عليه الأمر في كتاباته الأخرى [20].

3) عن إله سقراط de deo Socrates وهو رسالة عن القوى، التي يطلق عليها اسم الشياطين، فيحاول في البداية أن يُقيمب الدليل على وجودها، ويشير إلى أنها تسكن الفضاء القائم بين الأرض والسماء، وهو يعتبرها واسطة بين الآلهة والبشر،تنقل صلوات البشر وتضحياتها إلى الآلهة، وتنقل النعم والآثار الإلهية إلى البشر. وأجسامها ذات طبيعة أثيرية خاصة، فلا هي ثقيلة ثقل الأجسام الأرضية، ولا هي خفيفة خفة الجواهر الأبدية، وهي خالدة أيضا،لكن ميلها إلى الشهوات والأهواء يجعل لها شبها أكبر بالإنسان. ويقسمها إلى نوعين: نوعٌ له صلة بالإنسان، ومن ثم يمكن، بمعنًى ماتسمية العقل الإنساني باسم الشيطان مادامت له صلة قائمة بالإنسان، ونوعٌ أرقى ليست له علاقة بالإنسان، ويعد المؤلف من ذلك الروح الحارس، الذى يحرس حياته كلها، ومن ذلك أيضا ما يسمى بشيطان سقراط، وهو شيطان يصد عن المنكر ولا يحث عليه ويدعو في النهاية إلى الاهتمام بالعقل، أي بشيطان العقل والعناية به، وأفضل طريق إلى ذلك هو دراسة الفلسفة. فالحكمة الفلسفية أفضل كنز في حياة الإنسان[21].

4) عن أفلاطون وتعاليمه de Platone et eius dogmate، وقد سبق القول أن أبوليوس يعتير نفسه من أتباع أفلاطون، كما دل على ذلك انتسابه إليه المقرون بانتسابه إلى مسقط رأسه مداور، ومن ثم رأى أن من واجبه أن يقدم للجمهور موجزا عن الفيلسوف الكبير. والكتاب مقسم على ثلاثة أجزاء، يتحدث الجزءُ الأول منها عن حياة أفلاطون حديثا يتبين منه مدى انتماء أفلاطون إلى عالم يكاد يكون أسطوريا،

وقد يكون مصدر ذلك فرط إعجابه به وتفانيه في دراسة فلسفته العميقة، فيذكر مواهبه المتعددة، التي استطاع أستاذه سقراط أن يقنعه بتكريسها للدراسات الفلسفية النبيلة. وينطلق من ذلك إلى الحديث عن أقسام فلسفته الثلاثة، وهي الفلسفة الطبيعية والأخلاق والجدل.ويتناول في الجزء الثاني الفلسفة الأخلاقية من وجهة النظر الأفلاطونية ويتعرض فيه لنشأة الرذيلة ويقابلها بالفضيلة في جوانبها المختلفة،ثم يتحدث عن البلاغة والفن عند الطبقات الراقية وعن الخير والشر والحب والصداقة. أما في الثالث فيتحدث عن العقل والمنطق الصوري، ولم يصلنا هذا الكتاب الأخير مع الكتابين السابقين،وإنما وصلنا على حدة، وهو ما جعل بعض الدارسين يشكون في نسبته إليه:لأنه لا يتحدث فيه عن الفلسفة من وجهة النظر الأفلاطونية، وإنما من وجهة نظر أتباع الفلسفة الأرسطوطاليسية والأبيقورية[22] .

5- عن العالم de Mundo وهو عبارة عن خلاصة لكتاب أرسطو عن الكون، لكن أبوليوس يقدمه وكأنه من تأليفه، ربما لأنه حذف منه أشياء، وأضاف إليه أشياء أخرى، منها ما رواه من أشعار لبعض شعراء الرومان. وإذا كان الفيلسوف اليوناني قد أهدى كتابه إلى تلميذه النجيب الإسكندر الأكبر، فإن الفيلسوف المداوري قد أهدى كتابه إلى تلميذ أو إلى وصي غير معروف. ويكفي هذا الكتاب أنه، كما قال بيتولو، تتمة الثلاثية، التي خص بها أبوليوس أعظم العبقريات اليونانية: الأخلاقي، والمنطقي، والطبيعي، أي سقراط وأفلاطون وأرسطو، وهو يمثل بصورة غريبة ما وصلت إليه العلوم الطبيعية في القرن الثاني بعد الميلاد[23].

6- أحد عشر كتابا في التحول Metamorphoseon Libri XI، وهو رواية، تحتوى على أحد عشر كتابا[24]، كما جاء في العنوان في حالة الإفراد لا الجمع، يحل المؤلف في الكتاب الأخير منها محل البطل، فبعد أن كان لوكيوس اليوناني لقباً أصبح فجأة لوكيوس المدوري، كما سنرى فيما بعد[25]. ولقد قيل عن هذه الرواية: إنه كتبها في أيام شبابه حينا، وقيل إنه كتبها في أيام نضجه حينا آخر. لكني أرجح أن يكون قد كتبها في أيام شبابه، وإلا فإنه ما كان ليعتذر في المقدمة عن قلة معرفته باللغة اللاتينية، التي يرى بعضُ الدارسين أنها لم تكن في وقته كثيرة الانتشار بين الأهالي في إفريقيا الشمالية، إذ هو لم يفخر بتمكنه منها ومن اليونانية على حد سواء إلا في مرحلة متأخرة من عمره. ونستبعد أن يكون قد كتبها بعد محاكمته بتهمة قيامه بأعمال سحرية، كما بينا أعلاه عند الحديث عن حياته وعن كتابه خطبة الدفاع، ويغلب على الظن أن يكون قد كتبها أو بدأ بكتابتها أيام إقامته بروما[26]. وكانت الرواية

قد عرفت منذ أيام القديس أغوستينوس باسم الحمار الذهبي Asinus aureus، وقد يكون هو الذى أطلق عليها هذا الاسم الذي اجتاز العصور الوسطى وعصر النهضة ووصل إلينا دون أن يفقد شيئا من ذهبيته، وكأنه قد كتب لعصرنا أو لعصر لا نهاية له مدى الدهر، وهذا هو شأن الكتب العظيمة. كما عرفت أيضا باسم التحولات في حالة الجمع في الدراسات الأروبية، وقد ترجم اسمها الأول إلى العربية تحت عنوان "تحولات الجحش الذهبي"[27]، بينما ترجم العنوان الثاني في بعض الدراسات بكلمة أخرى غير ما عرفت به، لا يُفهم منها التحول الجسمي بحال من الأحوال هي: "الحلوليون[28]".

من الممكن أن نلخص الحدث الرئيسي في الرواية، كما جاء في بعض كتب تاريخ الأدب الأروبي [29]، في سطر واحد، فنقول إنها قصة إنسان يهتم بالسحر، ويحب أن يتحول إلى طير، ولكنه يتحول إلى حمار، على أن مثل هذه الخلاصة تعتبر إجحافا في حق هذه الرواية الفريدة، لذلك نقدم خلاصةً موسعة قليلا، لا سيما أن الرواية ليست واسعة الانتشار، فنقول :

يتوجه شاب يوناني، يدعى لوكيوس، من مدينة كورنث، لأسباب عائلية إلى مدينة هيباتا بمقاطعة تيساليا. فيلتقى في طريقه إليها بمسافرين، سمع من أحدهما حكاية بشعة، ولكنها مثيرة عن الأعمال السحرية، حركت فضوله. وعندما وصل مدينة هيباتا، نزل ضيفا على غني بخيل يدعى ميلو، والتقى في المدينة بصديقة لأمه، حذرته من الأعمال السحرية، التي تمارسها بامفيلا، زوجة مضيفه ميلو، وعرضت عليه أن يقيم عندها تجنُّباً لما قد يناله بسببها من متاعب، ولكنه رفض عرضها حتى لا يجرح شعور مضيفه البخيل، وزاد هذا التحذير من فضوله ومن رغبته في التعرف على هذه القوى السحرية الغامضة. وأخذ يتقرب، لبلوغ هذا الغرض من فوتيس خادمة بامفيلا، وسرعان ما عاش هو نفسه تجربة رهيبة، تتصل بالسحر، كادت توصله إلى حبل المشنقة. فعندما عاد في الليل من بيت صديقة أمه التي كانت قد دعته لتناول طعام العشاء عندها، وتوجه إلى بيت مضيفه، رأى ثلاثة لصوص أمام الباب يحاولون سرقته، فجرد سيفه وجندلهم به ثلاثتهم. وفي صبيحة اليوم التالي أمرت السلطات بإلقاء القبض على لوكيوس بتهمة الجريمة، التي ارتكبها في الليلة الماضية، فقبضت عليه الشرطة وذهبت به إلى المحكمة، وبدأت محاكمته، وبعد المرافعة والسؤال والجواب وتوجيه التهم والرد عليها، طلب منه أن يكشف عن الجثث الثلاث، التي كانت قد تحت غطاء يحجبها عن الأنظار. وما أن رفع الغطاء عنها، حتى

ا.. الحضور يضحكون ضحكا عاليا، فقد اتضح للجميع أنها ليست جثثا ثلاثا، وإنما هي ثلاث قرب منتفخةٌ رافعةٌ قوائمها إلى أعلى! وظهر أن المسألة كانت مجرد دعابة، اعتادوا على تقديم مثلها مرة في العام احتفالا بعيد إله الضحك، وكان لزوجة مضيفه بطبيعة الحال يد في إعداد تلك العملية المرعبة. لكن ذلك لم يُشبع فضول لوكيوس، فألح على الخادمة فوتيس أن تمكنه أخيرا من رؤية سيدتها وهي تمارس أعمالها السحرية، فوعدته بتحقيق رغبته في وقت قريب. ووفت بما وعدته به فعلاً، فقادته إلى مكان خفي، استطاعا منه أن يلاحظا معا كيف أخذت بامفيلا مرهماً من إحدى العلب ودهنت به جسمها، فتحولت إلى بومة وطارت وراحت تحلق مبتعدة عن بيتها.

عندها ملك الفضول عليه نفسه، وسيطر على مشاعره، واستبد بفكره، فحرص كل الحرص على أن يعيش هو نفسه تجربة تحول من هذا النوع على الفور. فألح على الخادمة أن تستجيب لرغبته، فلم تمانع في ذلك، وحين أحضرت له المرهم المطلوب، اخطأت في تناول العلبة المناسبة، فكانت نتيجة ذلك أن تحول لوكيوس بعد أن دهن جسده به إلى حمار بدل أن يتحول إلى طائر. وراح هو نفسه يشاهد كيف أخذت تبرز في جسمه كل أعضاء الحمار وكيف أخذ يتصف بجميع صفاته الظاهرة باستثناء عقله، الذى ظل عقل إنسان بما له من إحساس وإدراك وتدبير. لقد حزن لذلك، وأسقط في يد حبيبته الخادمة نفسها، غير أنها وعدته بأنها ستحضر له في الصباح التالي باقةً من الورد ليأكل منها، ويستعيد بذلك شكله الإنساني. وطلبت منه أن يصبر مدة من الزمن، ثم قادته إلى الإسطبل، ليقضي فيه ليلته مع حصانه وحمار مضيفه ميلو، لكن سوء حظه أراد له أن تبدأ معاناته في تلك اللحظة وأن تطول مدة تحوله. فقد شرع زميلاه، اللذان خشيا مزاحمته لهما في علفهما، يرفسانه كلما اقترب منهما، مع أنه لم يكن ممن يأكل التبن والشعير، ثم هاجم اللصوص البيت في الليلة نفسها وأخذوه مع زميليه فيما أخذوا من متاع، وقادوه تحت الضربات الكثيرة الموجعة إلى مغارتهم في أحد الجبال، وكانت تقوم على خدمتهم فيها امرأة عجوز. وفي المغارة عاش حدثا آخر مروعا، وهو أن اللصوص أحضروا معهم فتاة رائعة الجمال، جديرة حتى بإعجاب حمار مثله على حد تعبيره، هي خريطة، كانوا قد اختطفوها يوم عرسها وحملوها إلى المغارة لابتزاز أموال أبويها، فراحت تبكي بكاء مرا تواصل طويلا ولم تسكت إلا عندما هددتها العجوز، فراحت حينئذ تروي لها حكاية لتسليتها، هي حكاية آمور وبسيشة، أو الحب والنفس. وعندما عزم على الفرار، امتطته، ففر بها، لكن اللصوص لحقوا بهما، وأعادوهما، وكان من الممكن أن

يعاقبوهما عقابا شديدا، لولم يحضر شابٌ إلى مغارة اللصوص، ادعى أن له تجارب كثيرة في ميدان اللصوصية، واقترح عليهم أن يكون رئيسهم، فوافقوا على ذلك. ولم يكن هذا الشاب في واقع الأمر غير تليبوليموس، خطيب الفتاة المُختطفة، فأسكر اللصوص، ثم قيدهم وفر بخطيبته بعد أن أركبها فوق ظهر الحمار. حاولت خريطة بعد نجاتها أن ترد للحمار جميله، فطلبت من والديها العناية به، فأمرا بتسليمه إلى رئيس الاصطبل لإرساله إلى المرعى مع الخيل. لكن ما أن وصل الحمار إلى المرعى، حتى وجد معاناةً جديدة في انتظاره. فقد استُخدم في إدارة الرحى، وفُرض عليه حملُ الحطب من الجبل إلى السهل، ولقي معاملة قاسية من الغلام الذى كان يسوقه. كان عليه ذات يوم أن يحمل الحطب من جديد، وإذا بدب يظهرأمامه ويعترض طريقه، فخاف منه وهرب، لكن الخدم لحقوا به وأعادوه إلى رئيسهم. وتبدأ مرحلة جديدة في حياة لوكيوس بعد موت الفتاة، فقد سرقه رئيس الإسطبل وفر به. وبعد مغامرات أخرى وقع في يد مجموعة من رهبان الإلهة السورية إيزيس، فكان عليه أن يحمل تمثالها أثناء تنقلهم. وكانت له معهم تجارب مريرة أيضا، وناله منهم العذاب أكثر من مرة، ولم يسلم من سطوتهم إلا بعد أن اتهم الرهبان بسرقة قدح ذهبي وسجنوا. وأصبح له سيد آخر، فقد اشتراه طحانٌ استخدمه في إدارة حجر الرحى، وكانت زوجته تكره الحمار. وانتقلت ملكيته بعد موت الطحان إلى بستاني، فعانى عنده الجوع والبرد، ومنه انتقلت ملكيته إلى جندي، ثم إلى أخوين يعملان حلاويين وطاهيين عند أحد الأغنياء، وهو ثيازوس الكورنثي، فبدأت مرحلة رائعة بالنسبة إليه، إذ صار يأكل بشكل كاف من بقايا الأطعمة التي كان الأخوان يحضرانها من بيت سيدهم. غير أن تناوله لهذه الأطعمة سرعان ما أصبح سببا في نزاع ثار بين الأخوين: إذ اتهم أحدهما الآخر بأكلها دون علمه، ثم اكتشفا السر، وحدثا سيدهما عن ذلك، فأبدى السيد اهتماما كبيرا بذوق الحمار الغريب واشتراه منهما، وقدمه لعتيق له للعناية به. وعلمه هذا ألعابا مختلفة نالت إعجاب الخاص والعام، وأخذ يؤجرُه لمن يرغب في خدماته المتنوعة؛ من ذلك أن صاحبه قرر تقديمه في عمل مخز على المسرح، لكنه أنقذ نفسه من تلك المهزلة بالفرار منه. وأخذ التعب منه فنام حيثما اتفق له، وحين استيقظ في منتصف الليل وجد نفسه على الشاطيء، ورأى البدر في كبد السماء، فعرف أن وقت الخلاص قد اقترب. فأغطس رأسه في البحر سبع مرات وتضرع بخشوع إلى ملكة السماء أن تحرره من هيأة الحيوان. وعندما عاوده النوم ظهرت له الإلهة إيزيس في حلمه، وأخبرته بأنها قد استجابت لدعائه. وما إن وصل الموكبُ

العظيم لتمجيد إلهة كورنث حتى لمح لوكيوس الكاهن وهو يحمل إكليلا من الورد، فأسرع إليه وأكل من أوراقه، فاستعاد في الحين هيأته البشرية. فتحدث الكاهن عن قدرة الإلهة على إحداث هذه المعجزة التي اندهش لها الناس، وأمر لوكيوس بتكريس حياته لعبادتها. فانضم إلى الموكب المتوجه إلى البحر لتدشين سفينة، ثم عاد معه إلى معبد الإلهة. وظل بعدئذ وفيا لعبادتها إلى أن تم له في النهاية الاطلاع على أسرارها، فكان يتردد في رومة على زيارة معبدها، وبعد سنة من ذلك اطلع أيضا على أسرار أوزيريس ونال الدرجة الثالثة من القدسية بعد فترة أخرى من الزمن وصار كاهنا في نظام الرهبنة.

ولعله كان من الأولى لبطل الرواية أن يسمى بالحمار الوردي، فلون الورد ألصق بالرواية من لون الذهب، فقد ذكر الورد أكثر من مرة، فوصف البطل بأنه وردي البشرة، ووصفت حبيبته بأنها وردية اليد، تتزين له بها وتغمره بأكاليلها، ودماء بسيشة وردية، وفينوس تتنطق بالورد، وما إلى ذلك. والأكثر من ذلك أنه كان يحلم بالورد طيلة فترة تحوله، ويفز كلما رأى الورد أو ما يشبه الورد: لأنه يجسم الخلاص بالنسبة إليه. وما أحلامه إلا أحلام صاحبه في يقظته، وربما أيضا في حلمه قبل أن يجرده من نفسه ويمسخه، وهذه الأوصاف الوردية تذكرنا بالأوصاف، التي كان هومير، وهو ولا شك قدوته في أوصافه هذه وفي مغامرات بطله بشكل من الأشكال، يخلعها على أبطاله في ملحمتيه، وجعل لكل الشخوص الفاعلة فيها معنى تستشف منه طبيعته وميوله.

مصدر الرواية

يدرك القارىء منذ البداية أنه في جوّ يوناني، فالمؤلفُ نفسه يشير إلى ذلك في مطلع الرواية، ومن ثم ليس هناك من شك في أن أصلها، أو المصدر الذى استمدت منه، يوناني محض. ولكن هناك من بين أعمال لقيانوس Lukianos السميساطي (القرن الثاني بعد الميلاد) كتابا يحمل عنوان Lukios e Onos أو لوكيوس والحمار[30]. ويتضمن هذا الكتاب القصة نفسها التي يتضمنها كتابُ التحولات، والبطل نفسه وهو لوكيوس والمغامرات نفسها، لكنهما يختلفان في أن الحدث يسير عند لوقيانوس في خط مستقيم، بينما يتباطأ سير الحدث في رواية أبوليوس بسبب القصص المتناثرة في أماكن مختلفة منها، كما يختلفان في أن النهاية في كتاب لوقيانوس تختلف عنها في الحمار الذهبي. فالحدث عنده يسير بصورة طبيعية، فعندما يرى الحمار في

المسرح إكليل الورد، يقبل على أكل أوراقه ويستعيد صورته الأصلية، وتعقب ذلك مغامرة مسلية، ثم يعود لوكيوس إلى وطنه. أما رواية أبوليوس، فإنها تنتهي نهاية صوفية تمجد عبادة إيزيس وتنوه بها، وبطلها حين يستعيد شكله، يذهب إلى رومة لا إلى وطنه. وهذا الاختلاف يعود فيما يبدو إلى أن أبوليوس أسقط تجاربه الخاصة على بطله. وهنا يطرح السؤال عن علاقة الروايتين، أو القصة والرواية، إحداهما بالأخرى. ولكن ما هنالك من ثغرات وفقرات مبهمة في قصة لوقيانوس السميسطائي، نفتقدها في رواية أبوليوس، مما لا يمكن معه أن نطمئن إلى أن يكون أصلها مستمدا من قصة الحمار، وإنما الأولى أن نقرر مع من ذهب إلى أن القصتين تعتمدان على مصدر واحد مشترك بينهما[31]. وتشير المصادر إلى أن البطريق فوتيوس Photius اطلع على هذا المصدر في القرن التاسع الميلادي، فقد تحدث عن الكتب التي قرأها وكان من بينها تحولات لوكيوس البتري، وأشار إلى أن الكتابين الأولين يلتقيان من حيث المضمون بحمار لوقيانوس، إلا أن السميسطائي هذا تخلى عند رواية القصة عن كل ما يعرقل سيرها نحو نهايتها المسطرة[32]. وعلى هذا فإن كتاب لوكيوس Lukius البتري، الذى اتخذه الكاتب الروماني عنوانا لروايته أيضا، يُعتبر مصدرا للعملين المتشابهين معا. وإذا كان مؤلف هذا المصدر هو لوكيوس البتري، والبطل في العملين يدعى لوكيوس أيضا، فإن ذلك يتضح من شكل الرواية، التي يتحدث فيها البطل عن أحداث حياته. وذلك ما حمل فوتيوس على أن يستنتج أن البطل والمؤلف هما شخص واحد، ويبدو من المؤكد أن العمل كان قد ظهر بدون اسم مؤلفه. ولوقيانيوس يقدم لنا لوكيوس، وللدارس أن ينسبه إلى مصدره الأصلي، على أنه وجيه روماني، يمارس الكتابة الأدبية ومنها كتابة الرواية. ومن الجائز أن يكون الهدف من تحولات المؤلف المجهول السخرية من لوكيوس لاشتغاله بالكتابة الأدبية!

ورواية الحمار الذهبي في واقع الأمر محاكاة ساخرة، تقوم على مراعاة ما لأسلوب النص الأصلي من خصائص وسمات خاصة، ولكن هذا المحاكاة الساخرة لا تنتمي إلى طبيعة القصة اليونانية الهجائية كما نجدها في رواية ستيريكون المذكورة، التي هي هجائية أساسا، وإنما هي تنتمي إلى أنموذج قصة المغامرات، أو قصة المخاطرات، كما يحلو للمرحوم غنيمي هلال أن يسميها، ومن ثم يبدو أن التحول الساخر من إنسان إلى حمار قد تكون له صلة أيضا بتغيير الجنس الأدبي من الملحمة الشعرية إلى الملحمة النثرية. وعلى هذا فهي ليست رواية هجائية بأتم معنى الكلمة، إذ هي تجمع بين السخرية والاستعراضية الفكاهية والهزلية الماجنة والنكات الخلقية

،الهمانية اللاذعة إضافة إلى مراعاة الحالات الوجدانية المتصلة بالمواقف المختلفة ا. .مسياتها الفاعلة، خاصة وأن لأسمائها، كما سبق القول، دلالات محددة في معظم الأ…يان. ويتأكد هذا فيما يرى ريشارد ملاين Richard Mellein في طريقة التأليف، الي، هي إلى الحرية أقرب منها إلى التقيد بالمعايير الصارمة المتسمة بطابع التحرير الصحفي المناسب لهذا النموذج القصصي، غير أنه لا يخلو من مشاهد القسوة والجريمة والغرابة والجنس المقنع من حين لآخر[33]. ومن مميزات الرواية كذلك ا..اوبها الماليزي، وهو أسلوب متنوع يتراوح بين عدد من المستويات واللهجات الخاصة والعامة، يتجلى في بناء لغوي فني محكم. ونهاية الرواية قبل الكتاب الحادي عشر قد لا تعني أن المؤلف أراد أن يضع عالم السمو والرفعة في مقابل عالم التفاهة والضعة، الذى تجلى في الكتب العشرة السابقة أو أنه كان ينوي وصف وضع مثالي على طريقة الرواية النفسية التطورية الحديثة. لقد أصبح من حق بطل الرواية أن ينعم بالراحة في الكتاب الحادي عشر ويتخلص من آلامه ومغامراته المتنوعة، وعبادة الإلهة إيزيس قد تكون بمثابة معادل لاهتمامه بالسحر الأسود في الكتاب الأول. فلهما جانبان متناقضان، ينتمي أحدهما إلى الآخر في مجال الهوس بكل ما هو غير طبيعي، بحيث يمكن أن توضع القداسة المكتسبة في النهاية في مقابل الخطيئة المرتكبة في البداية. لقد قاد فضوله وسوء حظه خطاه، كما يبدو من شكواه المتكررة من إلهة الحظ، وتحكما في مصيره قبل أن يبلغ شاطىء الأمان بفضل ما أحدثته العبادات الشرقية من أثر في الديانات القديمة والحديثة المنتشرة في عصره.

ويرى بعض الدارسين أن الرواية لم تصل إلينا كاملة لأهميتها الأدبية، وإنما وصلتنا على صورتها هذه لأهميتها الدينية والتاريخية، ولا سيما في الكتاب الأخير منها الذي يصف الطقوس الشرقية المتبعة في عبادة إيزيس مع ما قد يكون فيها من امتزاجٍ بالديانة المزدكية،[34] ولكن هذا القول يتناقض، فيما يبدو لي مع ما خصها به بعض الكتاب والأدباء في عصر النهضة من عناية واهتمام، حيث ابتدأ طبعها منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وكان تأثيرها قد امتد قبل ذلك إلى أكثر من قرن. وعلى هذا فإنه ليس من السهل التقليل من أثرها، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار الطريقين اللذين انطلقا منها، إذ أحدها يقودنا إلى روايات المغامرات كما نجدها عند ميغيل سرفنثيس Miguel Cervantes (1616- 1547) في رواية دون كيخوته Don Quijote، وهانس ياكوب غريملسهاوزن Hans Gakob Grimmelshausen (1676-1622) في رواية سيبليتسسموس المغامر Der abentheurliche Simplicissimus،

وألان رينه لوساج Alain ren Lesage (1668-1747) في قصة جيل بلاص السنتياني Histoire de Gil Blas de Santillane، ولويس كوبيروس Louis Jouperus(1923-1863) في رواية الحمار العاشق Der verliebte Esel (الترجمة الألمانية) وغيرها من الروايات الحديثة[35]. أما الطريق الثاني فيقودنا إلى ذلك النوع من القصص، الذى يقوم على أحداث غريبة، تتمثل هنا في الغدر والخيانة الزوجية والغيرة والغدر والقتل والفضول والحب والجريمة، وسأتحدث عن أثر بعض هذه القصص فيما بعد.

الفقرات الإضافية في الرواية

وسع أبوليوس من محيط أحداث الرواية، وأضاف إليها فقرات تطول حينا وتقصر حينا آخر، لا من خلال الأوصاف والزخارف اللفظية فقط، وإنما من خلال القصص أيضا. ولما كانت قصص الرواية ليست ذات علاقة وطيدة بالنص الأصلي، فإننا نفترض أن أغلب هذه المضامين من تأليف أبوليوس نفسه، إذ هي في معظم الأحيان عبارة عن حكايات يدل شكلها المهلهل بين آونةٍ وأخرى على أنها مضافة، ولكن بعضها يمكن اعتباره على نحوٍ ما قسما من الرواية نفسها، منها ما يقع قبل الحدث الرئيسي، ومنها ما يقع بعده. أما قصص القسم المضاف فهي:

(1) قصة انتقام الساحرة ميرو من سقراطيس (الكتاب الأول، والإحالات كلها على النص الأصلي، فقرات 19-5) يرويها أرسطومنيس للبطل أثناء الطريق.

(2) قصة تشويه تيليفرون (الكتاب الثاني، فقرات 30-21)، التي يرويها هو نفسه أثناء تناول الطعام.

(3) قصة الأعمال البطولية، التي قام بها اللصوص الثلاثة لاماخوس، ألكيموس وتراسيليون (الكتاب الرابع، فقرات 21-9)، وقد رويت أثناء تناول الطعام أيضا.

(4) حكاية الحب والنفس أو آمور وبسيشة Amor et Psyche (الكتاب الرابع فقرات، 28 إلى الكتاب السادس فقرة 24)، التي ترويها عجوز لتسلية الفتاة المختطفة خريطة.

(5) قصة الأعمال البطولية، التي قام بها اللص التراكي هيموس (الكتاب السابع، فقرات 8-5)، ونسبها تليبوليموس إلى نفسه.

(6) قصة ثأر خريطة من قاتل زوجها (الكتاب الثامن، فقرات 14-1)، تروى على لسان خادمها.

(7) قصة العقاب البشع، الذى سلطه سيد على عبدٍ له خان زوجته (الكتاب الثامن، فقرة 22)، وقد سمعها لوكيوس في أحد المنازل.

(8) حيلة امرأة أخفت عشيقها في برميل (الكتاب التاسع، فقرات 7-5)، عرفها البطل أثناء رحلة من رحلاته، وقد اقتبسها الكاتب الإيطاليُّ بوكاتشيو في كتاب ديكاميرونه، وهي القصة الثانية من اليوم السابع.

(9) مغامرات الخيانة الزوجية، التي يقوم بها فيليتايروس (الكتاب التاسع، فقرات 21-17)، ترويها قوادة عجوز.

(10) قصة العاشق المتخفي، الذى يكشف عن نفسه من خلال عُطاسه (الكتاب التاسع، فقرتا 25-24)، يرويها رجل لزوجته، وقد اقتبسها بوكاتشو أيضا، وهي القصة العاشرة من اليوم لخامس .

(11) انتقام الأم، التي صدها ربيبها، ومعاقبتها له (الكتاب العاشر، فقرات 12-2)، سمعها البطل أثناء إحدى رحلاته.

(12) الأعمال البشعة، التي ارتكبتها امرأة معروفة بمزج السموم (الكتاب العاشر، فقرات 28-23)، سمعها بطل الرواية ورواها بنفسه.

أما القصص، التي ترتبط بالحدث وأدخلها أبوليوس في صلب الرواية، فهي:

(13) تقلب بيثياس (الكتاب الأول، فقرتا 25-24).

(14) موت الصبي الشرير (الكتاب السابع، فقرات 28-24).

(15) قصة التنين (الكتاب الثامن، فقرات 21-18).

(16) موت الطحان (الكتاب التاسع، فقرتا 31-30).

(17) موت الإخوة الثلاثة، الذين مزقت أجسادهم الكلاب الضارية (الكتاب التاسع، فقرات 38-33).

خرافة الحب والنفس

تعد خرافة الحب والنفس أو آمور وبسيشة أجمل قصة في رواية الحمار الذهبي وأروع قصة في الآداب القديمة على الإطلاق، وهي الوحيدة أيضا، التي تعود إلى العصور اليونانية واللاتينية. تبدأ بداية الخرافة حقيقة "كان في قديم الزمان.."،

يعيش معها القارىء في عالم الخرافة فعلا من بدايتها إلى نهايتها. وقد انفصلت عن الأصل منذ فترة طويلة، أي منذ القرن الرابع عشر، وأصبح لها نهجها الخاص وأثرها المتميز في مختلف الفنون والآداب العالمية على السواء. ولذلك تستحق أن نتحدث عنها بشيء من التفصيل، وهذه خلاصتها أولا:

عاش في قديم الزمان ملك وملكة، كانت لهما ثلاث بنات جميلات، وخصوصا صغراهن، وهي بسيشة، إذ بلغت حدا من الجمال الفتان، جعل الكل يسعون إليها للتمتع برؤيتها وعبادتها وكأنها إلهة، مما أدى إلى إهمال عبادة إلهة الجمال فينوس ونسيانها تماما. فأخذت الإلهة تفكر في الانتقام لكرامتها لما لحقها من إهمال بسبب منافستها في الجمال. فطلبت من ابنها آمور أن يوقع مُنافِستها هذه في حب رجل غير أهل لها وأن يسلط عليها العذاب والشقاء. كانت أختاها في أثناء ذلك قد تزوجتا، أما هي فلم يتقدم إلى خطبتها وطلب يدها أحد من الشبان رغم ما كانت تثيره في نفوس الجميع من إعجاب ودهشة. فخشي أبوها على مستقبلها وقرر أن يستخير الإله في معبد ميليت (ملطية)، وإذا به يتلقى الأمر بحملها إلى صخرة وتركها فيها ليتقدم إلى طلب يدها خاطب مارد يتسم بالقسوة والجبروت. نفذ الملك ما أمر به بقلب حزين، فجاءت ريح غربية (زيفيروس) وحملت بسيشة إلى أحد الوديان ووضعتها فوق العشب الأخضر. وهناك لمحت قصرا رائعا، فذهبت إليه، وراحت تتأمل روعته وجماله، وفجأة سمعت هاتفا يدعوها إلى التمتع بكل ما تراه حولها من نعم سابغة. وظهرت أمامها مائدة، صف فوقها أشهى الأطعمة وألذها، وتصاعدت من مكان ما أنغام موسيقية رائعة، ولكنها لم تر في القصر أي كائن بشري. وعندما هبط الليل بحثت بسيشة عن مكان تنام فيه، وعندها تقدم منها عريس مجهول، واشترط عليها ألا تحاول رؤيته، فإن فعلت ذلك اختفى عنها نهائيا. ثم مكث عندها متخفيا عنها، ولم يفارقها إلا عند مطلع النهار، وتكرر معها هذا لفترة من الزمن. وكان أبواها في أثناء ذلك قد اعترتهما كآبة حزينة، فأسرعت إليهما البنتان الباقيتان لمواساتهما. فطلبت بسيشة من زوجها المجهول أن يسمح لها بدعوة أختيها لزيارتها حتى تعرف منهما أخبار والديها، فاستجاب لطلبها، ولكنه حذرها من أن تتأثر بأختيها فتحاول رؤيته لمعرفة شكله. وحين أحضرت الريح الغربية أختيها، اندهشتا لما شاهدتاه في القصر من النعيم، الذى تعيش فيه أختهما، وأعجبتا به أيما إعجاب، وثارت في نفسيهما على الفور مشاعر الحسد والغيرة. وعندما تساءلتا عن زوجها، عرفت بسيشة كيف تراوغهما في الإجابة عن تساؤلهما، ثم قدمت لهما هدايا كثيرة،

وصرفتهما عنها وأمرت الريح الغربية بالعودة بهما إلى بلدتهما. وعاودت بسيشة طلب حضورهما مرة ثانية وثالثة رغم تحذيرات زوجها لها في كل مرة، فاستطاعتا في النهاية أن تقنعاها بأن زائرها الليلي المجهول ما هو إلا تنين لن يلبث أن يجعل منها ضحية من ضحاياه. عندئذ وافقت على قتل زوجها، فتناولت خنجرا، ولكنها ماكادت تقترب من فراشه والمصباح في يدها لتنفيذ ما عزمت عليه، حتى رأت إله الحب بكل جماله الخلاب مضطجعا أمامها وإلى جانبه فوق الأرض كنانتُه ونبالُه. فأخذت تنظر إليه مشدوهة، ونيرانُ الحب والوله تزداد في أعماقها ضراما، وإذا بقطرة زيت حارة تسقط من المصباح فوق كتفه اليمنى وتحرقه، فاستيقظ آمور غاضبا، وطار بعيدا واختفى في الفضاء. وحينئذ بدأ زمن العذاب بالنسبة لبسيشة، فانتقمت لنفسها من أختيها الشريرتين. وبينما كانت هي تطوف هنا وهناك، كان إله الحب طريح فراش المرض يعاني من الحرق، الذى كانت هي سببا فيه. لكن نورسة باحت لفينوس، التي كانت تسبح في البحر، بقصة حب ابنها لبسيشة، فغضبت الإلهة وأسرعت إليه في الحين وأخذت تعاتبه بشدة وتصفه بالتفاهة والوضاعة وتتوعده حتى بحرمانه من الميراث، لأنه تزوج من عدوتها دون علمها، ولكن الإلهتين سيريس ويونو وقفتا إلى جانب إله الحب ودافعتا عنه. ومع ذلك فعندما اقتربت منهما بسيشة أثناء تطوافها، وطلبت منه مساعدتهما، خيبتا ظنها إذ رفضا مساعدتها في الوصول إلى حبيبها خوفا من غضب فينوس، فقررت في حيرتها أن تتوجه بنفسها إلى فينوس لتكون تابعة لها خاضعة. غير أن الإلهة كانت قد ركبت عربتها التي تجرها الحمائم وتوجهت إلى قصر جوبتر، لتطلب منه مساعدتها في البحث عن الفتاة الشريرة، فاستجاب لرغبتها وأسند هذه المهمة إلى عطارد (ميركور). فاتجه عطارد إلى المدينة، وطلب من الجميع البحث عن المكان الذى تقيم فيه بسيشة، ووعد من يعثر عليها بجائزة تتمثل في سبع قبلات، يأخذها من فينوس نفسها. فتسارع الناس إلى البحث عنها في كل مكان طمعا في نيل المكافأة، فكانت من نصيب إحدى خادمات فينوس، فقوّى ذلك من عزيمة بسيشة في أن تسلم نفسها لفينوس وتضع نفسها في خدمتها. غير أن فينوس استقبلتها استقبال الحماة الشريرة لزوجة ابنها، فسخرت منها سخرية كبيرة، وسلطت عليها عذابا جسديا مريعا، ثم طلبت منها القيام بأعمال تبدو مستحيلة لأول وهلة. فكلفتها أولا بفرز كومة كبيرة من الحبوب، تتكون من الشعير والذرة والخشخاش والبازلاء والعدس والفاصولياء، فوقفت بسيشة حيالها مشدوهةً مشلولة، لا تدري من أين تبدأ، لكن نملة أشفقت عليها، فدعت أخواتها ليساعدنها

بنشاطهن الدئوب في فرز تلك الكومة. وعندما عادت فينوس ورأت أنها قد انتهت من عملها، اتهمتها ـهي الحماةـ بأنها ما كانت لتنتهي من فرز تلك الكومة في هذا الوقت القصير لو لم يشاركها غيرها في فرزها. لذلك كلفتها في اليوم التالي بإحضار جزة من الصوف الذهبي لنعاج متوحشة تعيش في غابة على ضفتي النهر وحملها إليها، فذهبت إليها لا لتحضر الجزة، وإنما لتلقي بنفسها من أعلى صخرة فوق الضفة وتضع بذلك حدا لآلامها. وإذا بقصبة خضراء تُطلعها عن طريق العزف والغناء على الطريقة التي تمكنها من الحصول على الصوف الذهبي. ومع ذلك لم ترض عنها حماتها وسيدتها أيضا، بل اتهمتها بالسحر، وكلفتها بمهمة ثالثة تتمثل في إحضار جرة مملوءة بالماء من ينبوع في جبل شاهق يحرسه تنينان، فأسرع نسر جوبيتر في هذه المرة إلى مساعدتها وملأ لها الجرة من ماء الينبوع. وكلفتها في النهاية بأصعب عملٍ رأت فيه بسيشة حتفها رأي العين، إذ قدمت لها علبة، وطلبت منها أن تذهب إلى بروسيبريينا في العالم السفلي وتطلب منها باسمها نصيبا من جمالها: لأنها قد فقدت شيئا من جمالها حين أسرفت في السهر على تمريض ابنها. صعدت بسيشة إلى أحد البروج، وهمت بإلقاء نفسها منه للتخلص من حياتها ومما هي فيه، ولكن البرج تحدث إليها وأراها الطريق إلى الجحيم وقدم لها نصائح بهذا الشأن، ملحا عليها ألا تفتح العلبة عند عودتها من العالم السفلي. فتم لها كل شيء على ما يرام، إلا أن تطلعها إلى معرفة ما في العلبة تغلب عليها عند رجوعها إلى العالم العلوي، ففتحتها رغبة منها في أن تخص نفسها بعد معاناتها الطويلة بشيء من الجمال، لتفتن به زوجها، وإذا بالنوم يخرج منها ويأخذها وينقلها إلى حالة شبيهة بحالة الموت. وفي هذا المرة أسرع إليها آمورنفسه، وكان قد شفي خلال ذلك وفر من سجن أمه، وأنقذها من النوم، وأيقظها بلسعة من سهمه، ومكنها من إيصال العلبة إلى أمه. وبناء على توسلات إله الحب كلف جوبيتر عطارد بدعوة الآلهة إلى حضور اجتماع به، وعندما حضروا أعلن بصورة احتفالية زواج آمور من بسيشة، ومنحها الخلود لتكون جديرة به. وتمت حفلة الزواج فورا، وقد وضعت بسيشة فيما بعد طفلة، أطلق عليها اسم "فولوبتاس voluptas وتعني اللذة".

هذه هي خلاصة القصة، التي احتفظت بجمالها على ما في تقديمها هنا من إيجاز وابتسار، ولعل هذه الخلاصة تدفع القارىء إلى قراءتها والانفعال بما فيها من جوانب عاطفية كثيرة. لقد حاول النقاد دوما تفسيرها تفسيرا رمزيا، فاعتبرها بعضهم رمزا إلى العلاقة بين النفس الإنسانية والحبّ السماوي(36). والظاهر أن

ابوليوس تأثر فيها بفكرة الحب عند أفلاطون، وقد لا يستبعد هذا أحد، فالمؤلف يصف نفسه، كما سبق القول، بالفيلسوف الأفلاطوني، ويعترف به أستاذا له. ويشير جوهر القصة إلى جانبين ينتمي كل منهما إلى عالم الخرافة، الجانب الأول يشير إلى العريس الحيواني، الذى لا يقترب من حبيبته إلا إذا هو تحول أو لم تتمكن هي من رؤيته، وتتسبب في طرده إذا هي حاولت ذلك، والجانب الثاني يشير إلى الحبيب، الذى يختبر وفاء حبيبه، فيقوده النجاح في اختباره إلى اللقاء بها أو الوصول إليها. وترى فرانتسل أن وجود فينوس وبقية الآلهة في الحكاية قد رفعها من المجال الشعبي إلى المجال الإلهي، مما جعلها تتحول إلى أسطورة فنية. وإذا لم تكن هذه الحكاية من إبداع أبوليوس، فإنها قد اتخذت على أية حال هذا الطابع الخاص الذى عرفت به على مدى العصور.

كانت قصة آمور وبسيشة قد عرفت في العصور الوسطى، لكنها لم تصبح موضوعا أدبيا خصبا ومصدر وحي لفنون مختلفة إلا بعد أن تناولها بوكاتشو في كتابه نسب الآلهة Deorum Genealogia، فقامت عل أساسها بعد ذلك عدة أعمال إيطالية، ضاع بعضها، ومن هذه الأعمال مسرحية غاليوتو دال كريتو Karreto dal Galeotto، التي جعل عنوانها أعراس بسيشة وكوبيدوLe Noze di Psyche e di Cupidine (1520)، وسوارو Sauaro في مسرحيته بسيشة المؤلهةLa Psiche deificata (1668)، وملحمة أودنه Udine، التي اختار لها عنوان الوقائع الغرامية لبسيشة di W amorosi di Avvenimenti Psiche(99/1598) وغيرها.

وبدأ الاهتمام بهذه القصة في الأدب الإنجليزي منذ مطلع القرن السابع عشر، فكتب هـ. تشاتل H. Chettle (بالاشتراك مع غيره) مسرحية ضائعة تحت عنوان الحمار الذهبي وكوبيدو وبسيشة The Golden Ass and Cupid and Psiche (1600)، وكتبها ش. مارميون Sh. Marmion في قصيدة مطولة بعنوان أسطورة كوبيدو وبسيشة The Legend of Cupid and Psyche (1637)، وتناولها غ. ريدلي G. Ridley في عمله بسيشة أو التحول العظيم Psyche or the Great Metamorphosis (1749)، وهنري تايغ Henry Teighe في ملحمته بسيشة أو أسطورة الحب Psyche or The Legend of Love (1795)، وقد فسرها هؤلاء تفسيرا دينيا حينا ورمزيا حينا آخر[37]. ولعل آخر من تناولها في الأدب الإنجليزي الحديث، وجعل من أبوليوس مصدرا له بصورة مباشرة، هو الروائي كليف ستيبلس لويس Clive Staples Louis في روايته "إلى أن تكون لنا وجوه ـ رواية أسطورة Till We Have Faces -- A Myth Retold"، التي نشرها في

لندن عام 1956، وتعتبر هذه الرواية من أجمل ما كتب عن موضوع آمور وبسيشة في الأدب العالمي قديما وحديثا(38).

وتناولها في الأدب الإسباني كالدرون دي لاباركا Calderon de la Barca (1681- - 1600) في مسرحية " لا يتحرر الحب من الحب Amor da libra se Amor Ni (1640)، كما تناولها أنتونيو دي سوليس Antonio de Solis (1610-1686) في مسرحيته "انتصارات الحب والسعادة Triunfos de Amor y Fortuna (1660)"، ولكنه ربطها بقصة انديميون Endymion، أي أنه جعلها قصة داخل قصة، كما فعل قبله الكاتب الانجليزي ث. هايوود Th. Heywood في مسرحيته " لويس ميستريس أو قناع الملكة Loues Mistriss, or The Queens Masque (1633)، حين ربطها بقصة الملك ميداس Midas.

ومن أشهر من تناولها في الأدب الفرنسي الشاعر جان دي لافونتين Jean de La fontaine (1621-1695) في روايته غراميات بسيشة وكوبدو Les Amours de Psych et de Cupidon(1969)، وهي القصة، التي تأثر بها الشاعر الروسي ا. ف. بغدانوفيتشIppolit Fedorowitsch Bogdanowitsch (1743-1803) في قصته الشعرية النفس Duchenka ـ والكلمة تصغير لكلمة دوشا Ducha، التي تعني في الروسية النفس ـ (39). ويمكن أن نضيف إلى ذلك ما كتبه عنها في القرن التاسع عشر الفونس دى لامارتين Alphonse de Lamartine (1790-1869) في كتابه موت سقراط Mort de Socrate (1823)، والشاعر البرناسي ف. ر. دي لابرادVictor Richard de Laprade (1812 -1883) في قصيدته بسيشة Psych (1841)، وقد تناولها كلاهما بناء على تصورات مسيحية أفلاطونية.

ولا يقل أثر بسيشة في الفنون الموسيقية والمسرحية والتشكيلية عنه في الفنون الأدبية، وكانت الفنون التشكيلية أسبق إلى الاهتمام بها من الفنون الأدبية. وقد يكون من المهم أن نذكر من بين هذه الأعمال تلك السنفونية الشعرية(40) التي وضعها الموسيقار البلجيكي سيزار فرانك Cesar Franck (1822-1890) عام 1887، وروى قصتها في ستة أقسام، بدأها بنوم بسيشة وأحلامها Le sommeil et les songes de Psyche وأنهاها بانتصار الحب الخالد لبسيشة وإيروس Le triomphe de l'amour immortel de Psyche et de d'Eros . ولنذكر في مجال الرسم على الجدران اللوحات التسع، التي يروي فيها الرسام النمساوي موريتس فون شفندMoritz von Schwind

(1804-1871) قصة أمور وبسيشة من البداية إلى النهاية، تمثل كل لوحة منها مضامين فقرات من الكتاب تختلف طولا وقصرا. ومن اللوحات الفنية الشهيرة، التي اصبحت مصدرا عند الشعراء، لوحة "بسيشة المهجورة أمام قصر إيروس" للرسام الفرنسي كلود لوران Claude Lorrain (1600-1682)، فقد استوحى منها الشاعر الفرنسي بيير جان جوفـPierre Jean Jouve (1887-1976) قصيدة تحمل عنوان اللوحة. ولنذكر في مجال النحت أيضا تمثال آمور وبسيشة للنحات السويدي يوهان سيرغل Sergel (1740-1814)، التي تأثر بها الشاعر السويدي هيالمار غولبيرغ Hjalmar Gulberg (1898-1961)، وكتب قصيدة جميلة بعنوان "الموجة والغرانيت"[41].

أما في الأدب العربي الحديث، فقد روى قصة أمور وبسيشة كل من دريني خشبة، وفؤاد جرجي بربارة، وأمين سلامة، ولكنهم لم ينسبوها إلى صاحبها، وإنما اعتبروها مجرد أسطورة يونانية، أو أسطورة يونانية رومانية بالنسبة لأمين سلامة، مع أنها ليس لها أصل يوناني معروف. وتحدث عنها غنيمي هلال، وعثمان سعدي، وغيرهم، غير أنه لم يتخذها - في حدود ما أعلم - مصدرا لإلهامه، إضافة إلى تقديم خلاصة قصيرة لها في إطار قصة من القصص، غير القصاص السوري عبد السلام العجيلي[42].

طبيعة الرواية

ليست رواية الحمار الذهبي عملا إبداعيا، وإنما هي عمل يقوم على مصدر يوناني، إلا أنه لا يمكن اعتبارها مجرد ترجمة، ذلك أن أبوليوس، بغض النظر عن التغييرات الكثيرة، قد تجاوز مصدره من ناحيتين، إذ أخذ المصدر اليوناني على أنه إطار لإضافة حكايات مماثلة، تخترق مسير الحدث المستقيم ولا تنضم إلى الحدث الرئيسي في أغلب الأحيان إلا بصورة آلية. وليس من الممكن طبعا معرفة ما إذا كان أبوليوس قد ابتدع بعض هذه القصص أم أخذها عن غيره، إلا أنه ليس من المستبعد أن يكون قد اعتمد هنا على مصادر أجنبية أو محلية، خصوصا فيما يتصل من ذلك بالأعمال السحرية التي كانت في نوميديا شرقا وغربا وفي الشمال الإفريقي القديم كله. ثم إن أبوليوس تجاوز المصدر اليوناني، وإن لم يكن هذا التجاوز في صالح هذا المصدر، عندما حل في نهاية الرواية محل بطله وتحدث فيها عن حياته الخاصة، ففصل بذلك الحدث الرئيسي عن مجراه واهتم بتمجيد عبادة الإلهة إيزيس. وإذا كان

عمل المؤلف اليوناني من خلال مغامرات البطل العديدة عبارة عن نقد للظروف الاجتماعية في عصره وسخرية منه، فإن معاناة البطل عند أبوليوس تبدو بسبب النهاية غير العضوية بمثابة تجارب حياتية، تجد حلها في الأسرار المقدسة، فحطمت هذه الإزاحة الوحدة الفنية للرواية، وجعلت من البطل شخصية متذبذبة بين الرغبة في الرهبنة حبا في القداسة وبين الاستقامة ميلا إلى ممارسة الحياة الخاصة.

وعندما نقارن ما كتبه لوقيانوس بما كتبه أبوليوس نلاحظ أن الأسلوب، الذى اتبعه أبوليوس في كتابة روايته، يختلف عن أسلوب المصدر الأصلي، لأنه كان يريد أن يكون له منه أسلوب خاص به وحده، لا سيما فيما يتصل من ذلك بسرد العديد من التفاصيل، التي خلعت على روايته نوعا من الزخرفة اللفظية، وأظهرت مدى قدرته على أن يكون أصيلا في كتاباته. ورغم أن أسلوبه يبدو مناقضا لطريقة التعبير البسيطة في المصدر الأصلي، إذ هو مترهل، مليء بالعبارات الشعبية والاقتباسات الأدبية القديمة، متوفر على المحسنات البلاغية وشيء من الشاعرية، فإنه يبدو وعاء مناسبا للرواية، يترك في كل قارئ سحرا خاصا حسب ما يكون لديه من قدرة على الفهم والاستيعاب(43).

ولا شك أن أبوليوس كان على حق حين خاطب القارئ في بداية الرواية قائلا:

انتبه، ستنال حظك من التسلية! والرواية تفتننا حقيقة وتحملنا عى مواصلة القراءة حتى النهاية. كان باول لويس كورييـر Paul louis Courier، كما يقول شرانتس، معجبا بما يقدمه لنا لوقيانوس في حماره من قصص مخترعة، ترسم لنا صورة رائعة عن العالم القديم، وتعرض علينا جرأة اللصوص، ودناءة الرهبان، وقسوة السيد على عبيده. وإننا نعجب بكل هذا بصورة أكثر، ونعيش متعة أسمى حين نتلمسها في رواية التحولات لأبوليوس، حتى إننا لننسى من خلالها ما قد يكون في تركيبة الرواية من خلل فني، حاول بعض النقاد التركيز عليه، طمعاً في نفي الأصالة عن مؤلفها، أو ربما هكذا يبدو الأمر للدارس (44).

شخصية أبوليوس

كان أبوليوس، فيما وصفه به بيتولو، يتسم في مظهره بالجمال والنبل حتى بعد أن نحل جسمه وشحب لونه، ومن ثم كان الجمال من التهم الرئيسية الموجهة إليه. وقد وصفه القديس أغوستينوس بأنه كان فيلسوفا أفلاطونيا شهيرا، غير أنه تحدث عنه وهو يهاجم الأعمال السحرية مدعيا أنه يتلقى معارفه من قوى غيبية. وحين يتحدث

من التحولات لا نعرف من حديثه إن كان يعتبر هذه الرواية دعابة خيالية أو يعتبرها عملا جادا، فهو يقول عنه: "هكذا يذكر أبوليوس أنه تحول إلى حمار، سواء أكان قد اعتقد ذلك أم صورته له مخيلته". ويؤكد بيتولو أن أبوليوس في واقع الأمر رجل روماني من حيث اللغة التي استعملها في التعبير عن أفكاره، وهو روماني من حيث المدينة، إذ ولد في مدينة رومانية وتعلم في مدينة رومانية، وهو روماني من حيث علاقاته وصداقاته ومن حيث تبعيته لمن كانوا يحكمون البلاد من الرومان، ويمكن أن نضيف إلى ذلك أنه روماني أيضا من حيث انتماؤه إلى إمبراطوريته الرومانية في الرواية نفسها. لكن دراساته تربطه من جانب آخر باليونان، إذ ألف عدة كتب باليونانية التي كان يستعملها كما يستعمل اللغة اللاتينية، فكان يقلد أو يترجم الأدب اليوناني في معظم كتبه على عادة معظم من سبقه من الكتاب الرومان. وهناك في اعتقاده ثلاث خصائص كبرى، تميز بها القرن الثاني بعد الميلاد، تكونت منها شخصية أبوليوس، هي كونه رعية من رعايا الدولة الرومانية، تلميذا معجبا بالفكر اليوناني ومتحمسا له، وراهبا وثنيا عدوا للمسيحية، وهو بهذا خلاصة عصره إن صح هذا التعبير، وروايته تعبير عن الواقع العام للفكر الروماني في القرن الثاني المسيحي[45].

وإذا كانت التحولات قد قدمت لنا أبوليوس بصفته روائيا، وقدمته لنا خطبةُ الدفاع والأزاهير بصفته خطيبا، فإن كتبه الأخرى تقدمه لنا بصفته فيلسوفا. وعندما ننظر إلى مجموعة مؤلفاته، مع أخذ ما ضاع منها بعين الاعتبار، نندهش لتنوعه الكبير، فهو فيلسوف وخطيب وعالم طبيعي وكاتب أخلاقي وروائي ومسرحي وملحمي وشاعر غنائي، قرأ الكثير وحاول أن يكتب في كل فن، فنحن نجده قد برز في ميدان النثر كما برز في ميدان الشعر، وذلك في ميدان الأعمال الجادة والرواية المتهورة والأشعار الغزلية والهجائية، وكان متمكنا من اللغة اليونانية تمكنه من اللغة اللاتينية. فقد كان يحدث له أن يكتب موضوعه بهما معا، كما نستشف ذلك من نهاية الأزاهير. ولعله كان يبحث عن الشهرة والتفوق على الرومان من خلال هذا التنوع. من المؤكد أنه لم يكن من السهل عليه أن يكون أصيلا في كل شيء، ولكن موهبته النشيطة كان لا بد لها أن تترك آثارها في كل ما يتناوله، وهنا يتجلى إبداعه، ولم يكن يدعي أكثر من هذا. فقد كان مرتبطا في أعماله الجوهرية بالأصول اليونانية، وكان يشعر بالسرور، كما قال في الدفاع، كلما استطاع أن يقدم للرومان كلمات يونانية جديدة.

وأسلوبه هو الذي يحدد له مكانته بين الكتاب الرومان، ولكن هذا الأسلوب، كما

سبق القول، مصطنع، فهو يريده على أن يكون بديعا، وذلك ما يدفعه إلى السخرية من الأسلوب الاعتباطي السهل. وقد تبع في ذلك ذوق العصر، الذى جنح بقيادة فرونتو إلى بعث الكلمات الميتة لإضفاء مسحة جمالية على طريقة السرد. ومن ثم أثرى قاموسه اللغوي بمفردات مستمدة من اللغة الشعبية والمؤلفين القدامى، واستعمل إلى جانب ذلك صوراً بلاغية، وعباراتٌ شعرية كثيرة، وجملا متكلفة، وتعابير ذات نسيج خاص، يهجم بكل هذا على القارىء ويحاول إثارته. على أنه لا يتمسك بأسلوب واحد، إذ يتغير أسلوبه ويتخذ ألوانا متنوعة وفقا للموضوع الذى يعالجه. ويبدو أسلوبه في خطبة الدفاع أكثر طبيعية منه في أعماله الأخرى نسبيا. أما أسلوب الأزاهير فيتميز العرض فيها بالزخرفة والبراعة وحسن السبك، بينما يحتوي أسلوبه في التحولات على ألوان متنوعة وعلى كثير من المحسنات البديعية الرائعة[46]. وهذا كله يجعله يتميز عن معاصريه فرونتو وأولوس جيليوس Aulus Gellius (القرن الثاني ب م) . وقد كافأه عصره أيضا على موهبته هذه وكرمه وأقام له التماثيل، ولكن الرجل الطموح كان يريد أن يكون أكثر من خطيب مصقع، وكان يفضل أن يدعى بالفيلسوف الأفلاطوني، ولا غرو في ذلك، فهو يصف أفلاطون بالعبقرية الإلهية. ومع ذلك كان يعوزه الإدراك الواضح للنظام الفلسفي الأفلاطوني، وكان عاجزا عن أن يجعل لأفكاره وحدة عضوية. كانت الفلسفة بالنسبة إليه تتمثل في معرفة أسرار الطبيعة الخفية وعالم الأرواح، وكانت طبيعته تميل إلى هذا الجانب الغامض من الحياة البشرية، وكانت مشاركته في الأسرار الدينية تنم من جهة أخرى عن نزعته الدينية العميقة، فقادته إلى الديانات الشرقية، وخصوصا الديانة المصرية وإلى مذهب التلفيق بشكل عام. أما الديانة المسيحية فقد أشار إلى نفوره منها بصورة قاطعة. وعلى هذا فقد كان شخصية متناقضة، كما يتضح ذلك من رواية الحمار الذهبي، اجتمع فيها الزهد بحب مسرات الدنيا، والجد بالهزل، فكانت صورة لعصره المريض المضطرب[47].

حياة أبوليوس بعد موته

لم تنته شهرة أبوليوس وأمجاده بموته، فقد أقبل الناس على قراءة مؤلفاته بجد ونشاط، فقد اختار مدعي العرش كلوديوس البينوس Clodius Albinus رواية التحولات لتكون أفضل قراءاته. ويمكننا تتبع تأثيرات أسلوبه عبر عدة عصور، وقد كانت كتاباته بالنسبة إلى النحاة بمثابة كنز، يعثرون فيه على الأشكال النادرة والألفاظ التي تتطلب الشرح والإيضاح. كانت شهرته من الاتساع بحيث اعتبر اسمه لافتة نموذجية لبيع المنتجات الأدبية في الأسواق. وكانت له أمجاد أخرى: لقد دخل مثل

الشاعر الروماني الساحر بوبليوس فيرجيليوس Publius Vergilius (70-19 ق.م) في مجال الأسطورة بصفته ساحرا وصاحب كرامات عديدة. ونجده يقوم بهذا الدور لأول مرة عند لكتانتيوس Lactantius، فعندما كتب تعاليمه عن الأمور الإلهية، تذكر كرامات أبوليوس الكثيرة، التي كانت لا تزال متداولة بين الناس. ولما جاء عصر القديس أغوستينوس كان صاحب الكرامات قد أصبح شخصية ثابتة، فكان على زعيم آباء الكنيسة أن يهتم به بشكل جاد، فقد تحدث عن كتاب التحولات تحت اسم "الحمار الذهبي"، وكان يعرف خطبة الدفاع، وأصدر حكمه على كتابه عن إله سقراط، وقرأ له أيضا خطبة تعتبر اليوم مفقودة، وكان كذلك على علم بسيرة حياة مواطنه.

ولكن الذى نبه أغوستينوس إليه هو الاتجاه، الذى ظهر في ذلك الحين، وكان يدعو إلى وضع أبوليوس وأبولُّونيوس التيانيApollonius de Thyana مع المسيح في منزلة واحدة. فكان عليه أن يرد على تهجمه هذا على المسيحية. ولم يكن في وسع أغوستينوس أن ينكر السحر ولا أن ينكر كرامات أبوليوس، فحاول أن يفسر ذلك تفسيرا لا يضر بالمسيحية، فنسب تلك الكرامات إلى درجة أقل حينا، وإلى ورودها، بتأثير من الأرواح الشريرة، من الشياطين ، حينا آخر. أما لماذا اعتبر أبوليوس ساحرا وصاحب كرامات، فإن السبب في ذلك واضح. فقد كان على أبوليوس أن يدافع عن نفسه عندما اتهم بالسحر، فانتقلت خطبة الدفاع إلى الأجيال القادمة بما فيها من تهم وجهها إليه خصومه، ثم إنه كتب رواية تتعلق بالسحر، وبما أن الراوي يرويها بضمير المتكلم، فقد اعتُبر الراوي والبطل شخصا واحدا، وذلك ما فعله القديس أغوستينوس مثلا، وكان الناس يعرفون أيضا أن أبوليوس كان راهبا، انضم إلى عدد من الطوائف السرية، أو الطوائف التي تؤمن بالأسرار. فكان لهذا كله دوره الحاسم في الصراع، الذى كان قائما في ذلك الحين بين المسيحية والوثنية، وكذلك في تزويد أبوليوس بقوى جديدة للإيقاع بينه وبين المسيحية. واستمرت أسطورة أبوليوس، الساحر، حتى العصور الوسطى[48]. وما كاد أبوليوس الساحر يختفي، حتى ظهر أبوليوس الأديب، الذى امتد تأثيره حتى العصر الحديث،كما ظهر أبوليوس الفيلسوف، ولو أن موسوعة الفلاسفة اختصرت فلسفته، قبل ذكر مؤلفاته، في جملة واحدة، هي "الأفكار تكمن في عقل الإله[49]". وقد تركت رواية التحولات آثارها في كتاب الرواية المحدثين، خاصة حكاية الحب والنفس، التي ظهرت في المجال الأدبي مثلما في مجال الرسم والموسيقى والفنون التشكيلية، كما تمت الإشارة إلى ذلك فيما سبق. وقد يهم الباحثين أن يعرفوا أن الدراسات النفسية بدأت هي الأخرى تهتم برواية الحمار

الذهبي بعد أن تكشف لها أنها ذات صلة عميقة بإنسان القرن العشرين إذا فُهمت على أنها تعبير رمزي عن القضايا اللاشعوية. ذلك ما فعلته -ولعل هناك غيرها أيضا- معاونة العالم النفسي السويسري الشهير كارل غوستاف يونغ (1875-1961) الباحثة ماري - لويز فرانتس في كتابها "خلاص الأنثوي في الرجل، الحمار الذهبي لأبوليوس من وجهة الدراسة النفسية العميقة [50]". ولا شك أنه سيشغل في المستقبل عددا آخر من النقاد والدارسين، يعترفون له بريادته وفضله مادام هناك اهتمام بتاريخ الرواية وبتاريخ القصة القصيرة والقصة المطولة ومعاييرها الفنية.

الهوامش

[1] اعتمدت في هذه الدراسة على المصادروالمراجع الأساسية لحياة أبوليوس، تتمثل الأولى في كتبه خطبة الدفاع، والأزاهير، والكتاب الحادي عشر من رواية الحمار الذهبي، وتتمثل الثانية في الكتب الآتية:

1) Pauly Real-Encycloädie der classischen Altertumswissenschaft, Stuttgart 1896, B. 2.
2) Martin Schranz, Geschichte der römischen Literrature, München 1922, II 3.
3) Karl Büchner, Römische Literaturgeschichte, Stuttgart 196.
4) Apuleius, lateinisch und deutsch, der Goldene Esel, herausgegeben und übersetzt von Edward Brandt und Wilhelm Ehlers, München 1980.
5) Apuleius, Der Goldene Esel, ins Deutsche übertragen von August Rode, München 1961.
6) Apuleius, Amor und Psyche, lateinisch und deutsch, übersetzung von Reinhold Jachmann, Leipzig 1972.
7) Apuleius, De Deo Socratis, Der Schutwgeist des Sokrates, Haag+Herchen 1993.
8) Apuleius, Platon und seine Lehre, Verlag Hans Richarz. Sankt Augustin. 1981.
9) Apulée, L'ane d'or ou les métamorphoses; préface de Jean-Louis Bory; traduction et notes de pierre Grimal, Gallimard 1975.
10) Apulée, traduction nouvelle par M. V. Bétolaud, t. 1-4, Paris 1837.
11) Propyläen, Geschichte der Literatur, die Welt der Antike, Berlin 1981.
12) Encyclopaedia Universalis, t. 2, France 1978.

[2] - ينظر Paulys, p. 246، وكذلك بيتولو 2/1، والغريب أن بيتولو ينقل تاريخ ميلاده، خلافا للمصادر الأخرى، إلى سنة 114 بعد الميلاد، ولعل في ذلك خطأ مطبعيا.

[3] - ينظر بوشنر ص 501، وبيتولو ج 3 ص 93.

[4] - ينظر بتولد، المرجع السابق، وعلي فهمي خشيم، أبوليوس، الأزاهير، كتاب الشعب 1979، ص103.

[5] - ينظر شرانتس، المرجع السابق، ص 99 وديورانت، قصة الحضارة، القاهرة 1964، ج11 ص36، علي فهمي خشيم،المرجع السابق، ص7 وما بعدها.

[6] - ينظر Encyclooaedia Pritanica, V. 2/149

[7] -ينظر بيتولو، المرجع نفسه، ص .V من المقدمة.

[8] - لم يرد في المصادر المتوفرة لدي أن أبوليوس سافر إلى الاسكندرية مرتين، وأنه تقلد فيها في المرة الأولى منصب القس لإعجابه بعبادة إيزيس، ينظر جيلالي خلاص، أبوليوس أحد مؤسسي فن الرواية، جريدة الخبر بتاريخ 1997/9/25.

[9] - حاول بعض مؤرخي الأدب أن يحددوا سنة ولادته على أساس السن، التي كان فيها، عند زواجه من بودنتيلا وعلى أساس مزاملته في الدراسة لإيميليوس ستربو Aemilius Strabo، ينظر شرانتس، المرجع السابق ص 99.

[10] - ينظر باوليس، المرجع السابق ص247، وبيتولو ج1 ص VIII من المقدمة.

[11] - ينظر بيتولو، المرجع السابق، الأزاهير ج3 ص95 .

[12] - ينظر شرانتس، المرجع السابق، ص100، وبوخنر، المرجع السابق501.

[13] - ينظر بيتولو، المصدر السابق ج1 هامش ص11 من المقدمة.

[14] - بيتولو، المرجع السابق، ج1 ص II-XII من المقدمة، أحمد حمدي، أبوليوس، مسرحية شعرية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1990.

[15] - رأي شرانتس هذا مستوحى من كتاب فلوردا كما جاء في الفقرة، التي نقلتها أعلاه، ينظر أيضا باولس، المرجع السابق ص251 وما بعدها.

[16] - شرانتس، المرجع السابق، ص114.

[17] - ينظر بيتولو، المرجع السابق ج3 ص XI-XV من المقدمة، ونص خطبة الدفاع ص25 وما بعدها.

[18] - ينظر باوليس، المرجع السابق، شرانتس، المرجع السابق ص115، Laffont-Bompiani, Dictionnaire des Auteurs, Paris 1980,p. 102.

[19] - ينظر بيتولو، المرجع السابق، ج3، ص VI-VII من المقدمة، والأزاهر ص 7 وما بعدها.

[20] - ينظر المرجع السابق، وكذلك شرانتس، المرجع السابق ص117، وباوليس ص251.

21 ينظر شرانتس، المرجع السابق ص121، وبيتولو، المرجع السابق ج3 ص111.

22 ينظر شرانتس المرجع السابق ص119، وبيتولو ج3 ص181 وما بعدها.

23 ينظر بيتولو ج 3 ص 365 وما بعدها، وشرانتس، المرجع السابق 124.

24 ينظر عثمان سعدي، الأمازيغ، الجزائر1996، ص105، ويقدم الكتاب معلومات تختلف نوعا ما عما قدم هنا حتى من حيث محتوى المراجع المستعملة نفسها.

25 مجلة الأقلام العراقية عدد5 شباط 1977، ص 8، لوفو ـ بومبياني، المصدر السابق، ص103.

26 - الفقرة الأولي من رواية الحمار الذهبي. وقد يكون من المصادفات الغريبة أن يبدأ أبوليبوس كتابة الرواية الفنية باللغة اللاتينية حوالي منتصف القرن الثاني بعد الميلاد، ويبدأ الجزائريون المحدثون كتابة الرواية الفنية باللغة الفرنسية حوالي منتصف القرن العشرين!

27 - ترجمها الدكتورعلي فهمي خشيم، طرابلس 1980، ولا تخلو ترجمته، باعترافه هو نفسه في المقدمة، من الصياغة والحذف والتصرف، كما لا تخلو من الأخطاء المطبعية، وأظن أن حمارا يتمتع بالحكمة والفحولة والرقة الإنسانية ليس جحشا! لذلك فضلت في ترجمتي، التي انتهيت منها عام 1992، وكنت قد ترجمت آمور وبسيشة عام 1982 أيام إقامتي في منحة دراسية بفيينا، عاصمة النمسا ـ فضلت استعمال كلمة "الحمار الذهبي".

28 - عثمان سعدي، المرجع السابق الصفحة نفسها.

29 - ينظر Micheal Babits, Geschichte der Europäschen Literatur, Wien 1949; p. 104

30 - ينظر سعد صائب، من أعمال لوقيانوس السوميساطي، بغداد 1979، ص 36، وقد ترجمت هذه القصة كتكملة لرواية الحمار الذهبي، ولم تنشر بعد.

31 - ينظر شرانتس، المرجع السابق، ص 105.

32 - ينظر على سبيل المثال شرانتس، المرجق السابق، ص 106، والموسوعة البريطانية، مجلد 2/150، و باوليس، المرجع السابق، ص 249.

33 - ينظر موسوعة كندلر Kindlers Literatur Lexikon, B.15/6263

34 - المرجع السابق، ص 6264.

35 - ينظر مرزاق بقطاش، رواية الحمار الذهبي لأبوليوس، مجلة منبر أكتوبر، عدد 16 سبتمبر 1989، ص 58 وما بعدها.

36 - ينظر كتاب إليزابيت فرانتسل Elisabeth Frenzel, Stoffe ser Weltliteratur, Stuttgart 1963, p. 36، ويمكن هنا مقارنة رحلة بسيشة إلى العالم السفلي برحلة أورفيوس للعودة بأريديكه، وبرحلة ألكيستيس، ابنة بيلياس، التي افتكها هرقل من الموت وأعادها إلى زوجها، فالشروط متشابهة في كل منها، وكل حدث فيها يتوقف على الآخر سلبا وإيجابا مع ما يرتبط منذلك من معاناة.

37 - فرانتسل، المصدر السابق، ص 37 وما بعدها، وكذلك Dictionnaire de oevres, Paris 1952, p. 86.

38 - ينظر غسبرت كرانتس

Gisbert Kranz, Amor und Psyche, Arcadia, Zietchrift für vergleinchende Literaturwissenschaft, B. 4, Heft 3, 285.

39 - ينظر فرانتسل، المصدر السابق، وكذلك هلديغارد شرود Hildegard

Festgabe für F. H. Petriconi, 1955, Psyché in Russland, der Vergleinch Schroeder, p. 51.

40 - ينظر Dictionnaire des oevres, t.1; p. 87.

41 - ينظر Apuleius, Amor und Psuche, Reclam 1972.، وكذلك عبد الغفار مكاوي، قصيدة وصورة، عالم المعرفة، عدد1987/ 119، ص 227 وما بعدها.

42 - ينظر أمين سلامة، معجم الأعلام في الأساطير اليونانية والرومانية، القاهرة، دار الفكر العربي 1955، ص 104 وما بعدها، وفؤاد جرجي بربارة، الأسطورة اليونانية، دمشق 1966، ص 171 وما بعدها، ودريني خشبة، أساطير الحب والجمال عند اليونان، القاهرة، مطبعة الرسالة، بدون تاريخ، ص ٧ وما بعدها، ولم ينسبها أي منهم إلى أبوليوس مع أنها لم ترد في أي مصدر آخر. وتحدث عنها أيضا غنيمي هلال، الأدب المقارن، القاهرة 1973، ص 188، النقدالأدبي الحديث، القاهرة 1969، ص 497، عثمان سعدي، المصدر السابق، ص105 وما بعدها، وعبد السلام العجيلي، مجلة الآداب، العدد الثالث 1956، ص57، واللقاء يتم بين الحبيبين هنا ، إن لم تخني الذاكرة، تحت تمثال آمور وبسيشة لكانوفا.

[43] ينظر شرانتس، المرجع السابق، ص 113.

[44] المرجع السابق، ص 107.

[45] بيتولو، المرجع السابق، ج1 ص12 ومابعدها.

[46] ينظر قصة الحضارة، المرجع السابق ص 36، وموسعة كيندلر، مجلد 15، ص 6224، وشرانتس، المرجع السابق، ص 133.

[47] -

[48] - ينظر شرانتس، المرجع السابق، ص 137.

[49] - ينظر رودولف آيسلر Rudolf Eisler, Philosophenlexikon, Berlin, 1912, p.19.

[50] - عنوان الكتاب Marie-Louise, von Franz, Die Erlösung des Weiblichen im Manne, Walter Verlag 1997.

لوكيوس أبوليوس

ترجمة : د.أبو العيد دودو

الحمار الذهبي

أوّل رواية في تاريخ الإنسانية

الكتاب الأول

اريد أن أضفر لك بأسلوب مليزي باقة من الحكايات المتنوعة، تدغدغ أذنك الصاغية برنين عذب ـ إذا كنت ممن لا يأنف من النظر في أوراق البردي المصرية، التي كتبتها بقصب النيل ـ إلى درجة أنك ستعجب كيف يتخذ بعض الناس أشكالا غريبة ثم يستعيدون صورهم الأصلية على وجه مغاير.

وهاأنذا أبدأ حكاياتي، لكني أراك تتساءل :

ـ من هذا يا ترى؟

إعلم إذن با ختصار: أن جبال هيميتوس في أتيكا، وإيتيموس المجاورة لإيفيرا وتيناروس في بلاد الإسبرطيين، تلك المروج البديعة، التي خلدت في كتب رائعة، هي موطن سلالتي. فهناك أخذت وأنا طفل صغير مبادىء اللغة الأتيكية، وانتقلت بعد ذلك إلى مدينة لاتيا، وأجهدت نفسي في تعلم لغة الرومان إلى أن أتقنتها لذلك أرجو، أيها القارىء، أن تعذرني إن أنا تعثرت في هذه اللغة الأجنبية من حين لآخر. مع ذلك فإن هذه الرطانة مناسبة للهدف الذى وضعته نصب عيني، وهو التسلية: إن هذه الحكاية، التي سأبدأ بروايتها، يونانية الأصل. فانتبه، فإنك ستنال حظك من التسلية!

كنت قد ذهبت في رحلة تجارية إلى ثيساليا ـ فهناك وضعت سلالتنا من جهة أمي، عن طريق بلوتارخ الشهير، ثم عن طريق حفيده الفيلسوف سيكستوس، أساس ما لنا من أمجاد! وبعد أن قطعت الإنهيارات الجبلية، والوهاد الموحلة، والمراعي الندية، والمروج الترية، وبعد أن تعب الحصان الأبيض كالثلج، الذى كنت أمتطيه، أردت أنا نفسي أن أحرك رجلي قليلا لأتخلص من تعب الجلوس. فنزلت عن ظهر الحصان، ومسحت عرقه بالورق، ودعكت أذنيه، ونزعت عنه اللجام، وأخذت أقوده بخطوات متمهلة إلى أن التجأ بطنه إلى وسيلته الطبيعية، ودفع بأسباب تراخيه إلى الخارج! وبينما كان الحصان يدير فمه جانبا، ويحني رأسه لتناول أعشاب المروج، التي كنا نمر

بها، لحقت بشخصين كانا قد سبقاني قليلا. وعندما أصغيت لأعرف موضو[ع] حديثهما، قهقه أحدهما وقال:

ـ وفر عليك كلماتك، إذا كنت لا تعرف غير هذه الأكاذيب التافهة المنكرة!

ولما سمعت هذا، وأنا مولع بالأخبار الطريفة، قلت له:

ـ دعه يفعل ذلك، رجاء! وافتحا لي المجال لأشارككما في الحديث. ليس ذلك لأني رجل فضولي، وإنما لأني أريد أن أعرف كل شيء أو بعضه على الأقل. ثم إن صعود هذا الجبل لن يكون متعبا إن نحن متعنا أنفسنا برواية الحكايات.

قال الشخص، الذى كان قد تحدث سابقا:

ـ لا جرم أن حقيقة حكاياته تشبه حقيقة من يقول إن الأنهار تعود أدراجها بفعل ساحر، وأن البحر يتجمد، والرياح تلفظ أنفاسها، والشمس تتوقف، والقمر يتحوّل إلى طل، والنجوم تتساقط، والنهار يغني، والليل يقيم.

عندئذ عبرت عن رأيى بصراحة قائلا:

ـ استمع إلي، أنت الذى بدأ الحديث: لا تستسلم للغضب، وكن حريصا على إتمام الحكاية!

وقلت للآخر:

ـ أما أنت فإن لك أذنا صماء وحسا بليدا، فأنت تستخف بحكاية قد تكون حقيقية! يعلم الإله أنك لم تدرك بعد أن المرء يعكس الأمور حين يؤمن ببطلان ما هو جديد على الآذان أو مالم تألفه العيون أو يتجاوز إدراك الأذهان. فلو أنك تأملت ذلك بشكل أدق، لوجدت أن المرء لا يتأكد من فهمه فحسب، وإنما يسهل عليه أن يفعله أيضا! لقد كدت أمس مثلا أختنق بفطيرة من القهشدة، كنت قد تراهنت عليها مع ندماي، فأخذت أبتلعها لقما كبيرة في نهم شديد، غير أن مادتها اللزجة اعترضت حلقي وقطعت أنفاسي. ومع ذلك فقد شاهدت في أثينا قبل فترة قصيرة، بعيني هاتين، مشعوذا، يبتلع أمام القاعة المزركشة سيفا حادا بادئا برأسه، ثم يغرز حربة صيد في أحشائه، نظير ثمن بخس، فخرجت بمقبضها من قفاه، وتسلقها طفل جميل، وقام بألعاب بهلوانية بديعة، أثارت دهشتنا. حقا، إن الأفعى الفاخرة نفسها ما كانت لتتلوى حول عصا إله الأطباء ذات العقد والفروع بأحسن مما فعل هو!

فال، لمن بدأ الحديث:

هيا! أرجوك! استأنف رواية حكايتك! إذا كان زميلك لا يريد تصديقها، فإني اصدقها بدلا عنه، وسوف أدعوك إلى تناول ما تشتهيه نفسك في أول حانة نصل اليها كن على يقين من أنك ستنال هذه المكافأة!

ولكن الآخر قال:

- إني لأقبل ما وعدتني به بفرح كبير، وسوف أروي لك حكايتي من بدايتها، إلا أني ابدء قبل ذلك، أن أقسم لك بالشمس، بهذا الإله، الذى يبصر كل شيء، أن حكايتي صادقة كل الصدق، لأنها مبنية على تجربة شخصية. ولن يخامرك الشك بشأنها فترة طويلة عندما تصل إلى أول مدينة في ثيساليا وتسمع بنفسك الناس كلهم يحدثون عن الأشياء، التي وقعت أمام أعينهم. عليك أولا أن تعرف من أنا ومن أين انا؟ اسمي أريسطومنيس (البطل القوي) وأصلي من مدينة إيجيون. عليك أن تعرف ايضا ما هي مهنتي. أنا أتاجر بالعسل والجبن وغيرهما في ثيساليا وإيتوليا وبويتيا. وحين علمت أن الجبن اللذيذ يباع في هيباتا، أشهر مدينة في ثيساليا كلها، أسرعت إليها لأبتاع بثمن معتدل كل ما أجده منه هنالك. إلا أنه حدث لي ما يحدث عادة، وهو ان حظي كان سيئا، فقد خاب أملي في الحصول على صفقة رابحة. كان لوبوس (الذئب)، تاجر الجملة، قد اشترى في اليوم السابق كل شيء. وهكذا ذهبت في المساء إلى الحمام، فقد أتعبتني العجلة دون أن تجديني نفعا. وهناك أبصرت فجأة زميلي سقراط. كان جالسا فوق الأرض، وقد لف جسده في معطف عتيق مغلق، يصعب التعرف عليه لشحوبه وهزاله وتغير شكله. كان أشبه ما يكون بعاثري الحظ، الذين يتسولون في زوايا الطرقات. وبينما كان جالسا على هذه الصورة، وهو صديقي وأحد معارفي الأوفياء، اقتربت منه رغم أنني كنت غير متأكد منه: "ما هذا، يا صديقي سقراط؟ ولماذا هذا المنظر الغريب؟ ألا تخجل من نفسك؟ لقد سالت الدموع في بيتك، وأقيم مأتمك، وجعلت محكمة المركز لأبنائك من يتكفل بهم، وأضنى الحزن والهم زوجتك حتى كادت تفقد بصرها من كثرة البكاء عليك بعد انتهاء مراسيم المأتم، وراح والداها يحثانها على إضاءة البيت بزوج جديد - كل هذا وأنت مقيم هنا كالشبح لتسبب لنا الحزن والعار!

"فقال لي:

- حقا، يا أرسطو مينيس، إنك لا تعرف شيئا عن حوادث الدهر، ودورات عجلاته،

وضرباته الطائشة، وتراجعاته المستمرة.

"وبعد هذه الكلمات غطى وجهه، الذى كان قد احمر خجلا، بمعطفه المرقع، فتعرى جسده ما عدا ما بين السرة والخاصرة. ولم أحتمل في النهاية هذا المشهد التعس، فأمسكت به، وأردت أن أنهضه، ولكنه صاح وهو لا يزال جالسا في مكانه:

ـ دعني، دعني! لا بد أن ينعم الحظ بهذا التمثال، الذى نصبه بنفسه!

استطعت أن أحمله على الامتثال لأمري، فنزعت أحد أرديتي وألبسته إياه، بعبارة أصح، دثرته به بسرعة وأخذته إلى الحمام من غير إبطاء، وهيأت مرهما ومنشفة، وأخذت أدعك قشرة الأوساخ السميكة بعناية. وعندما انتهيت من ذلك ـ وكنت لا أكاد أقدر على مسك الرجل المنهوك لتعبي ـ ذهبت به إل الخان، وقدمت له فراشا دافئا، وطعاما وافرا، وشرابا لذيذا، وأسمعته ما يرضيه ويريحه. وبدأنا نتبادل أحاديث مسلية طريفة، ونمزح ونتحدث في أشياء تافهة، وفجأة أرسل من أعماقه تنهدة أليمة، وضرب على جبينه وقال:

ـ يا لي من رجل تعس! إن ولعي بمشاهدة المبارزة هو الذى أوصلني إلى هذه الحالة التعسة. أنت تعلم أنني كنت قد قمت بسفرة تجارية إلى مقدونيا، وأقمت فيها تسعة أشهر. وعندما كنت عائدا إلى البيت بكيس مملوء مالا، واقتربت من مدينة لاريسا، لأذهب أثناء مروري بها إلى المسرح، اعترضت طريقي، وأنا أعبر هوة منعزلة، عصابة من اللصوص وسلبتني كل شيء، ولم أنج إلا بحياتي، فذهبت إلى حانة تملكها ميرو (خمر صرف) ـ وهي امرأة مسنة، ولكنها لا تزال لطيفة المنظر ـ وحدثتها عن ظروف سفرتي الطويلة، ثم عن عودتي وعن حادثة النهب المفجع، الذى كنت ضحيته. فأخذت تعاملني بلطف وتطعمني مجانا، ثم أصبحت آوي إلى مضجعها في حرقة. وما أن ضاجعتها لأول مرة، حتى استعبدتني جنسيا، أنا الرجل التعس، واستمرت عبوديتي لها أعواما مضنية. أنفقت عليها حتى الأسمال، التي تركها لي اللصوص لأتغطى بها، وكذلك الدراهم القليلة، التي كنت قد كسبتها في فترة تمتعي بالصحة والقوة ـ إلى أن وصلت إلى هذه الحالة، التي وجدتني عليها. وكل ذلك بفضل طالعي، وبفضل تلك المرأة المغرية.

"فقلت له:

ـ وحق الإله، إنك لتستحق أن يحدث لك أسوأ، إن كان هناك ما هو أسوأ، مما حدث

!!.. لأنك اندفعت وراء شهواتك، وانقدت لامرأة بغي، وتخليت عن زوجتك وأطفالك.

فوضع سبابته على فمه، وقال، وقد كاد يتجمد فزعا:

صه! صه!

ونظر حوله ليعرف ما إذا كان في وسعه أن يتحدث دون أن يسمعه أحد، وصاح قائلا:

- احترس من هذه المرأة الشيطانة، وإلا فإنك ستفقد لسانك الوقح!

فسألته:

- ولماذا ؟ من أي نوع هي هذه المرأة المتسلطة، صاحبة الحانة؟

قال:

- إنها ساحرة ذات قوة شيطانية، تنزل السماء، وتعلق الأرض، وتجمد الينابيع، وتذيب الجبال، وتستخرج الأرواح، وتستنزل الآلهة، وتطفىء النجوم، وتزين العالم السفلي بالأضواء حقا.

فقلت له:

- أرجو أن ترفع الستار المأسوي، وتزيح غطاء الشاشة الفضفاض، وأن تتحدث بكلمات بسيطة!

قال: أتريد أن أحدثك عن هذا العمل أو ذاك من أعمال الشعوذة، التي قامت بها؟ إنها لم تجعل المواطنين يحبونها حتى الموت فحسب، وإنما حملت على ذلك أيضا الهنود والأثيوبيين هنا وهناك ، بل حتى سكان الجهة الأخرى من الأرض. - وهذه مجرد أوراق من شجرتها، وفنون من أعمالها السحرية. وإليك الآن ما قدرت على فعله واستطاع مشاهدته عدد من الناس! لقد نسي أحد عشاقها نفسه مع امرأة أخرى، فحولته إلى حيوان دفعة واحدة، حولته إلى قندس. وعندما كان الحيوان يخشى أن يقبض عليه مطاردوه، كان يحاول أن يحرر نفسه عن طريق عض خصيتيه، - وحدث له هو نفسه ما يشبه ذلك.. ثم إنها جعلت لصاحب حانة، وكان جارها، وكان بناء على ذلك منافسا لها، شكل ضفدعة، وهو الآن يسبح في برميل نبيذه الخاص، وينحني في العكارة أمام ضيوفه القدامى، ويدعوهم بنقيقه وقرقرته. - لقد حولت كذلك محاميا، كان قد رافع في قضية ضدها، إلى كبش، ولا يزال حتى الآن محامي الدفاع في

المحكمة. ـ وغلقت أيضا رحم امرأة أحد العشاق، كانت قد سخرت منها، بمجرد أن حبلت، وحكمت عليها أن تظل حبلى على الدوام، وإن الشقية لتعاني الآن من حمل، استغرقت مدته ثماني سنوات ـ هذا ما يعده الناس على العموم ـ كما لو أنها ستلد فيلا.

وعندما تواصلت أعمالها هذه، وتعرض لسحرها عدد من الناس، ثار غضب الرأي العام، وقرر الناس أن يرجموها بالحجارة حتى الموت، إلا أنها استطاعت أن تبطل ذلك عن طريق الرقى. فكما استطاعت ميديا أن تنال من كريون مهلة يوم واحد حتى تستطيع بعدئذ أن تحرق البيت كله بمن فيه بإكليل ملتهب، فتقضي على ابنته وتقضي عليه هو نفسه، استطاعت هذه المرأة الساحرة كذلك أن تحبس ـ بفضل تعاويذ سمعتها في قبور الموتى، وقد روت ذلك بنفسها في حالة سكر ـ جميع السكان في بيوتهم في ليلة واحدة، فاضطروا إلى ملازمتها يومين كاملين، دون أن يتمكنوا لا من فتح الأبواب ولا من نزعها، وعجزوا حتى عن تحطيم الجدران، فتعهدوا في النهاية بعدم المساس بها، بل بحمايتها من كل من يحاول إلحاق الأذى بها، وبذلك صالحتهم وأطلقت سراحهم.

أما الرجل الذى كان قد أشار على السكان بالقضاء عليها، فقد نقلته في ليلة مظلمة ببيته كله، أي بجدرانه وأرضيته وأساسه، وهو مغلق تماما، إلى مدينة أخرى، تبعد بمئة ميل عن مدينته، وتقع على جبل شديد الانحدار، ليس بها لذلك قطرة ماء. وحين رأت أن كثافة السكان لا تسمح لها بالحصول على مكان لإقامة الضيف الجديد، رمت بالبيت أمام المدينة واختفت.

قلت:

ـ شيء غريب ومهول في الوقت نفسه، هذا الذى ترويه، يا عزيزي سقراط! لقد أوقعت الاضطراب في نفسي أنا أيضا، بل أفزعتني حقا. إني لا أشعر بالرعب فحسب، وإنما أحس كما لو أن دبورا لدغني، فأنا أخشى أن تستعمل تلك البغي سحرها بشكل مماثل لتعرف ما يدور بيننا ها هنا في هذه اللحظة. ومن ثم ينبغي لنا أن ننام مبكرا، بعد أن يطرد النوم عنا التعب، بمجرد أن يلوح الصبح، حتى نبتعد عن هذا المكان قدر الإمكان.

وقبل أن أنتهي من حديثي، كان سقراط الطيب قد نام، وراح يشخر بصوت مرتفع، لأنه لم يكن متعودا على الشرب، وكانت متاعب النهار قد أخذت منه. فغلقت الباب، وسحبت المزلاج، ووضعت مرقدي الخشبي، زيادة في الحذر، أمام مفاصل الباب،

واضطجعت فوقه. وظللت يقظا فترة وجيزة، لأني كنت خائفا، ثم غفوت قليلا أثناء نوبة الحراسة الليلية الثالثة. وما كدت أغفو حتى فتح الباب فجأة بدفعة قوية، ـ ولقوتها لم يكن في إمكاني التصور أن اللصوص هم الذين فعلوا ذلك ـ بل كسر الباب وتناثرت مفاصيله، فانهار من شدة الصدمة مرقدي الخشبي، الذى كان متداعيا هشا ذا أرجل ثلاث فقط، فا عترتني خضة، وانقلبت ووجدتني تحت الفراش والغطاء معا.

وشعرت عندئذ بما في طبيعة المشاعر من تناقض. فكما يذرف المرء الدموع في بعض الأحيان، كذلك لم أستطع أن أكتم ضحكتي رغم الفزع المريع الذى انتابني آنئذ، ـ لقد تحولت من أرسطومينيس إلى سلحفاة! وبينما كنت مضطجعا في العفن، أنظر جانبا من تحت مرقدى، الذى كان يمنحني الحماية المعقولة، وأحاول أن أعرف ماذا حدث، لمحت امرأتين اقتربتا من الشيخوخة، تحمل إحداهما مصباحا مشتعلا، والأخرى قطعة من الأسفنج وسيفا مجردا من غمده، وقد وقفتا على هذه الصورة قرب فراش سقراط، الذى كان غارقا في نومه. وبدأت حاملة السيف الحديث قائلة:

ـ ها هو، يا أختي بانثيا (الشيطانية)، عزيزي أنديميون، حبيبي غانميد، الذى استغل ضعفي ليلا ونهارا، وسخر من حبي، ولم يكفه أنه أساء إلي وحطم سمعتي، وإنما أراد أيضا أن يهجرني بصفة دائمة، غير أني لن أدع أوديسيوس المحتال هذا يخدعني ويجعل مني كاليبسو ثانية، تبكيه في وحدتها وشوقها المؤبدين.

ثم مدت يدها اليمنى، وأشارت إلي، وخاطبت بانثيا قائلة:

ـ أما مدبر المكائد أريسطومينيس، الذى كان قد وضع خطة الفرار، والذى يتمدد الآن بين الحياة والموت تحت الفراش، وينظر إلينا بطرف عينيه، فقد تصور أنه يستطيع أن يسيء إلي بما قاله عني دون أن يلحقه مني أي عقاب. ولكني حريصة كل الحرص على أن يناله الندم على ما خصني به من سخرية قبل وعلى ما أبداه الآن من فضول، وسأعاقبه آجلا، بل بعد حين، بل في هذه اللحظة بالذات.

وعندما سمعت ذلك، أنا المسكين، شعرت بموجة من العرق البارد تغمرني، وبرعدة تنفضني حتى النخاع، فأخذ السرير الخشبي يهتز ويرقص فوق ظهري، من شدة رعدتي. أما بانثيا، فقد قالت:

ـ والآن، يا أخت! ألا ينبغي لنا أن نمزق هذا الرجل كما فعلت الباكخينيات أو نربط أطرافه ونقطع عضوه التناسلي؟

فأجابت ميرو، وكان هذا هو اسمها، وقد لاحظت أنه مطابق لاسم تلك التي روى سقراط قصتها، قائلة:

ـ كلا، لن نفعل هذا ولا ذاك. ينبغي أن يظل على قيد الحياة، ليواري جثة هذا المسكين التعس في التراب.

ولوت رأس سقراط إلى الخلف، وغرزت السيف حتى مقبضه في مخنقه الأيسر، وراحت تجمع دمه المنهمر في قربة صغيرة بعناية، بحيث لم تضع منه قطرة واحدة. لقد رأيت ذلك بعيني. وبعد ذلك أدخلت ميرو الساحرة يدها اليمنى ـ وأظن أنها فعلت ذلك حتى لا تهمل شيئا من مراسيم القربان ـ في الجرح حتى بلغت عمقه، وبحثت عن قلب زميلي المسكين، وأخرجته من جوفه، وكان الرجل قد أخرج خلال ذلك من حلقه، الذى كانت طعنة السيف قد فتقته، صوتا، بل صفيرا غير محدد، ثم لفظ نفسه الأخير. وسدت بانثيا فوهة الجرح بإسفنجة، وهي تقول:

ـ احترسي أنت، أيتها الإسفنجة، يا من خلقت في البحر، لا تمضي عنه بعيدا!

وبعد ذلك أبعدتا السرير الخشبي عني، وجلستا فوق وجهي، وفتحت كل منهما رجليها وأرسلت بولها النتن فوقي إلى أن ابتللت تماما!

وما أن ابتعدتا عن العتبة، حتى ارتفع الباب، وعاد إلى ما كان عليه وكأن شيئا لم يحدث، فعادت المفاصل إلى ثقوبها، ورجعت العوارض الخشبية إلى الأعمدة، وأسرعت المزالج إلى الأقفال. أما أنا فقد بقيت مضطجعا فوق الأرض، فاقد الوعي، عريانا يرعدني البرد، عائما في البول وكأني قد خرجت في التو من رحم أمي، ولكني كنت بين الحياة والموت، بل عشت مدة أطول من حياتي نفسها وولدت بعد ولادتي أو كنت على الأقل مرشحا للمشنقة بكل تأكيد، وقلت لنفسي:

ـ ترى ما الذى سيحدث لي حين يتضح صباح غد أن هذا الرجل قد نحر نحرا؟ ومن يا ترى سيصدق أن قصتي مطابقة للواقع تماما؟ "كان عليك أن تصرخ على الأقل وتطلب النجدة ما دمت رجلا من هذ النوع، عاجزا عن الدفاع عن نفسك أمام امرأة! أينحر أمامك رجل ولا تحرك ساكنا؟ ولماذا لم تقتل أنت بطريقة شيطانية كما قتل هو؟ لماذا أبقت ثورة الدم على حياة شاهد عيان لتعرف الجريمة وترفع الدعوى ضد مرتكبها؟ ها أنت قد نجوت من الموت، فعد إليه الآن!"

هذا ما كنت أردده مع نفسي مرة ومرة، وفي أثناء ذلك كان الليل قد أخذ يتجه نحو

النهار . ومن هنا بدا لي أن أحسن ما أفعله هو أن أفر خفية قبل طلوع النهر، وأن أركض على قدر ما تسمح به ركبتاي المرتعدتان. فتناولت رزمتي، ووضعت المفتاح تحت المزلاج، وهممت بدفعه إلى الوراء، ولكن هذا الباب الوفي، الذى انفتح ليلة أمس طائيا، لم ينفتح إلا بمشقة، وذلك بعد أن استعملت المفتاح المناسب أكثرمن مرة. وصحت بعدئذ:

ـ هيه! أين أنت؟ إفتح باب الخان، فإني أريد أن أنصرف قبل طلوع النهار!

فأجابني البواب، الذى كان مستلقيا خلف الباب، وهو بين النوم واليقظة:

ـ ماذا ؟ ألا تعلم أن اللصوص يتربصون بالناس في الطرق العامة؟ إلى أين تريد الذهاب في هذا الوقت من الليل؟ إذا كنت قد ارتكبت جريمة وتريد أن تتخلص من حياتك، فإننا نحن لا نريد أن يدفعنا الغباء إلى الموت من أجلك.

قلت:

ـ إن النهار سيطلع وشيكا. ثم ماذا يستطيع اللصوص أن يأخذوه من جوال خاوي الوفاض تماما؟

وتقلب الرجل في فراشه، ورأسه مثقل بالنوم، وقال:

ـ ومن أين لي أن أعرف ما إذا كنت قد قتلت صديقك، الذى جئت برفقته مساء أمس إلى الخان، و تريد الآن أن تنجو بنفسك ؟

أذكر أن الأرض انفتحت في تلك اللحظة، فرأيت أشد أعماق العالم السفلي ظلاما، وقد قبع فيها كلب الجحيم ذو الرؤوس العديدة، وهو يحاول أن يتلقفني. وتصورت أن ميرو الساحرة لم تبق على عنقي رحمة بي، ولكنها احتفظت بي للمشنقة نكاية بي!

وهكذا عدت إلى غرفة النوم، ورحت أفكر في أقصر الطرق لوضع حد لحياتي. ولم يقدم لي حظي سلاحا آخر غير السرير، ولذلك أخذت أقول صارخا :

ـ والآن، الآن، أيها السرير الحبيب، أنت يا من قاسيت معي أثناء الليل وشاهدت ما حدث فيه، أنت يا من سيكون المدعو الوحيد، الذي سيشهد على براءتي أمام المحكمة ـ قدم لي، أنا الذي تعبت من الحياة، سلاح النجاة!

وبعد أن تلفظت بهاته الكلمات، بدأت أحل عقدة حبل، كان مشدودا به، ورميت به فوق عارضة بارزة في أعلى النافذة، وربطت نهايته بها، وجعلت في الطرف الآخر

عروة متينة، ثم صعدت فوق السرير، وأدخلت رأسي في الأنشوطة بصفتي مرشحا للموت فيها، غير أنني ما كدت أدفع بقدمي الدعامة، التي كنت قد استندت عليها، لكي يشد الحبل بخناقي تحت ضغط قوة جسمي ويقطع أنفاسي، حتى انقطع الحبل العتيق المهترىء، ووقعت فوق سقراط ـ وقد كان مضطجعا قربي ـ وانقلبت ورحت أتدحرج معه فوق الأرض.

في تلك اللحظة نفسها دخل البواب، وصرخ بأعلى صوته:

ـ أين أنت؟ أما كنت تريد أن تسرع في الليل البهيم بصورة مفرطة؟ أتراك عدت إلى الفراش مرة أخرى؟

وعندئذ ـ ولست أدري أتم ذلك لأننا كنا قد سقطنا معا أم لأن البواب كان يصرخ صراخا مريعا ـ استيقظ سقراط، ونهض قبلي، وقال:

ـ لا عجب أن ينفر الزبائن كلهم من أصحاب الخانات! لقد أيقظني هذا الرجل الفضولي العديم الحياء بضجيجه وصراخه العنيف من نومي العميق وأنا لا أزال منهكا، ولعله جاء ليسرق منا شيئا!

رفعت جسمي مبتهجا، وصحت بفرحة غير متوقعة:

ـ ها هو زميلي وصديقي الحميم، أيها البواب! لقد ظهر لك أثناء سكرك ليلا أن تتهمني بقتله!

انطلقت بعد ذلك أعانق سقراط وأقبله، ولكنه فزع من رائحة البول المريعة، الذى كانت المرأتان القبيحتان قد دنستاني به، فدفعني عنه بقوة، وهو يقول:

ـ إليك عني! إن رائحة أسوأ القصريات الليلية تفوح منك!

وبدأ هذا الإنسان الطيب يبحث عن أسباب هذه الرائحة، فضقت بذلك ذرعا، وحاولت أن أرتجل نكتة تافهة لأحول انتباهه إلى موضوع آخر، وضربت بيدي على كتفه، وقلت له:

ـ تعال معي تتمتع بجولة صباحية!

تناولت رزمتي، ودفعنا ثمن البيت لصاحب الخان وانصرفنا، وما كدنا نسير قليلا حتى أشرقت الشمس، وأصبح كل شيء واضحا أمامنا. فشرعت أتأمل بفضول متزايد عنق رفيقي، الذى رأيت السيف ينغرز فيه، وقلت لنفسي: "يا لك من غبي! لقد

حلمت بأشياء رائعة حين كنت سكران ثملا! فها أنت ترى أمامك سقراط سليما نشيطا معافى! فأين الجرح؟ أين الإسفنجة ؟ ثم أين أثر الجرح الجديد؟

وبعد ذلك خاطبته قائلا:

ـ ما أصدق الأطباء حين يقولون إن الإنسان عرضة لأحلام ثقيلة مرعبة حين يمتلىء بطنه وتثقل الخمر دمه. لقد تراءت لي صور رهيبة في ليلة سيئة، لم أعد الكؤوس التي شربتها فيها، ولا أزال حتى الآن أتصور أنني توسخت وتلطخت بدم الإنسان.

فأجابني مبتسما في شماتة:

ـ كلا! لم يصب فوق الدم، وإنما صب فوقك البول! طبعا، لقد رأيت أنا الآخر في حلمي أنني ذبحت، وشعرت بألم في عنقي، وخيل إلي فوق ذلك كما لو أن قلبي قد نزع من بين جوانحي. إني لأشعر الآن أيضا أن نفسي يكاد ينقطع، كما أشعر بالرعدة في ركبتي، والترنح في خطواتي، وأشعر أن لي رغبة كبيرة في تناول طعام يعيد إلي نشاطي.

قلت له:

ـ إن لدي لقمة أقدمها لك.

أنزلت الكيس عن كتفي، وقدمت له الخبز والجبن، ثم قلت:

ـ فلنجلس هناك تحت شجرة الدلب.

فجلسنا، وأخذت أنا لنفسي ما آكله أيضا. وبينما كنت أنظر إليه، وهو يأكل بنهم شديد، لاحظت أنه أخذ يتمايل بشكل مستمر، ويصفر ضعفا ووهنا، ثم لم يلبث أن تغير لونه الطبيعي، حتى إنني من خوفي ـ إذ كانت المرأتان لا تزالان ماثلتين أمام عيني ـ شرقت بقطعة خبز، كنت قد أخذتها في فمي قبل حين، فقد لصقت ببلعومي، لم تهبط ولم تصعد على صغر حجمها. وزادت قلة المارة بالطريق من خوفي. فمن سيصدق يا ترى أن أحد الجوالين قد توفي دون أن يكون للآخر ذنب في ذلك؟ ـ بعد أن أكل سقراط ما يكفيه، اعتراه عطش لا يحتمل، ولا غرابة في ذلك، فقد ابتلع بنهم حصته الكبيرة من الجبن اللذيذ. وبما أن موقع شجرة الدلب لم يكن بعيدا عن نهر وديع، كان أشبه بمكان مقدس هادىء، ينساب ببطء، فتتخذ مياهه شكل الفضة أو

الزجاج، فقد قلت له:

- عليك أن تشرب من هذا الماء الصافي العذب حتى ترتوي!

فنهض وبحث عن مكان مسطح فوق ضفة النهر، وجثا على ركبتيه، ثم انحنى لينهل منه بنهم، لكنه ما كاد يلامس سطح الماء بشفتيه، حتى تحول الجرح في عنقه إلى ثقب كبير، تدحرجت منه الإسفنجة إلى الخارج، وقد صاحبها قليل من الدم. وفي النهاية تمايل جسده، الذى كانت الروح قد فارقته، وأوشك أن يقع في النهر لو أنني لم أمسكه من إحدى رجليه وأسحبه إلى مكان مرتفع فوق الضفة. وأقمت هناك مأتم زميلي العزيز المسكين قدر الإمكان، ودفنته في تراب رملي على مقربة من النهر.

وأطلقت ساقي للريح عبر مسالك مقفرة ملتوية، وكان الخوف يزيد من سرعة خطاي، كما لو أني قتلت إنسانا ما، وتخليت عن بيتي ووطني، وارتميت بين أحضان الغربة، وأنا أقيم الآن في إتيوليا، حيث تزوجت مرة أخرى."

هذا ما رواه أريسطومينيس، لكن مرافقه المذكور، الذى لم يرد في البداية أن يصدق شيئا على الإطلاق، ورفض أن يعرف شيئا عن قصته، فقد قال:

- ليس هناك ما هو أكثر خيالا من هذا الخيال، ولا ما هو أكثر تفاهة من هذه الحكاية!

ثم التفت إلي وأضاف قائلا:

- وأنت ؟ إن لباسك وسلوكك يدلان على أنك من طبقة راقية، فهل تراك تصدق هذه الحكاية؟

فأجبته:

- أعتقد، فيما يتصل بي شخصيا، أن كل شيء ممكن، يتم فوق الأرض كما هو مرسوم في الفلك، ولو أن ذلك يبدو لي ولك ولكثير من الناس عجيبا منقطع النظير، لا يجد صدى له في أذن من ينعدم لديه الذوق الفني. أنا أصدق الرجل كل الصدق، وأقدم له شكري على هذه الحكاية الجميلة اللطيفة، التي شغل بها وقتنا، وهذا زيادة على أنني قطعت هذه المسافة الطويلة من غير شكوى ومن غير كآبة. والظاهر أن حصاني نفسه قد استلذ الحكاية، فقد ركبت أذني بدل أن أتعبه بركوبي حتى باب المدينة.

وانتهى بذلك حديثنا كما انتهت رحلتنا المشتركة، فقد انعطف من كانا برفقتي هو الضيعة التالية، بينما واصلت أنا طريقي. وما كدت ألمح أول خان مفتوح، حتى ا..ر عت إليه، وسألت في الحين خمارة عجوزا:

- أهذه هي مدينة هيباتا؟

أومأت بالإيجاب، فعدت أسألها:

هل تعرفين رجلا من أبناء الطبقة الراقية يدعى ميلو؟

فارتسمت على فمها ابتسامة ساخرة، وقالت:

- حقا من الممكن الادعاء بأن ميلو ينتمي إلى الطبقة الراقية، لأنه يسكن خارج السوق وخارج المدينة كلها.

قلت لها:

- دعي المزاح جانبا، يا أميمة! أرجوك أن تخبريني من أي نوع من الناس هو وفي أي منزل يسكن؟

فأجابتني قائلة:

- ألا ترى تلك النوافذ، التي تطل على الريف خارج المدينة، وذلك الباب، الذى ينفتح في الجهة الأخرى على زقاق مجاور؟ هناك يسكن ميلو، وهو كيس ممتلىء بالمال، ورجل غني جدا، ولكنه رجل سيء السمعة، بلغت درجة بخله حدا لا يصدق. وهو يبرم وفقا لذلك صفقاته التجارية الكبيرة، ويراهن عليها بما لديه من ذهب وفضة، ويقيم في بيت صغير موصد الأبواب، تتعرض فيه أمواله للصدأ، وتقيم معه امرأة تعاني مما يعانيه. وليس له فوق ذلك سوى خادمة واحدة، يوفر لها الطعام، ولكنه لا يوفر لها من اللباس إلا ما يوفر لمتسولة.

أخذت عندئذ أقهقه وأقول:

- لقد حباني صديقي ديمياس كثيرا من حبه وعنايته حين أوصى بي - عند بدء رحلتي - شخصا، لا أخشى في بيته لا الدخان ولا بخار الدهون!

وتقدمت بعد هذه الكلمات خطوات أخرى، واقتربت من المدخل، وبدأت أدق الباب بقوة وأنا أصيح بصوت عال. أخيرا خرجت فتاة وقالت لي:

- اسمع أنت، يا محطم الأبواب! بأي شكل تريد أن تقترض؟ أم تراك لا تعلم أننا لا نقبل في الرهن إلا الذهب والفضة؟

فأجبتها:

- كان في إمكانك أولا أن تحييني بصورة أحسن وأن تخبريني بلطف ما إذا كان سيدك في البيت.

قالت:

- طبعا. إنه في البيت. ولكن لماذا تسأل عنه؟

- إني أحمل رسالة كتبها إليه ديمياس الكورينثي.

خاطبتني بعدئذ قائلة:

- انتظرني هنا ريثما أخبره بذلك.

غلقت الباب من جديد واختفت في الداخل، ثم عادت بعد لحظة وأشارت لي بالدخول، وهي تقول:

- إنه في انتظارك.

عندما دخلت، وجدته مضطجعا فوق أريكة صغيرة إلى حد ما قرب المائدة، وقد بدأ يتناول طعامه، وكانت زوجته جالسة عند قدميه. وكانت هناك مائدة فارغة، فأشار إليها، وقال لي:

- إنها لضيافتك، فتفضل هنا!

فكان جوابي:

- طيب!

وسلمت إليه رسالة ديمياس في الحين، فقرأها بسرعة، وقال لي:

- إني لممتن لصديقي ديمياس، لأنه أتاح لي أن أتعرف على ضيف كبير مثلك.

أمر زوجته بعدئذ بالابتعاد عنه، وطلب مني أن أجلس في مكانها. وعندما ترددت مراعاة للأدب، مسكني من طرف ردائي وسحبني إليه قائلا:

- اجلس هنا! لم نعد كراسي للجلوس ولم نشتر أثاثا كاملا على الإطلاق، وكل ذلك

موها من اللصوص.

وعندما جلست واصل حديثه قائلا:

- لقد طاب لي أن أستنتج من مظهرك المحترم، ومن خجلك الذى يشبه خجل الفتاة، أنك تنتمي إلى أسرة راقية. ويسرني الآن أن صديقي ديمياس يتحدث في ....الته عن الأمر نفسه. ولذلك أرجو ألا تستخف بضيق بيتنا. فغرفة النوم المجاورة وهي هذه، فانظر هناك! ستكون مسكنا مناسبا لك، فحاول أن تجد الراحة بين مدران بيتي الأربعة. فأنت تكرم البيت من جهة، وتضيف من جهة أخرى مجدا إلى امجادك حين تقبل بالسكن في بيت حقير أسوة بثيسيوس العظيم، وهو سمي أبيك - الذى لم يعتبر بيت العجوز هيكاله دون منزلته.

ثم نادى الفتاة، وقال لها:

- خذي، يا فوتيس (الحلوة)، متاع ضيفنا القليل، وضعيه في هذه الغرفة بعناية، ثم اذهبي بسرعة إلى المخزن واحضري زيت الدهان والمناشف وما يتبع ذلك، وامضي بضيفي إلى أقرب حمام.

وعندما سمعت ذلك، تذكرت طبع ميلو وبخله، وأردت أن أعبر عن امتناني له، فقلت له:

- إن مثلي ليس في حاجة إلى ذلك كله، فقد نلت حظي منه أثناء رحلتي. ويمكنني أن أهتدي إلى الحمام أيضا بكل سهولة، فالمهم بالنسبة إلي هو الحصان، الذي حملني إلى هنا بشجاعة، فهل يمكنك، يافوتيس، أن تشتري له شيئا من التبن والشعير؟ وها هي النقود!

وبعد أن تم كل ذلك، ووضع متاعي في تلك الغرفة، ذهبت بمفردي إلى الحمام وإلى السوق لأشتري منه ما سأتناوله بعد ذلك من طعام. وهناك لمحت طعاما لذيذا من السمك كان معروضا، فسألت رجلا عن ثمنه، فأخبرني أن ثمنه تالر واحد، ولكني استطعت أن أشتريه منه بعشرين سنتيما. وعندما هممت بالانصراف من هنالك، التقيت ببيثياس، زميلي في الدراسة بأثينا في أتيكا، فابتهج بتعرفه علي رغم طول المدة، واندفع نحوي يعانقني ويقبلني بلطف ويهتف:

- عزيزي لوكيوس! حقا، لقد مضى وقت طويل على التقائي بك لآخر مرة. أجل، يعلم الإله أنني لم أرك منذ تركنا أستاذنا كلوتيس! ولكن ما الذى حملك على القيام

[illegible]

قلت له:

ـ هناك مجال للحديث عن ذلك صبيحة الغد. دعني أولا أهنئك! إني أراك تصطحب معك محضرين من محضري المحاكم يحملون هراوات، وترتدي بدلة رسمية تليق بموظف!

قال لي :

ـ إني أنتمي إلى المصلحة الاقتصادية وإلى الشرطة. إذا كنت ترغب في شيء فإنه ليسعدني أن أحقق رغبتك.

شكرته على ذلك، فقد كان لدي من السمك ما يكفي لطعامي. وحين رأى بيثياس سلتي، أخذ يهزها ليتأمل الأسماك بصورة أدق، وسألني:

ـ بكم اشتريت هذه البضاعة الرديئة؟

فأجبته:

ـ استطعت بعد جهد ومشقة إقناع الحوات بقبول عشرين سنتيما ثمنا لها.

وعندما سمع هذا، مسك يدي، وأعادني إلى السوق، وسألني:

ـ عند أي من هؤلاء الباعة اشتريت هذه القذارة ؟

فأشرت إلى رجل عجوز قصير، كان جالسا في إحدى الزوايا، فصاح فيه في الحال بصوت موظف مراقب مليء بالحدة:

ـ ها أنتم الآن تضنون بالاحترام حتى على أصدقائنا، بل أنتم لا تحترمون غريبا على الإطلاق، وتطلبون أسعارا مرتفعة ثمنا لأسماك عديمة الطعم، وتخلعون على بلاد تساليا المزدهرة مظهر البراري والقفار بإفراطكم في أسعار المواد الغذائية. لكنكم لن تظلوا بلا عقاب. سأريكم في الحال كيف توضع القيود في أيدي الأوغاد من أمثالكم حسب ما يسمح لي به مركزي.

وألقى الأسماك في الميدان العام، وطلب من أحد الخدم أن يدوسها بقدميه. وحين شعر بالرضا عن موقفه الصارم، نصحني بالانصراف قائلا:

ـ يكفيني، يا لوكيوس، أن يدوسها بأقدامه أن أكون قد عاقبت هذا الرجل العجوز

بهذه الصورة.

اندهشت لهذه الحادثة، وأصابني ما يشبه الذهول، ومضيت إلى الحمام بعد أن ضيعت مالي وطعامي بفضل الفكرة الجريئة، التي طرأت على ذهن زميلي الماكر. وبعد الحمام تحاملت على نفسي لأصل إلى مسكن ميلو وإلى غرفة النوم.

عندما وصلت، أقبلت الخادمة فوتيس، كما كنت أتوقع، وقالت لي:

ـ سيدي في انتظارك، أيها السيد الضيف!

فاعتذرت بلطف، لأني كنت أعرف بخل ميلو، وكنت قد عزمت على إزالة متاعب السفر عن طريق النوم بدل الطعام. وعندما أخبرته الخادمة بذلك، أقبل إلي بنفسه، ومسك بيدي وقد عزم على أن يقودني بلطف. وعندما ترددت، ورحت أمانع في تواضع، قال لي:

ـ لن أنصرف قبل أن تأتي معي.

وأعقب كلمته بقسم، وقادني ـ وكان علي أن أستجيب لإلحاحه رغما عني ـ إلى أريكته الصغيرة المعروفة، وأمرني بالجلوس فوقها، ثم سألني:

ـ كيف حال صديقنا ديمياس في وظيفته؟ كيف حال زوجته؟ أطفاله؟ موظفيه؟

فحدثه عن ذلك على التوالي، وسألني عن أسباب رحلتي. وبعد أجبته عن ذلك كله، أخذ يسألني عن كل تفاصيل مدينتي الصغيرة وعن أعيانها، وفي النهاية سألني حتى عن رئيس الحكومة. ولكنه ما كاد يلاحظ أن حديثي المتواصل معه يضيف إلى متاعب سفري تعبا آخر، وأن النعاس بدأ يداعب عيني، فكنت أتوقف عن إتمام الجمل، وأنني أصبحت في النهاية استعمل كلمات لا معنى لها ـ ما كاد يلاحظ ذلك حتى سمح لي بالذهاب إلى فراشي. وهكذا تخلصت من البخيل العجوز ومن وجبة الجوع المليئة بالكلمات! وعدت إلى غرفة النوم وأنا مثقل بالنعاس بدل أن أكون مثقلا بالطعام، فلم يكن في معدتي غير الحكايات، واضطجعت لأنعم بلذة النوم.

الكتاب الثاني

لم يكد الليل يتراجع أمام الشمس الجديدة، ويطلع النهار، حتى صحوت من نومي، وقمت من فراشي، وكنت لا أزال أشعر بشيء من الاضطراب، وقد تملكني الحرص على مشاهدة ما في المدينة من أشياء غريبة عجيبة. لقد تذكرت أنني وسط تيساليا، التي اشتهرت بتعويذاتها السحرية، وأن حكاية صديقي الفاضل أرسطومينيس قد انتهت أمام موقع هذه المدينة. فأخذت أشاهد الشيء تلو الآخر، ونفسي ممتلئة بالآمال والتطلعات والرغبات الفضولية. والواقع أن كل ما شاهدته في المدينة لم يجعلني أعتقد أنها هي فعلا، فقد بدا لي أن الأعمال السحرية قد خلعت على الأشياء كلها أشكالا مغايرة. ومن ثم تصورت أن الحجارة، التي أراها، ليست هي نفسها سوى أناس متحجرين، وأن الطيور، التي أسمعها، ليست لها أجنحة إلا لأنها تحولت عنهم بدورها، وأن الأشجار، التي تحيط بالمراعي، لم تورق إلا لذلك، وأن الآبار تنطلق متدفقة من أجساد البشر. وتصورت كذلك أن الصور والتماثيل ستسير، والجدران ستتكلم حتما، والثيران وما أشبهها من الماشية سوف تتنبأ بالمستقبل، بل تصورت أن نبوءة ما لا بد أن تنزل من السماء ومن قرص الشمس.

ورغم ما كنت أعانيه من اضطراب، بل من نزوع بلغ حد الجنون، فقد رحت أتجول في الأمكنة، دون أن تكون لي طبعا غاية محددة أو أن أكتشف أثرا واحدا لما كنت أريده على الإطلاق. وبينما كنت أتسكع من باب إلى آخر كالخليع، إذا بي أجدني في السوق فجأة ومن غير قصد. فرأيت امرأة تسير هناك برفقة جمع غفير من الخدم، فلحقت بها بخطوات سريعة، وقد نم ما كانت تحمله في مشابكها وفي ثيابها من ذهب، استعمل بعضه إطارا، وبعضه الآخر عينة، على أنها سيدة رفيعة المنزلة. وكان يسير إلى جانبها رجل تقدمت به السن. وبمجرد أن وقع نظره علي، صاح قائلا:

ـ وحق هرقل، إنه لوكيوس!

وانطلق يعانقني، ثم همس شيئا غير مفهوم في أذن المرأة، وقال لي:

- ماذا، ألا تذهب إلى أمك لتحييها ؟

فقلت له:

- إنني أخجل من الاقتراب من سيدة لا أعرفها.

وعلتني حمرة الخجل في الحين، فبقيت واقفا مطأطىء الرأس، فنظرت إلي، وقالت:

- إنه يشبه أمه الفاضلة سالفيا في أدبها وسمو أخلاقها. يا للعنة! يشبهها بمنتهى الدقة حتى المظهر الخارجي، فله القامة نفسها، وله الحجم نفسه، وله كذلك اللون الوردي نفسه. وله شعرها الأشقر المجعد، وعيناها الزرقاوان، إلا أن عينيه أكثر حيوية كعيني الصقر، يحيط بكل ذلك وجه مشرق زاه، وله أيضا مشيتها البسيطة الأنيقة!

وأضافت قائلة:

- لقد ربيتك بيدي هاتين، يا عزيزي لوكيوس. ولم لا؟ فأنا لست قريبة من أمك قرابة الدم فقط، وإنما نشأت معها أيضا. فنحن ننحدر من أسرة بلوتارخ، ورضعنا حليب المرضعة نفسها، ثم إننا بمثابة الأختين الشقيقتين، ولا شيء يفصل بيننا غير منزلتنا، فقد تزوجت هي من رجل نبيل، وتزوجت أنا من رجل من الناس. فأنا بيرهينا، ولعلك سمعت اسمي من أحد مربيك لا تزال تتذكره. تعال إذن إلى بيتي دونما حرج، بل تعال إلى بيتك أنت!

فأجبتها، وكانت حمرة الخجل قد زايلتني أثناء حديثها:

- لايحق لي، يا أمي، أن أغادر بيت مضيفي ميلو من غير سبب يدعوني إلى ذلك، ولكني سأحاول طبعا أن أتحرر من ضيافته دون الإساءة إليه. سأغتنم كل فرصة تتاح لي للنزول عندك كلما قادني طريقي إلى هذه المدينة.

وبينما كنا نتحدث في هذا الأمر وغيره، وصلنا بعد خطوات قليلة إلى منزل بيرهينا. فوجدتني في قاعة رائعة، يقوم في كل زاوية من زواياها الأربع عمود، يعلوه تمثال إلهة النصر، وقد نشرت جناحيها، وارتكزت بطون قدميها الورديتين لحظات فوق كرة على أهبة للتدحرج، فبدت وكأنها توشك أن تطير. وكان هناك تمثال من المرمر الباري للإلهة ديانا، ربة الصيد، في منتهى الروعة، يتوسط القاعة تماما، وهو

...ال، ذو ثوب ممتلىء بالهواء، وحركة حية نشيطة، يبدو وكأنه مقبل على الداخل ...س الجلال لسموها الإلهي! وقفت الكلاب الوفية عن يمين الإلهة وعن شمالها، وهي كلاب من الحجارة أيضا، إلا أن عيونها كانت متوعدة، وآذانها مدببة، ومناخيرها ...مخة، وأفواهها مكشرة عن أنيابها، ـ لو سمع نباح قريب، لتصور المرء أنه آت من ...ه الأفواه المرمرية! وقد رفعت كلاب الصيد صدورها ـ وبذلك قدم النحات أبدع ما جادت به موهبته الفنية ـ وارتكزت أقدامها الخلفية، مما جعل أقدامها الأمامية ...و وكأنها تنطلق هاربة! وكانت هناك خلف ظهر الإلهة صخرة شبيهة بالمغارة، نمت ...فها طحالب وأعشاب وأوراق وأغصان وأوراق عنب مخضرة هنا، وأدغال هناك ـ من الحجر! ، وكان يضيئها ما يعكسه التمثال المرمري من نور. وكانت الثمار وعناقيد العنب تبدو بتناسقها البديع معلقة في الحافة الخارجية من الصخرة، ومعبرة عن مطابقة الفن للواقع في مباراته مع الطبيعة، مما يجعل المرء يتصور أن هذه الثمرة أو تلك تدعوه إلى قطفها لأكلها حين يخلع عليها الخريف ألوان الفواكه الناضجة. وحين ينحني المشاهد فوق الحوض، الذى تخر مياهه عند قدمي الإلهة في هدوء، وتتجمع أمواجا لطيفة، يتصور فعلا أنها تتحرك لقربها من الحقيقة كالأعناب العالقة بعناقيدها. ويرى وسط الأوراق المرمرية تمثال حجري لأكتيون (الصياد الملعون) في الحجر وفي الماء، وهو ينحني إلى الأمام ليسارق الإلهة النظر، وقد تحول إلى وعل وصارت له طبيعة الحيوان، وينتظر بفضول دخول ديانا إلى الحمام لتستحم.

كنت أتأمل هذا بشغف كبير مرارا وتكرارا، حين قالت لي بيرهينا:

ـ كل هذا الذى تراه لك.

عقب ذلك طلبت من الجميع مغادرة المكان لتتحدث معي على انفراد. وعندما خرج الجميع، قالت لي :

ـ وحق هذه الإلهة، يا لوكيوس، وبحق خوفي المسعور عليك، وبحق حرصي على مستقبل من اعتبره بمثابة ابني، أرعاه من بعيد، بحقي عليك إلا أخذت حذرك من فنون بامفلية (التي تعشق الجميع) السيئة وإغراءاتها المضرة، فهي ساحرة، تزوجت من ميلو، الذى تسميه مضيفك، ساحرة من الدرجة الأولى، ويقال إنها ماهرة في كل نوع من أنواع السحر المتصلة بالأضرحة، تستطيع بنظرة واحدة منها أن تجعل الأعواد الصغيرة والحجيرات وما أشبهها تغرق أضواء النجوم في هوة سحيقة حالكة الظلمة وتعيدها إلى ما كانت عليه من اضطراب وفوضى. فما تكاد تلمح شابا جميل

الصورة، رشيق القوام، حتى تهيم به، وتجعله شغلها الشاغل إلى أن يقع في حبالها، وعندئذ تتسلط عليه وتقيده بقيود الشهوة الأبدية. وإذا لم يستجب لها أحد كما تريده على ذلك أو لم يعد ينال رضاها، لأنها سئمته، فإنها تحوله في رمشة عين إلى حجر أو كبش أو أي حيوان من الحيوانات، وقد تقضي على غيره قضاء تاما. هذا ما يجعلني أخاف عليك خوفا شديدا، ولذلك يجب علي أن أحذرك منها. إنها تحترق بلا كلل، وما أنت بشبابك وجمالك إلا وقود بالنسبة إليها.

هذا ما حدثتني به بيرهينا وهي خائفة. ولكني كنت على أية حال مستعدا لتقبل الجديد، وحين سمعت كلمة السحر المغرية، كنت في تلك اللحظة أبعد ما أكون عن الاحتراس من بامفيلة بل هممت بالتوجه إلى مدرسة تعلم السحر مهما كلفني ذلك من ثمن، والإلقاء بنفسي في خضمه. وهكذا خلصت نفسي من يدها بسرعة ولهفة، كما لو أني أتخلص من سلسلة، وبعد كلمة سريعة (إلى اللقاء!) مضيت مسرعا إلى حي مضيفي ميلو. وبينما كنت أحث خطاي كالمعتوه، كنت أقول لنفسي: "هيا، يا لوكيوس! استيقظ، تمالك نفسك! فهاهي فرصتك المواتية. في استطاعتك أن تشبع رغبتك بالحكايات العجيبة حتى التخمة. فاطرد عنك هذه المخاوف الصبيانية، وجابه الأمر بنفسك في جرأة. ترفع عن إقامة علاقة جنسية بمضيفتك، واحترم فراش الزوجية لمضيفك ميلو الشهم، ولكن لك أن تهاجم الخادمة فوتيس بكل الوسائل! فهي فتاة جميلة، ذات شخصية عابثة، ثرثارة. لقد تلطفت معك يوم أمس، وقادتك إلى غرفتك، ثم أنامتك بوداعة، ووضعت الغطاء فوقك بشكل حنون، وقبلتك فوق جبينك، وقد عبرت من خلال ملامحها كم يسوؤها أن تتصرف عنك، فحملها كل ذلك على أن تتوقف لتنظر إليك من فوق كتفها. إذن فلتكن السعادة والبركة من نصيبك! قد يخيب مسعاك، ولكن المهم أن تهاجم معقل فوتيس هذه!"

وصلت إلى باب ميلو وهذا النقاش يدور في نفسي، وقد صحت عزيمي على ما كنت أرغب فيه. ولم أجد في البيت لا ميلو ولا زوجته، وإنما وجدت فوتيس الجميلة. كانت قد طبخت لسيدها وسيدتها كبة من اللحم المفروم، ولحما محمرا في المرق، ولحما ملفوفا من ألذ الأنواع، وكانت رائحة كل ذلك تتخلل أنفي. وكانت هي نفسها قد ارتدت ثوبا مخمليا أنيقا، وشدت صدرها برباط يشع حمرة تحت نهديها، ويخلع على قوامها الكثير من الفتنة والجمال. وأخذت تخض الطنجرة بيديها الورديتين بنشاط، فكانت أعضاؤها الناعمة تهتز مترنحة، فتحدث في خصرها حركات هادئة عذبة، ـ كأنها أمواج مطواعة! استحوذ علي منظرها، فوقفت حيالها مفتونا كأني انغرزت في

الأ، ... ووقفت في جسمي كذلك أعضاء كانت حتى تلك اللحظة خاملة! وفي النهاية
اا .اها

ما اجمل الطريقة، التي تحركين بها الطنجرة فتتحرك معها عجيزتك، وما أشد
...ها. يا عزيزتي فوتيس! ما هذا الطعام اللذيذ، الذى تعدينه؟ إن من تسمحين له
.ه م اصبعه فيه لا بد أن يشعر أنه ملك، بل يشعر أنه في السماء!

عندئذ قالت الفتاة بلهجة عابثة مفعمة على عادتها:

اغرب عن وجهي، أيها الأحمق! ابتعد عن موقدي ما أمكنك ذلك! فلو لهبتك
.ار ي، لتحولت إلى شعلة من نار، ولم استطاع أن يطفيء جذوتك أحد غيري، أنا التي
...طيع أن تأرجح الطنجرة والسرير بالتوابل اللذيذة!

وكانت في أثناء ذلك تنظر إلي وتبتسم. ولكني لم أبرح مكاني إلى أن تفحصت
طلعتها بدقة. ولكن ما لي وللحديث عن شيء آخر: كان المهم بالنسبة إلي دائما أن
ا.امل الرأس والشعر بشكل دقيق وأمام الناس حتى أتمتع بذلك في البيت فيما بعد.
ولي في هذا الأمر أسباب ثابتة مقنعة. فهذا الجزء المكشوف من الجسم يظل
مكشوفا ومرئيا، وهو يمثل أول ما تقع عليه أنظارنا. وكل ما يخلعه الثوب الجميل على
بقية الجسم من لون زاه، يتوفر في الشعر الذى يغطى الرأس. إن أغلب النساء ينزعن
كل ثيابهن ليقدمن الدليل على جمال أجسادهن، ويخلعن ألبستهن ويعرضن ما لهن
عاريا لينلن الإعجاب عن طريق بشرتهن المتوردة أكثر مما ينلنه عن طريق ثيابهن
المطرزة بالذهب.

في حين أن الأمر يختلف عندما ينزع الإنسان عن امرأة جميلة شعرها - وإنه لمن
الإثم الحديث عن ذلك ولا ينبغي أن تحدث حادثة من هذا النوع أبدا - ويجرد وجهها
من زينته الطبيعية. فلو هي هبطت من السماء، أو خرجت من البحر، الذى كبرت بين
أمواجه، أقول ولو كانت هي إلهة الجمال نفسها، وقد حفت بها الإلاهات الجمال الثلاث،
وأحاط بها طلاب الحب كلهم، وارتدت حزام الرغبة في الحب، وضاعت عطرا وفاحت
عبيرا - وكانت صلعاء، فإنها لن تنال حتى إعجاب إلهها فولكانوس نفسه!

أما حين يلتمع شعرها بألوان جميلة، ويرسل ألقه في اتجاه شعاع الشمس في
هدوء، فإن الأمر يختلف. ذلك أن التنافر يخلع عليه نوعا من الجمال والجاذبية، فيبدو
مرة ذا لون ذهبي، يتحول إلى لون عسلي قاتم، ويبدو مرة أسود فاحما تشوبه ألوان

متغيرة كأنها تباري أطواق الحمام، أو يبدو وكأنه ضمخ بالعطور العربية، وفرق بمشط له حفيف وأسنان حادة، وجمع إلى الوراء، فيقابل نظر الحبيب، ويعكس في المرآة في الحين صورة جميلة. وكذلك حين يتكوم ضفيرة كثيفة فوق المفرق أو يسترسل خيوطا عريضة فوق الظهر. إن لتسريحة الشعر أهمية على الإطلاق، فمهما تزينت المرأة بالذهب والجواهر والألبسة وكل ما يمكن تصوره، فإنها لن تسمع ثناء على أناقتها، إذا ما هي أهملت شعرها.

لكن فتنة فوتيس كانت تكمن في إهمالها لشعرها. كان شعرها الناعم قد انتشر وتكور فوق عنقها، ثم انبسط فوق رقبتها، وتجمع عند نهايته كأنه ستار صغير، بينما شكل عقدة فوق مفرقه.

لم أستطع كبح جماح رغبتي العارمة فترة طويلة، فانحنيت إلى الأمام وطبعت قبلة لها حلاوة العسل فوق أعلى قمة ينعقد فيها شعرها. عندئذ أدارت رأسها، والتفتت إلي وهي ترسل نحوي غمزة جانبية، وقالت:

- اسمع، أيها العالم! إن لهذه المُشهية، التي تتذوق طعمها، حلاوتها ومرارتها. فاحذر من إثارة حوصلتي الصفراوية بعسلك الشديد الحلاوة فترة طويلة!

فقلت لها:

- وماذا في ذلك، يا بهجتي؟ إذا ما أنا كوفئت بقبلة واحدة، فإنني على استعداد لشي لحمي طولا فوق هذه النار.

وأخذتها بعدئذ بين ذراعي ورحت أقلبها، ولما اجتاحها ما اجتاحني من الرغبة في ممارسة الحب، واندفعت بكل جوارحها لتدفع بلسانها السماوي الحارق في فمي، هتفتُ:

- إني أعاني سكرات الموت، بل إني قد قضيت منذ مدة إذا أنت لم تستجيبي لي!

فقبلتني مرة أخرى، وقالت لي:

- تشجع! إني أريد ما تريده أنت، فأنا لك! لا ينبغي لنا أن نأجل متعتنا طويلا. سأكون في غرفتك عندما يسطع أول نور. فاذهب إلى غرفتك لتعد نفسك، فإني أريد أن أصارعك الليل كله بعنف وصرامة!

افترقنا بعد أن تبادلنا كلمات على هذا المنوال. وعند الظهيرة أرسلت إلي بيرهينا

•• اما الضيافة، وكانت عبارة عن لحم خنزير سمين وخمس دجاجات وجرة خمر ••،•ة. عندها ناديت فوتيس، وقلت لها:

ها قد جاء إله الخمر باخوس، مرشد إلهة الجمال وحامل الأسلحة، من غير • ••. سنشرب اليوم هذا الخمرة كلها، لتزيل عنا الحياء الفاتر، وتبعث فينا الرغبة الحية. فعندما تبحر إلهة الجمال لا تطلب أكثر من أن يشتعل المصباح في الليل الحبوي وأن يكون هناك ما يكفي من الخمر.

وكرسنا ما تبقى من اليوم للحمام، ثم للأكل. وعندما دعيت إلى بيت ميلو لتناول وجبة فقيرة مبهرجة، تذكرت ما حدثتني به بيرهينا، فحاولت أن أجلس قدر الإمكان بعيدا عن نظرات زوجته، وأن أتجنب النظر إلى وجهها خوفا منه كما لو أني أتجنب النظر إلى بحيرة الجحيم. ولذلك كنت ألتفت أكثر إلى فوتيس، التي كانت تقدم لنا الطعام، وأمتع نفسي بذلك إلى أن قالت بامفيلة فجأة - وكان المساء قد هبط - وهي تنظر إلى المصباح :

- غدا ستتهاطل أمطار كثيرة.

ولما سألها زوجها كيف عرفت ذلك، أجابته أن المصباح هو الذى أظهر لها ذلك، فأثارت بحكمتها هذه ضحك زوجها، فقال:

- إن لدينا في هذا المصباح عرافة قوية، تراقب من مرصد منارتها كل أمال السماء حتى الشمس نفسها.

فاعترضت أنا قائلا:

- هناك أدلة ثابتة على هذا التنبؤ، وليس في ذلك ما يدعو إلى العجب أيضا. فمهما كانت هذه النار صغيرة ومن صنع الإنسان، فإن لها علاقة متينة بتلك النار السماوية العظيمة، التي انحدرت منها، ولذلك فإنها لا تعرف مسبقا ما يطرأ على الأثير من تغيرات فحسب، وإنما تظهرها لنا أيضا قبل حدوثها. وبالمناسبة، هناك الآن عندنا في كورنث رجل أجنبي من بلاد الكلدانيين (منجم) يوقع الاضطراب في المدينة كلها بما يقدمه من تنبؤات عجيبة ويخبر الناس، ليجمع بعض المال، بأسرار المستقبل. فهو يعرف تماما اليوم، الذى يتم فيه عقد زواج متين، ويكون فيه البقاء لجدران الأساس، وينتفع فيه تاجر، ويحظى فيه الرحالة بالصحبة، وتكون الرحلة البحرية فيه ميمونة. لقد حدثني أنا أيضا عن نجاح رحلتي هذه، عندما سألته عنها، وذكر لي

أشياء تتعلق بها، كانت عجيبة ومتنوعة إلى حد ما، فتنبأ لي حينا بأنني سأصبح شخصية شهيرة بارزة، وتنبأ لي حينا آخر بأن حادثة كبيرة وقصة غريبة ستقع لي وأني سأقوم بتأليف كتاب أكون أنا نفسي محوره.

عندئذ تألق وجه ميلو، وسألني:

ـ ما هي أوصاف كلدانيك هذا وما اسمه؟

فأجبته:

ـ طويل القامة، أسمر اللون إلى حد ما، ويدعى ديوفينيس (المخبر عن الغيب بإلهام من زفس).

فهتف ميلو:

ـ إنه هو ولا يمكن أن يكون سواه! لقد تنبأ لعدد كبير من الناس هنا أيضا بأشياء مماثلة، ولم يصل بذلك إلى بعض المال فقط، كلا، بل جعل من ذلك موردا حقيقيا، ولكن النحس المحزن، بل الرهيب لاحق المسكين في النهاية. فبينما كان ذات يوم يلقي بتنبؤاته وسط جمع غفير من الناس، اقترب منه تاجر، يدعى كريدو (الحريص على الربح) وطلب منه أن يذكر له اليوم المناسب لرحلة كان يعتزم القيام بها. وعندما حدد له اليوم الملائم، وأخرج التاجر حافظة نقوده، وأفرغها وراح يعد المئة درهم ليقدمها له مكافأة على ما تنبأ له به، تقدم من المنجم فجأة شاب نبيل من الخلف، وسحبه من طرف ثوبه. وما كاد المنجم يلتفت إليه، حتى عانقه الشاب وغمره بقبلاته بفرحة كبيرة، فرحب به ديوفنيس بدروه وأجلسه قربه، وكان ظهور الشاب مفاجأة كبيرة بالنسبة إليه، أوقعه في ارتباك ظاهر، فنسي العمل، الذى كان بصدده، وقال له:

ـ يا إلهي، كم نحن مشتاقون إليك! متى وصلت؟

فأجاب الآخر:

ـ وصلت هذا المساء. وأنت، يا أخي! حدثني بدورك كيف كانت رحلتك، منذ أن أبحرت مسرعا من جزيرة إيبويا، برا وبحرا.

فقال كلدانيي الفاضل ديوفنيس، وهو لم يتمالك نفسه بعد:

ـ لقد تورط أعداؤنا وخصومنا كلهم في القيام برحلة رهيبة، بل بمغامرة أديسية حقيقية! لقد أخذت العواصف تخض السفينة، التي أبحرنا بها، وبعد أن فقدت عجلتا

القيادة، اتجهت في اللحظة المناسبة إلى الشاطىء الآخر، ثم غطست بمقدمتها تحت الماء وغرقت. لقد فقدنا كل شيء، ولم ننج بأنفسنا إلا بعد مشقة وصراع رهيب. وكل ما جمعناه بعد ذلك عن طريق الغرباء الرحماء والأصدقاء الطيبين وقع في أيدي اللصوص. وعندما كنا نقاوم تلك العصابة المجرمة ذبح أخي الوحيد المسكين ارغنوتوس أمام عيني هاتين.

بينما كان ديوفنيس يروي ذلك في حزن، خطف التاجر كريدو الدنانير، التي كان قد أعدها ليكافىء بها المنجم على معلوماته، وهرب مسرعا. وعندما تنبه ديوفنيس اخيرا، ولاحظ أنه قد أغفل أمره فخدع. وازداد إحساسه بالعار، حين أخذنا نحن، الذين كنا نشكل حوله جدارا دائريا، نضحك بصوت عال.

أتمنى لك حقا، أنت وحدك أيها السيد لوكيوس، أن يكون هذا الكلداني قد قال لك الحقيقة، وأن يحالفك الحظ وتوفق في رحلتك.

حين كان ميلو يروي مثل هذه الحكايات الطويلة المملة، تنهدت في صمت، فقد غضبت من نفسي بعض الغضب، لأني كنت قد تسببت، دون أن يطلب مني أحد ذلك، في رواية حكايات غير ملائمة، نغصت علي قسما كبيرا من أمسيتي، وحرمتني من التلذذ بها. وفي النهاية تغلبت على بلادتي وقلت لميلو:

ـ فلنترك ديوفنيس لسوء طالعه، وليضع منه ما يأخذه من الناس في البر أو في البحر. أما أنا فإني لا أزال أعاني من متاعب الأمس، فاسمح لي بالذهاب إلى فراشي مبكرا.

وقمت بعد هذا وأسرعت إلى غرفتي، فوجدتها قد أعدت إعدادا جيدا لتناول وجبة فاخرة. كانت أفرشة الخدم قد هيئت فوق الأرض خارج الغرفة، ولعل ذلك قد تم قصدا حتى لا يستمعوا إلى ما يجري بيننا من أحاديث ليلية. كانت هناك قرب سريري مائدة صغيرة محملة بعينات من الأطعمة اللذيذة الفاخرة. وكانت هناك كذلك كؤوس ملئت بالماء إلى نصفها، تنتظر مزج النبيذ بها، وزجاجة مفتوحة معدة للسقي، كانت البلطة قد أطارت عنقها. ـ كانت مشهيات حقيقية قبل مبارزة الحب!

ما كدت أضطجع في فراشي، حتى اقتربت مني فوتيس مبتهجة، بعد أن رافقت سيدتها إلى فراشها، وقد تزينت بالورد، ووضعت برعما فوق صدرها المتماوج، وأخذت تعانقني وتقبلني بعنف، وتغمرني بأكاليل الورد الصغيرة، وتنثر الزهور فوقي.

وتناولت بعد ذلك قدحا، وصبت فيه ماء حارا، وناولتني إياه لأشربه. قبل أن أنتهي من شربه، اقتربت مني بهدوء، وأخذت تمص بشفتيها الثمالة جرعة جرعة، وهي تنظر إلي بشكل جذاب. وتظل الكأس الثانية والثالثة تتنقل بيني وبينها بالتناوب إلى أن رفعت ـ وكانت الخمر قد صعدت آنئذ إلى رأسي، واشتدت بحواسي وأعضائي الرغبة في الحب، ونال مني الشبق منذ لحظات ـ رفعت ثوبي وأريت فوتيس رغبتي الجامحة، وصحت قائلا:

ـ ارحميني، اسعفيني بسرعة! ها أنت ترين أنني على أتم الاستعداد للصراع، الذى كنت قد حدثتني عنه دون إعلان حرب. فبمجرد أن دخل سهم كوبيد، إله الحب الرهيب، صدري واستقر به، وترت أنا الآخر قوسي بعنف، وإني لأخشى حقا أن ينفجر الوتر من شدة تصلبه. وإذا ما أنت أردت أن تتكرمي علي تكرما خاصا، فسرحي شعرك ودعيه يسترسل ليمنح فيض خصلاته معانقتنا فتنة خاصة.

وفي لحظة واحدة وضعت المواعين جانبا بأسرع ما يكون، ونزعت ثيابها كلها وسرحت شعرها استعدادا للمداعبة الحية، فأصبحت تشبه صورة لإلهة الجمال وهي تطفو من بين أمواج البحر، وقد تحولت إلى فتنة، وغطت عانتها المرمرية بيدها الوردية تعنتا أكثر مما غطتها حياء، قالت:

ـ صارعني، صارعني بجرأة، فإني لا أريد أن أتراجع أمامك وأريك ظهري. أرني إذن أنك رجل، التحم بي وجها لوجه، واقتحمني مستهينا بالموت ودافع عن حياتك، فلا مجال للعفو في معركة اليوم!

وبعد أن نطقت بهذه الكلمات صعدت إلى فراشي وجلست فوقي رويدا رويدا، وراحت تثب صعودا وهبوطا، وتهز ظهرها وترجه في حركات سائلة، لتتيح لي أن أتمتع بإلهة الجمال المحلقة إلى أن سقطنا كلانا إعياء، وقد ارتخت أوتارنا، ووهنت أعضاؤنا، ودفعنا، ونحن متعانقان، بأنفاسنا المبهورة. وشغلنا أنفسنا بهذه الصراعات وأمثالها ساهرين الليل إلى أن لاحت تباشير الفجر، وكنا في أثناء ذلك نتناول الأقداح من حين لآخر ونشرب، لنبعث النشاط في الخمود، ونثير الشهوة، ونجدد اللذة، وقد أضفنا إلى هذه الليلة ليالي أخرى مماثلة.

وذات يوم دعتني بيرهينا إلى تناول الطعام في منزلها، فاعتذرت لها، ولكنها ألحت علي في ذلك، فاتجهت عندئذ إلى فوتيس لأطلب من عينيها علامة اتخذها شعارا لي، ومع أنها لم تكن لها رغبة في الاستجابة لي، لأنها لم تكن تريد أن أبتعد عنها مقدار

اصبع، فقد منحتني رغم ذلك إجازة قصيرة، أستريح فيها من خدمة الحب، ولكنها قالت لي:

ـ اسمع! كن حذرا، ولا تتأخر كثيرا في العودة إلى البيت! فهناك عصابة من الشبان النبلاء والمجانين تهدد أمن المواطنين، وسترى في كل مكان جثث القتلى ملقاة في الشوارع، ولا يستطيع جنود الحاكم لبعدهم إزالة هذه المحنة عن المدينة. عليك أن تتوقع أنهم قد ينصبون لك كمينا لوفرة رزقك، ثم إن العصابة تهاجم الأجانب بدون احتراس.

فقلت لها:

ـ لا تهتمي لهذا الأمر، يا حبيبتي فوتيس! بصرف النظر عن أن مسراتي معك أهم عندي من تناول الطعام مع أناس غرباء، فإني أريد أن أزيل عنك هذه المخاوف وأعود إلى البيت مبكرا، ثم إنني لن أكون وحدي في الطريق، فإن لي كالعادة سيفي، الذى احمله إلى جانبي ليحرسني عندما تدعو الضرورة إلى ذلك.

ومضيت على هذه الصورة إلى تناول الطعام.

كان قد اجتمع هناك عدد كبير من الضيوف من نخبة المجتع كما جرت بذلك العادة في بيت سيدة راقية. كانت هناك موائد فاخرة لامعة مصنوعة من خشب الحوامض والعاج، وأرائك مغطاة بأغطية ذهبية، وأقداح كبيرة ذات أشكال جذابة متنوعة، وكلها ذات قيمية واحدة. كان ثمة زجاج مصقول بطريقة فنية، وبلور نقي، وفي مكان آخر فضة ملتمعة وذهب براق، وكهرمان مجوف ومعادن اتخذت أكوابا ـ كل الأشياء، التي يتصورها المرء مستحيلة، كانت متوفرة هنالك! وكان ثمة عدد من الخدم، يرتدون ثيابا رسمية فاخرة، يقدمون صحاف الطعام المليئة للضيوف في أناقة، وعدد من الولدان في ثياب رائعة تعلوها شعور متماوجة يقدمون بلا انقطاع أحجار كريمة شبيهة بالأكواب المليئة بالخمر المعتقة.

وعندما حملت الأضواء إلى الداخل، أصبحت الأحاديث أكثر حيوية، وارتفعت الضحكات والنكات والمداعبات في هذة الجهة وفي تلك. وعندئذ سألتني بيرهينا:

ـ ما رأيك في الإقامة بيننا؟ إن مدينتنا تمتاز، حسب علمي، عن المدن الأخرى بما فيها من معابد وحمامات وبنايات معمارية أخرى، ثم إن أثاثها مريح إلى حد ما. ويستطيع المرء أن يعيش فيها حياته بحرية، إذ يجد فيها الوارد عليها ما يجده في

رومة من صخب، ويجد فيها الضيف المتواضع ما يطمع إليه من هدوء ريفي، وعلى هذا فإننا محط الرحال في الإقليم كله.

فأجبتها قائلا:

ـ أنت على حق فيما تقولين، فإني لم أشعر أبدا في أي مكان في العالم بالحرية التي شعرت بها هنا. إلا أنني أشعر برعب أمام الزوايا المظلمة والفنون السحرية، فهناك من يقول إن قبور المقبرة نفسها ليست آمنة، بل إن المرء ليجلب من أمكنة الحريق وكوم الحطب بقايا ونتف الموتى ليكتم بها أنفاس الأحياء، وإن العجائز الساحرات ليتقدمن الجنازة بسرعة فائقة حين يحمل إنسان ما إلى قبره.

هذا ما قلته أنا، فأضاف رجل آخر قائلا:

ـ والأكثر من ذلك أنه لا ينجو هنا أحد من الأحياء. ذلك ما حدث لرجل شوه وجهه طولا وعرضا، فأصبح رجلا مشوها.

وهنا تعالت ضحكات المدعوين أجمعين، واتجهت جميع الوجوه والأنظار إلى شخص، كان منزويا في ركن من الأركان، فاعتراه الاضطراب من جراء تطفل الجماعة عليه، وهمهم غاضبا وهم بالنهوض، ولكن بيرهينا قالت له:

ـ لا تنهض، يا عزيزي تيليفرون! ابق معنا لحظة، وكن لطيفا على عادتك وارو لنا مرة أخرى قصتك ليتسلى صديقي الشاب لوكيوس بسماع قصتك الجميلة.

إلا أن الآخر قال في ثورة:

ـ إنك لوفية حقا، يا سيدتي، لطيبتك النبيلة، ولكن حماقة بعض الناس لا تطاق.

مع ذلك استطاعت بيرهينا أن تحمله على الحديث رغما عنه، حين أقسمت له بحياتها، وألحت عليه فوافق على ذلك. وبعد أن كوم تيليفرون أغطيته، واستند على مرفقه في نصف جلسة، ومد يده اليمنى على طريقة الخطيب، فثنى الأصبعين الأسفلين، وأسند الأصابع الباقية الممتدة بإبهامه، بدأ يروي قصته:

"سافرت وأنا طفل صغير من ميليت إلى الألعاب الأولمبية، وبما أنني كنت أريد أيضا أن أزور هذه المنطقة من مناطق الإقليم الشهير، فقد جبت أطراف تيساليا كلها، وبلغت، لأن سوء طالعي أراد ذلك، لاريسا. وعندما أصبح ما لدي من مال هزيلا إلى حد ما، وكنت أجوب كل الشوارع بحثا عن دواء لفقري، لمحت رجلا عجوزا طويل

القامة في وسط السوق. كان واقفا فوق حجر وهو يصيح بصوت عال: "من أراد أن يحرس ميتا، فليقترح الثمن، الذى يريده." وعندها سألت أحد المارة:

- ماذا أسمع؟ هل من عادة الموتى في هذه البلاد الفرار؟

فأجابني :

- أسكت! أنت لا تزال شابا غرا، ثم إنك غريب، ولهذا فأنت لا تعرف بطبيعة الحال انك في تساليا، التي تقرض فيها الساحرات وجوه الموتي في جميع النواحي، ليتخذن منها أخلاطهن السحرية الكاملة.

سألته:

- أخبرني من فضلك، علام تقوم حراسة الموتى هذه؟

فأجابني بقوله:

- يجب على المرء أولا أن يقضي الليل كله ساهرا، يحرس الجثة بعينين جاحظتين دون أن يرف له جفن، ودون أن يحول نظره عنها ولو كان ذلك شزرا. فهؤلاء الساحرات اللعينات يعرفن كيف يتخذن شكل حيوان ما ويتسللن خفية، بحيث يسهل عليهن أن يخدعن عيون الشمس والعدالة. ذلك أنهن يتخذن شكل الطيور، ثم شكل الكلاب، وكذلك شكل الفئران، بل حتى شكل الذباب. وبعد ذلك يضعن بأعمالهن السحرية الرهيبة غطاء من النوم الثقيل فوق الحراس، ولا أحد يعرف بشكل مؤكد ولو إلى حد ما ما هي الأسرار، التي تختلقها تصورات هؤلاء اللئيمات لإرضاء شهواتهن. ولا تتجاوز المكافأة على هذا الجهد الخطير أربع أو ست قطع ذهبية. أوه! لقد كدت أنسى شيئا: إذا لم يسلم الحارس في الصباح الجثة سليمة، فإن عليه أن يعوض ما نتف وقرض منها بشرائح من وجهه.

حين سمعت هذا اندفعت إلى الأمام، واقتربت من الرجل، وقلت له:

- يكفيك صراخا! إن الحارس هنا، وهو على استعداد. هات المكافأة!

قال:

- ستودع لك ألف دينار، ولكن اصغ إلي، أيها الشاب! عليك أن تعتني بحراسة الجثة - إنها جثة ابن إحدى الأسر الراقية في المدينة - من الجنيات المجنحات الشريرات كما ينبغي لهن ذلك!

قلت له:

ـ خرافة ما تقوله ودعابة محضة! أمامك رجل من حديد، يستطيع الاستغناء عن النوم، وله عينان بصيرتان أكثر حدة من عيني لونكيس أو عيون أرغوس المئة، ـ رجل كله عين.

وما كدت أنتهي من هذا، حتى قادني إلى بيت معين في الحين، لكن بابه الحقيقي كان مسدودا، ولذلك أدخلني من باب صغير في الخلف، وفتح غرفة مظلمة ذات كوات مغلقة، وأشار إلى امرأة باكية ترتدي السواد، ثم اقترب منها وقال لها:

ـ لقد التزم هذا بحراسة زوجك، وقد قبل ذلك وهو على ثقة من نفسه.

أزاحت المرأة شعراتها المتدلية هنا وهناك جانبا، وأظهرت محياها، الذى كان لا يزال يشع حزنا، ثم نظرت إلي وقالت:

ـ أرجوك أن تحرص على أداء عملك كما يجب.

فقلت لها:

ـ اطمئني! حسبك أن تقدمي لي حلوانا وفيرا!

واتفقنا على ذلك، فنهضت بعدئذ وقادتني إلى غرفة النوم، وهناك كشفت أمام سبعة شهود معينين، كانت قد أدخلتهم معها، بيدها عن الجثة، التي كانت مغطاة بأزر ناصعة البياض. وبعد أن بكت فوقها فترة من الزمن، وأشهدت الحاضرين على ذلك، أشارت في ألم إلى الأجزاء المفردة، ثم قالت، وأحد الحاضرين يسجل ما تقوله في لوحة:

ـ ها هو الأنف لم يمس، وها هما العينان سليمتان، والأذنان لم ينقص منهما شيئا، والشفتان لا غبار عليهما، وها هو الذقن كامل. فا شهدوا على هذه الحقيقة، أنتم أيها السادة الكرام!

بعد أن تم التوقيع على اللوحة، استدارت لتنصرف، ولكني قلت لها:

ـ مري، يا سيدتي، بإحضار كل ما أنا بحاجة إليه للقيام بهذه المهمة!

فسألتني:

ـ ما هو هذا الذى أنت في حاجة إليه؟

قلت لها:

- أنا في حاجة إلى مصباح كبير، وزيت يكفي للإضاءة حتى مطلع النهار، وماء حار، وجرار خمر، وقدح، وصحفة تحتوي على بقايا المائدة.

عندئذ هزت رأسها وقالت:

- دعك من هذا، أيها الغبي! أتطلب وجبة أكل كاملة في دار أهل الميت، التى لم ير فيها الدخان منذ أيام متتالية؟ أم تراك تعتقد أنك أتيت لحضور مأدبة عشاء؟ الأفضل لك أن تكون حزينا دامع العين وفقا لما يقتضيه المقام!

كانت خلال حديثها تبحث عن خادمة، وقالت بعد حين:

- ميرهينا، أحضري في الحين مصباحا وزيتا، واغلقي غرفة النوم على الحارس، وانصرفي عنه بسرعة!

هكذا تركت وحيدا لأعتني بالجثة اعتناء الأم بطفلها، ففركت عيني، وأعددتهما للحراسة، وأخذت أغني لأخفف من شدة ضربات قلبي. وجاء الشفق، واقترب الليل، وانتشر الظلام، وحل وقت النوم العميق، وأصبح الليل حالكا مسودا. وكنت أنا أرتعد فزعا، وازداد فزعي حين ظهر ابن عرس أمامي فجأة، واتخذ موقعه قبالتي، وراح ينظر إلي بحدة، إلى درجة أن هذا المخلوق أخرجني، على صغر حجمه، عن طوري. وفي النهاية قلت له:

- أغرب عن وجهي، أيها الحيوان البغيض! ألا تعود إلى أمثالك قبل أن أشعرك في الحال بما لوظيفتي من قوة وسلطان؟ اذهب!

فاستدار واختفى من الغرفة بسرعة، وبعد لحظة قصيرة غرقت في نوم لا قرار له، بحيث ما كان إله معبد دلفي نفسه يستطيع أن يفرق بسهولة من منا، نحن المضطجعين في نومتنا تلك، يبدو أكثر موتا من الآخر. لقد كنت، هكذا بدون حياة وفي حاجة إلى حارس آخر، كأنني غير موجود.

واستيقظت من نومي، عندما كسر صمت الليل صياح الديكة الحاد، فنهضت وأسرعت في فزع كبير إلى الجثة، وأدنيت المصباح منها، ثم كشفت عن وجهها، وأخذت أتصفح الأجزاء المفردة، كما سجلت أثناء الاتفاق على ذلك، وإذا بالمرأة المسكينة تندفع أيضا إلى الغرفة باكية خائفة ومعها شهود الأمس، وترتمي فوق الجثة

وتغمرها بقبلاتها العاصفة، وتتلمس الأجزاء كلها تحت ضوء المصباح. واستدارت بعد ذلك، وطلبت حضور مدير شؤون منزلها، وأمرته أن يدفع للحارس الطيب مكافأته دون تأخير. وبعد أن تسلمت مكافأتي، قالت لي:

ـ إننا لنشكرك، أيها الشاب، أجمل الشكر، ويعلم الإله أننا سنعدك منذ الآن لخدمتك النشيطة من أصدقاء البيت.

كادت تذيبني فرحتي بهذا الكسب، الذى لم أكن أتوقعه، واندهشت للقطع الذهبية الملتمعة، التي كنت لا أزال أقلبها في يدي المرة تلو الأخرى، وقلت لها:

ـ بل يمكنك، يا سيدتي، أن تعتبريني واحدا من خدمك، فأنا تحت تصرفك كلما كانت بك حاجة إلي!

ولم أكد أنتهي من كلامي، حتى اعتبر الخدم ذلك مني حسدا ونذير شؤم، وأسرعوا في ثورتهم إلى استعمال مختلف الأسلحة ضدي. فهذا يوجه لكماته إلى فكي، والآخر يدفع بمرفقيه في كتفي، وثالث يدفن يديه في جيبي، فداسوني بأقدامهم، وسحبوني من شعري، ومزقوا ثيابي، ثم رموا بي هكذا ممزقا كسيرا كما رمي بأدونيس الجميل أو المغني البيري خارج البيت.

واستردت أنفاسي في الزقاق المجاور، وراجعت نفسي، فعرفت بعد فوات الأوان أن كلماتي كانت تعيسة لم أفكر فيها كما ينبغي، واعترفت لنفسي بشكل رخيص أنني كنت أستحق مزيدا من الضرب. وفي أثناء ذلك كانت جنازة الميت قد ظهرت، بعد مراسيم البكاء والعويل والوداع الأخير، في ساحة السوق في أبهة على عادة الأسر الراقية في تشييع موتاها. وفي تلك اللحظة أقبل رجل عجوز مسرعا، يرتدي السواد، وقد نتف شعره الوقور حزنا وألما، والدموع تسيل من عينيه، واندفع بديه نحو النعش، وأخذ يصيح بصوت عال، يقلل من حدته نحيبه المستمر:

ـ أقسم لكم بحبكم للعدالة، أيها السادة، أقسم لكم بروح الجماعة، أن تقفوا إلى جانب مواطن قتيل وأن تنتقموا له من هذه المرأة المجرمة بشكل لا مثيل له في قسوته! فهي التي وضعت السم لهذا الشاب المسكين، ابن أختي، وقتلته هي دون سواها حبا لعشيق لها وطمعا في الميراث.

وهكذا خض الرجل العجوز الأسماع بشكاته المحزنه، فتعاطف الشعب معه، ولعل احتمال وقوع الجريمة قد سهل عليه تصديقه، وثار وأخذ يطالب بالثأر، ويجمع

الحجارة، ويطلب من الشباب أن يجهز على المرأة. فراحت المرأة تقسم، وهي ترسل دموعا كاذبة، بالإله وبعالم المقدسات، وتنكر أن تكون قد ارتكبت جريمة من هذا النوع. فقال العجوز:

ـ إذن فلنترك إظهار الحقيقة للعناية الإلهية، فها هو زاتخلاس (راهب إيزيس)، وهو راهب مصري من الدرجة الأولى، فقد اتفق معي على دفع مقابل مناسب له ليستحضر روحه من العالم السفلي لحظات وجيزة ويبعث الحياة في هذه الجثة الهامدة لتعود إلى الوطن من عالم الموت.

بعد هذه الكلمات أحضر شابا وقاده إلى الوسط، كان قد لف جسمه في أزر من القماش، وانتعل خفا من سعف النخل، وحلق شعر رأسه، وقبل يديه عدة مرات، حتى إنه لمس ركبته أيضا وقال:

ـ الرحمة، أيها الراهب المقدس، الرحمة! أستحلفك بكواكب السماء، وبأرواح الجحيم، وبعناصر الطبيعة، وبصمت الليل، وبالمعابد القبطية، وبارتفاع النيل، وبأسرار منفس، وجنوك (مزاهر) جزيرة فاروس (أمام الإسكندرية)! دع هذا الميت ينعم بالشمس لحظة قصيرة! دع قليلا من النور يتسرب إلى عينيه المغمضتين إلى الأبد! ليس ذلك لأننا نرغب في النزاع ونريد أن نمنع عن الأرض ما هو ملك لها، بل لأننا نريد أن نجد العزاء في الانتقام، ولذلك نطلب منك لحظة حياة.

استجاب الراهب بعد هذا لرجائه، فوضع عشبة معينة فوق فم الجثة وعشبة أخرى فوق صدرها، ثم اتجه نحو الشرق وراح يصلي لجلالة الشمس المتنامية، فأثر ما أظهره من عبادة أبهة كبيرة في نفوس الحاضرين، وجعل كل واحد منهم أكثر توقعا من الآخر لحدوث المعجزة.

اختلطت بالجمهور بصفتي أحد الشهود، ووقفت فوق صخرة مرتفعة إلى حد ما خلف النعش، فاستطعت من فوقها أن أراقب كل شيء بعينين فضوليتين. عندئذ بدأ الصدر يعلو منتفخا، والشريان ينبض بقوة، والجسم يمتلىء بالنفس! فنهضت الجثة واعتدلت في جلستها، وقالت:

ـ أخبروني، رجاء، لماذا أعدتموني إلى الحياة بعد أن شربت ماء اللثي (نهر النسيان في الجحيم) وغطست في سبخة ستيكس. لماذا استدعيتموني لأداء وظيفة في حياة مرحلية؟ ابتعدوا عني، أرجوكم، ابتعدوا ولا تفسدوا علي راحتي!

كان هذا الصوت قد صدر عن الجثة، ولكن الراهب أخذ يقول في ثورة متزايدة نوعا ما:

ـ ألا تريد أن تحدث الناس عن أسرار موتك دون إبطاء؟ أم تراك تعتقد أن أعمالي السحرية لا تستطيع أن تحضر جنيات الجحيم ليعذبن أعضاءك المرتخية؟

فخاطب الجمهور من نعشه، وهو يتنهد بعمق، قائلا:

ـ إن الرقى المؤذية، التي أعدتها زوجتي الجديدة، هي التي قتلتني. لقد حكمت علي بتناول كأس السم حتى يفرغ فراشي الوثير لعشيقها.

وعندئذ بلغت قلة الحياء بالزوجة الفاضلة حدا، جعلها ترد على زوجها بحماقة، وتبادله الرأي بجرأة. فاختلفت آراء الجمهور، فأخذ بعضهم يطالب بدفن المرأة الخليعة حية إلى جانب جثة زوجها في الحال، ورفض بعضهم الآخر التصديق بما اخترعته الجثة من أكاذيب.

وفي غمرة هذه الحيرة حسم الموقف بحديث آخر للشاب، الذى عاد يقول وهو يتنهد بشكل أعمق:

ـ سأبرهن لكم، أجل سأبرهن لكم بصورة واضحة على صحة ما أقوله، وسأخبركم بما لم يعرفه أحد.

وأضاف وهو يشير باصبعه إلي:

ـ عندما كان هذا الشاب الحاد النظر يحرس جثتي حراسة ممتازة، طمحت الساحرات العجائز إلى الحصول على جسدي، واتخذن عدة أشكال، ولكنهن لم يستطعن أن يخدعن يقظته. وفي النهاية ألقين سحابة من النوم فوقه، وحين نام كالميت، أخذن يناديننى باسمي إلى أن تحركت مفاصلي المتصلبة، وأعضائي الباردة في كسل، فحاولت النهوض خضوعا لمفعول السحر، إلا أن هذا الرجل، الذى كان على قيد الحياة، وإن كان في نومه يشبه الميت، كان يشترك معي في الاسم، فقام عندما ذكر اسمه دون أن يعرف حقيقة الأمر، وأخذ يسير منقادا كظل لا حياة فيه، ومع أن باب الغرفة كان مغلقا، فقد قطعت الساحرات أنفه أولا، ثم أذنيه عبر ثقب الباب، فتحمل هذا العذاب نيابة عني، وألصقن له، لتقوية المظهر الخادع، شمعا يشبه الأذنين المقطوعتين كل الشبه وأنفا شبيها بالأنف الحقيقي. وها هو الرجل المسكين هنا، وقد كانت مكافأته ـ بدل الشكر له على إخلاصه في عمله ـ تشويهه!

عندما سمعت هذا، رفعت يدي مندهشا إلى وجهي لأتأكد من هذا الأمر. تلمست انفي فانفصل، وسحبت أذني، فانقطعتا! وحين أخذ الحاضرون يشيرون إلي باصابعهم وغمزاتهم من فوق الأكتاف، فررت من بين أقدام الواقفين وأنا أتصبب عرقا. ولم أستطع فيما بعد ايضا العودة إلى وطني على هذه الصورة المشوهة المضحكة، ولكني أخذت أمشط شعري من الجهتين إلى تحت لأخفي أذني، وألصقت قصاصة من القماش بشطل متين في مكان الأنف المشوه. "

وما أن انتهى تيليفرون من رواية حكايته، حتى انفجر الشاربون، الذين كانت الخمر قد لعبت برؤوسهم، ضاحكين، وبينما كانوا يشربون نخب إله الضحك، قالت لي بيريهينا:

- هناك عيد يقام في هذه المدينة منذ إنشائها، سيحل موعده غدا. في هذا العيد نتوسل، ونحن الوحيدون في العالم، إلى إله الضحك المقدس عن طريق التقاليد السارة والعادات البهيجة ليصبغ علينا نعمه. وحضورك هنا سيجعل هذا العيد أكثر متعة بالنسبة إلينا. فأرجوك أن تفكر في شيء ما مسل من إبداعك الخاص تقربا إلى الإله حتى نتمكن من تقديم قرباننا بصورة أفضل وأكثر تنوعا.

فقلت لها:

- طيب. أمرك، يا سيدتي. يعلم الإله أنني أردت أن أجد موضوعا يليق بهذا الإله العظيم.

وفي تلك اللحظة ذكرني خادمي بأن الوقت قد مضى منه الكثير، فنهضت في الحين، وكنت أشعر بصعود الخمر إلى رأسي، وحييت بيرهينا بسرعة، ومضيت إلى البيت بخطى مترنحة.

وحين أخذنا نعبر الزقاق الأول، أطفأت الريح فانوسنا، الذى كنا نعتمد عليه، فكان علينا بعد ذلك أن نتلمس طريقنا في الليل البهيم بمشقة، فاصطدمت أصابع أرجلنا بالحجارة، ووصلنا في النهاية إلى منزلنا بعد أن نال منا التعب والوهن. وبينما كنا نقترب منه وذراعانا متشابكتان، إذا بثلاثة رجال أقوياء ذوي أجسام هائلة يهاجمون باب بيتنا بكل قوة دون أن يزعجهم وصولنا، بل راحوا يدفعونه عدة مرات، وكان الواحد منهم أقوى من الآخر، مما حملنا، بل مما حملني أنا بشكل خاص، على التفكير في أنهم لصوص، لصوص من أسوإ الأنواع. وفي الحين سللت سيفي، الذى كنت قد

أخفيته تحت ردائي، وكنت جلبته معي لمثل هذه المناسبة، وشرعته وهويت به دون تردد بينهم، ورحت أطعن الواحد بعد الآخر حسب الطريقة، التي أتمكن بها منه أثناء المعركة، إلى أن امتلأت أجسادهم في النهاية بالجراح الكثيرة الواسعة، ولفظوا أنفاسهم أمام قدمي. وحين فتحت فوتيس الباب بعد هذه المعركة، وكانت قد استيقظت على الضجة، تسللت إلى الداخل مبهورا العرق يتصبب من جسمي. وارتميت في الحال ـ لأن المعركة مع اللصوص كانت قد أتعبتني، كأني قد قتلت المارد غيريونيس (المارد الذى قتله هيركوليس) ـ فوق فراشي واستسلمت للنوم.

الكتاب الثالث

كانت أرورا (ربة الفجر) قد صعدت إلى السماء، وهي تهز يديها الورديتين فوق عربتها الأرجوانية، عندما وجدتني قد انتزعت من نومي الهادئ وسلمني الليل إلى النهار الجديد. كان الهم يداهمني كلما تذكرت معركة ليلة الأمس. كنت قد ثنيت رجلي، وأخذت أحرك أصابعي فوق ركبتي، وأنا مكوم فوق فراشي، أبكي بدموع غزيرة، فقد كنت أرى السوق والقاضي ثم الحكم، وفي النهاية أرى الجلاد نفسه أمام عيني. "أتراني سأقع على قاض يتسم بالرفق وحب الخير، فيحكم ببراءتي، أنا الذي لطخت يدي بدماء ثلاثة رجال وعلقت بي دماء عدد كبير من المواطنين؟ أهذه إذن هي الرحلة الرائعة، التي بشرني بها ديوفنيس الكلداني؟" كنت أردد هذا مع نفسي مرة ومرة وأندب حظي السيء. وفي أثناء ذلك دق باب البيت، وكان الصياح يغمر الباب الخارجي. فاندفع من الباب المفتوح سيل من المواطنين مع خدمهم، فامتلأ البيت بهم وبخليط من الناس من مختلف الأنواع. وألقى محضران علي القبض في الحال بناء على صدور أمر من المأمور القضائي، وبدآ في جري دون مقاومة مني طبعا. حين وصلنا إلى الزقاق الأول، اندفعت الجماهير إلى الشارع، وأخذت جموعها تجري وراءنا. ومع أنني كنت قد أحنيت رأسي إلى الأرض، بل إلى الجحيم، وأخذت أضع قدما أمام أخرى في حزن، فقد لاحظت، حين نظرت شزرا، شيئا غريبا، وهو أنه لم يوجد واحد منهم ضمن موجة كل هذه الآلاف لم ينفجر ضحكا!

وبعد أن قطعوا بي الشوارع الرئيسية كلها على هذه الصورة، وكنت أنا بمثابة الضحية التكفيرية، التي يطاف بها حول السوق من أجل تطهير العلامات المرعبة المنذرة بالسوء، وطافوا بي المدينة كلها، وصلوا بي إلى ساحة المدينة، إلى المحكمة. كان الموظفون الكبار قد جلسوا فوق المنصة، وكان الداعي قد طالب بالتزام الهدوء، ولكن الجميع أخذوا فجأة يطالبون بأن تنقل محاكمة مهمة كهذه إلى المسرح نظرا لكثرة الناس وتعرضهم للخطر في هذا الازدحام الكثيف. وفي لحظة واحدة انطلق

الشعب بسرعة خارقة إلى المسرح واحتل مقاعد النظارة به. وامتلأت المداخل كما امتلأ السقف بالمشاهدين، وتعلق الكثير منهم بالأعمدة، وجلس بعضهم فوق التماثيل والنوافذ والكوى ـ ولما لهم من حرص على النظر، لم يفكر أحد منهم في الخطر! وبعد ذلك قادني خدم المحكمة عبر دهليز المسرح كالضحية وأوقفني وسط المكان المخصص للجوقة.

وعاد الداعي ينادي بصوته الصاخب ويدعو المتهم، فنهض رجل عجوز، ووضع الماء في إناء يشبه الغربال، له قصبات صغار، يقطر منها الماء (ساعة مائية)، لقياس مدة الخطبة، التي سيلقيها، وقال:

ـ إنها لقضية مهمة، أيها المواطنون الكرام، تهدد أمن السكان جميعهم أكثر من غيرها، يمكن أن نتخذها عبرة لنا جميعا. ولذلك فإن عليكم أن تحرصوا كلكم، أفرادا وجماعات وبصفتكم أناسا طيبي السمعة، على ألا يظل مجرم بغيض، ارتكب جريمته بطريقة دموية شنيعة واستحق أن يعاقب بالطريقة، التي قتل بها ضحاياه، بمنجاة من العقاب. ولا يتصورن أحد منكم أن هناك عداوة خاصة وكراهة شخصية تدفعني إلى هذه النقمة! فأنا المكلف بالحراسة الليلية، ولا أعتقد أن هناك شخصا ما استطاع حتى يومنا هذا أن يجد ما يآخذني به على تقصيري في الحراسة. لذلك سأروي هذه الحادثة نفسها وما جرى في الليل كما وقع في حقيقة الأمر. لقد تفقدت، في الحراسة الثالثة على التقريب (حوالي منتصف الليل) خلال دوريتي، كل أنحاء المدينة بعناية متناهية متنقلا من باب إلى آخر. وفجأة شاهدت كيف أخذ هذا الشاب السفاح يقتل بسيفه المسلول يسرة ويمنة وكيف سقط ثلاثة رجال ضحية ثورته ولفظوا أنفاسهم في بركة من الدم أمام قدميه. أما هو نفسه فقد فر هاربا بعد أن شعر بجريمته الشنيعة واعتراه الاضطراب المتوقع في حالة مثل حالته هذه، واختفى تحت حماية الليل في أحد البيوت، وقضى فيه ليلته كلها، ولكنني، بفضل العناية الإلهية، التي لا تترك المجرم ينجو من العقاب، كمنت له في الصباح الباكر، قبل أن يتمكن من الفرار بطريقة سرية، وأحضرته إلى المحكمة العليا لترى رأيها في العقوبة التي يستحقها. لقد ارتكب هذا المتهم، الذى يقف أمامكم، عددا من جرائم القتل، وألقي عليه القبض وهو متلبس بالجريمة. إن المتهم أجنبي، لهذا فليكن صدور حكمكم على هذا الرجل الأجنبي دون تردد إذن، وانزلوا به العقاب الذى كنتم ستنزلونه بصرامة بأي مواطن من مواطنيكم.

وبعد هذا الخطاب انقطع المتهم عن كلامه الغاضب، وأمرني الداعي في الحين ا، ابدأ ردي إن كان لدي ما أرد به عليه. لكني لم أكن في تلك اللحظة قادرا على شيء ،،ر البكاء. يعلم الإله أنني لم أكن أبكي لتلك التهمة المريبة بقدر ما كنت أبكي ا،سميري البائس. مع ذلك انتابتني في يأسي شجاعة من وحي الإله، فأجبت قائلا:

- إني لأعرف بدوري مقدار الصعوبة، التي يجابهها المتهم بالقتل، حين تعرض ثلاث جثث من جثث المواطنين، ولو هو قال الحق كل الحق واعترف بجريمته، - في إقناع المجلس ببراءته. ولكن إذا سمحت عدالة الرأي العام بالاستماع إلي قليلا، فإنه سيكون من السهل علي أن أبرهن لكم على أنني لا أقف أمام المحكة الجنائية لذنب ارتكبته، وإنما نتيجة عرضية لاستياء طبيعي، يدعو - دونما سبب - إلى عنصرية في هذا النوع. فعندما عدت من وليمة عشاء إلى المنزل في وقت متأخر نوعا ما - وكنت قد شربت قليلا، ولا أنكر أن الشرب هو جريمتي الحقيقية - لمحت هناك أمام مسكني - فأنا أسكن عند مواطنكم الفاضل ميلو، - عددا من اللصوص الجسورين يحاولون خلع مفاصل الباب للدخول إلى البيت، وكانوا قد نزعوا الأقفال كلها رغم أنها كانت محكمة الصنع، وأخذوا يتحدثون عن قتل سكانه. وأخيرا بدأ أحدهم، وكان أقواهم وأطولهم قامة، يشجعهم ويقول لهم:

- هيا يا أولاد، كونوا كالرجال شجاعة وثبوا على النائمين بقوة. انزعوا من صدوركم كل تردد وتخاذل! يجب عليكم أن تجهزوا على من في البيت كلهم بسيوفكم اللماعة! أقتلوا من يغط في نومه، واقضوا على من يهم بالمقاومة! فلن تكتب لنا النجاة إلا إذا نحن قضينا على كل من في البيت! أعترف، أيها الجمع الكريم، أنني هاجمت هؤلاء اللصوص - وقد اعتبرت ذلك من واجب المواطن الصالح، ثم إني كنت خائفا على مضيفي بقدر ما كنت خائفا على نفسي - هامتهم بسيفي، الذى كنت أحمله معي تحسبا لمثل هذه الأخطار، لأخيفهم وأفرق شملهم، ولكنهم، وهم همج ومردة حقيقيون ، لم يهربوا وتصدوا لمقاومتي بقوة وعنف، مع أنهم رأوا سلاحي. وتكونت جبهة قتال، فهاجمني القائد ورئيس العصابة بشدة، فمسكني بكلتا يديه من شعري، وحاول أن يثني جسمي إلى الخلف ويقتلني بحجر. وبينما صاح " إلي بحجر! "، طعنته بسيفي بيد ثابتة ونجحت في إسقاطه أرضا. وطعنت آخر، كان قد غرز أسنانه في رجلي، في ظهره. أما الثالث فقد طعنته في صدره حين هاجمني دون أن يحمي نفسه من سيفي. وعندما عاد الهدوء إلى نصابه، وضمنت الأمن لمضيفي ولجميع الناس، لم أكن أتصور أنني أستحق العقاب بقدر ما كنت أتصور أستحق المكافأة والثناء على

عملي هذا. فأنا لم توجه لي تهمة قط، ولو كانت تهمة صغيرة، وكانت لي دائما سمعة طيبة في وطني، وكنت أفضل نقاء ضميري ونزاهته على أي كسب من أي نوع كان. ولا أستطيع حتى الآن أن أدرك كيف توجه لي هذه التهمة وأحاسب على أنني دافعت عن نفسي دفاعا شريفا ضد اللصوص. هذا مع أنه لا أحد يستطيع أن يثبت أنني كنت أحمل لهم عداوة شخصية أو حتى أنني كنت أعرف أولئك الصوص معرفة سابقة. فعلى من يتهمني إذن أن يبين لي أقل غنيمة تبرر ارتكاب جريمة من هذا النوع وتحمل على التصديق بها.

وبعد أن ألقيت هذه الكلمة، انهمرت دموعي مرة أخرى، ومددت يدي وتوسلت إلى هذه الجماعة طورا، وإلى تلك الجماعة طورا آخر بعاطفتها الإنسانية وبحبها لأطفالها أن تمنحني رحمتها وعفوها. وحين تصورت أنني قد حركت قلوب الناس، وأنهم تأثروا لبكائي، ناديت عين الشمس والعدالة ليشهدا على ذلك وتركت أمري للعناية الإلهية، وما أن رفعت عيني قليلا، حتى رأيت الجمهور كله يضحك ضحكا عاليا. ورأيت الفاضل ميلو، مضيفي ومنعمي، يضحك هو الآخر ولا يستطيع أن يتمالك نفسه. وعندئذ قلت لنفسي: " هذه هي الثقة! وهذه هي الاستقامة! لقد وجهت إلي أنا تهمة القتل، لأني أنقذت حياة مضيفي. أما هو فلم يكفه أنه لم يقدم لي كلمة مواساة عما أتعرض له الآن من محاكمة، وإنما راح فوق ذلك يضحك من مصيري! "

وفي أثناء ذلك دخلت امرأة إلى المسرح راكضة، وأخذت تبكي وتولول، وهي ترتدي السواد وتحمل طفلا بين ذراعيها، وخلفها امرأة أخرى في أسمال بالية، وكانت هي الأخرى تبكي وتنتحب، وكانت كل منهما تحمل أغصان الزيتون في يدها. ووقفتا قرب النعش، الذى وضعت فوقه جثث القتلى، وبدأتا تبكيان وتعولان:

ـ نسحلفكم بالرحمة التي يستحقها كل فرد، وبالحق الذى يطلبه الإنسان من الإنسانية، أن ترحموا الرجال الذين قتلوا ببشاعة وأن تجعلوا من الإنتقام عزاء لنا! ساعدوا على الأقل هذا الطفل الذى أصبح يتيما في سنواته الأولى، ودعوا دم قاطع الطريق هذا يسيل حتى تجعلوا لقوانينكم وقواعدكم العامة اعتبارها.

قامت بعد ذلك شخصية رسمية وخاطبت الجمهور قائلة:

ـ إن الجريمة الحقيقية، التي يجب أن نثأر لها بجدية، لا يستطيع أن ينكرها المجرم أيضا، إلا أن هناك نقطة واحدة، علينا بعد أن نحمل همها، وهي العثور على بقية من شاركوا في هذه الجريمة. فليس من المحتمل أن يكون رجل واحد قد قضى

بمفرده على ثلاثة شبان أقوياء. بناء على ذلك فإننا لن نصل إلى معرفة الحقيقة إلا باستعمال آلة التعذيب. ذلك أن هذا الفتى، الذى كان يرافقه، قد فر خفية، وقد وصل الأمر الآن إلى حد، يجب علينا عنده أن نعذبه حتى يكشف لنا عن أسماء شركائه في الجريمة، وينتهي خوفنا من هذه العصابة دفعة واحدة.

ونفذ ما قرره في الحين، فأشعلت النار، وحملت العجلات على الطريقة اليونانية، وأحضرت كذلك أنواع من الأسواط، فازداد حزني، بل تضاعف، على أن تكون ضاعت علي فرصة أموت فيها وأعضائي سليمة. غير أن تلك العجوز، التي كان بكاؤها سببا في تفاقم الأمر كله، صاحت:

ـ أيها المواطنون الكرام! قبل أن تشنقوا هذا اللص، الذى قتل ابني المسكين، عليكم أن تكشفوا عن جثث القتلى! فعندما ترون شبابها وجمالها، تزداد نقمتكم العادلة، وتقدرون العقاب، الذى يلائم لحجم الجريمة.

صفق الجمهور لاقتراحها هذا، فأمرني المأمور في الحين أن أرفع بنفسي الغطاء عن الجثث، التي كانت موضوعة فوق النعش، وعندما قاومت ورفضت أن يتم عرض الجريمة المرتكبة مرة أخرى، مسك بي المحضرون بشدة، وسحبوا يدي من جانبي، ووجهوهما بالقوة نحو الجثث ـ سحقا لهم! وغلبت على أمري في النهاية، واستسلمت لما لم يكن منه بد. فرفعت الغطاء رغما عني وكشفت عن الجثث. يا إلهي! يا له من منظر! أية معجزة! يا لهذا التغير المفاجيء في مصيري! لقد شعرت، أنا الذى كنت قد أصبحت ملكا لبروسربينا، إلهة العالم السفلي، ومن أتباع أوركوس إلهه ـ شعرت فجأة بالدهشة والبلادة، حين وجدتني في حالة أخرى معاكسة، وكنت عاجزا عن التعبير عن وضعي الجديد بالكلمات المناسبة. لقد تحولت جثث القتلى إلى ـ قرب منتفخة، وقد أحدثت بها ثقوب مختلفة، تمثل ـ على قدر ما أتذكر من معركة الأمس ـ تلك الجروح، التي ألحقتها بأولئك اللصوص!

عندئذ تعالت الضحكات، التي كان بعض المجان قد كتموها، بين الجمهور في حرية تامة. فأخذ بعضهم ينعق من شدة المرح، وراح بعضهم الآخر يمسكون بطونهم من الآلام المتسببة عن الضحك. وفي غمرة هذا المرح والتسلية العامة، تركوا المسرح، وهم يلتفتون إلي. أما أنا فقد كنت لا أزال أمسك بطرف الغطاء متحجرا مشدوها، لم يكن هناك ما يجعلني أختلف عما كان في المسرح من أعمدة وتماثيل. ولم أعد من الجحيم إلا عندما اقترب مني مضيفي ميلو، ووضع يده فوق كتفي،

وسحبني - رغم مقاوتي وبكائي ونحيبي المريع - معه في رفق. وقادني إلى البيت بعناية عبر الشوارع الخالية، وبدأ - لأني كنت منكسر النفس، ولا أزال أرتعد - يقدم لي أنواعا من المواساة، ولكنه لم يستطع بأية حال من الأحوال إزالة الظلم الذى لحق بي واستقر في أعماقي.

ووصل إلى البيت قضاة المحكمة أنفسهم مع مساعديهم على نحو لم يكن متوقعا، وحاولوا أن يهدئوا من روعي بالكلمات التالية:

- لسنا نجهل مركزك ولا مركز أسرتك، أيها السيد لوكيوس، فقد تجاوزت شهرة أسرتك الإقليم كله. وما حدث لك وجعلك هكذا تزفر من أعماقك ليسي فيه ما يسيء إلى سمعتك على أية حال. فخفف الهم عن صدرك إذن، واطرد الحزن عن قلبك! فهذه التسلية، التي نمارسها في وقت محدد ونحتفل بها سنويا باسم الدولة تمجيدا لإله الضحك الخلاب، يدفعنا إلى اختراع أشياء جديدة في كل مرة.

إن هذا الإله سيرافقك بصفتك شاعره وممثله إلى كل مكان تتجه إليه ويعاملك بلطف ورفق، ولن يدع الحزن يكسر قلبك أبدا، بل سيحاول دائما أن يجعل جبينك يأتلق بشرا. لقد اعترفت الآن المدينة كلها بفضلك واتخذت قرارا بإكرامك أعظم إكرام. فقد جعلتك أولا مواطنا شرفيا، ووافقت ثانيا على إقامة تمثال معدني لك.

وأخذت الكلمة لأرد على هذا الخطاب، فقلت:

- يا أهل مدينة تساليا الشهيرة الفريدة، إنى لأعرف كيف أقدم لكم شكري على هذه الحفاوة، ومع ذلك فإني أقترح عليكم الاحتفاظ بالصور والتماثيل لمن هم أولى بها مني!

وبعد أن تحدثت إليهم هكذا بتواضع، وابتسمت لهم في ود، وحاولت قدر الإمكان أن أبدو بوجه أكثر إشراقا، ودعت المأمورين عند انصرافهم. بعد ذلك دخل فجأة أحد الخدم مسرعا، وقال لي:

- إن أمك بيرهينا تطلبك وتذكرك بأن مأدبة العشاء، التي وعدت أمس بحضورها قد حان وقتها.

فأجبته - وكنت خائفا وكان مجرد التفكير في منزلها يرعبني - قائلا:

- أخبر أمي العزيزة أنه كان بودي أن أستجيب لأوامرها، لو أن ذلك كان سيتم دون

أن أخل بالتزاماتي. فقد أقسم لي مضيفي ميلو باسم الإله، الذى يعمر اليوم وجوده كل مكان، فاضطررت إلى الاستجابة إلى دعوته إياي لتناول طعام العشاء عنده. وقد لزم جانبي ولم يدعني أنصرف عنه. لذلك فلنأجل العشاء المتفق عليه إلى وقت آخر.

وبينما كنت أتحدث هكذا، مسكني ميلو بيده بشدة، وأمر أحد الأشخاص بإحضار أدوات الغسل، وقادني في التو إلى أقرب حمام. وكنت أسير إلى جانبه ملتصقا به، أتجنب كل النظرات وأبتعد عن ضحك من ألتقى بهم، وكنت أنا نفسي السبب في ذلك الضحك. ولا أذكر كيف استحممت ونشفت الماء عن جسدي، ولا كيف عدت ثانية إلى البيت، لأن الحياء الشديد أنساني في كل ذلك. كنت خارجا عن طوري، مشدوها إلى هذه الدرجة، فقد كان الجميع يتغامزون علي ويشيرون إلي بأصابعهم.

تناولت بسرعة ما قدمه لي ميلو من طعام تعيس، وتذرعت بصداع ناتج عن الدموع التي ذرفتها، فسمح لي بالذهاب إلى فراشي. فارتميت فوقه، ورحت أستعيد في ذهني، وأنا أعاني الحزن والشجن، ما حدث لي بكل تفاصيله، إلى أن حضرت فوتيس، بعد أن هيأت سيدتها للذهاب إلى فراشها، وكانت تبدو على غير عادتها. لم تكن البهجة تلوح على محياها، ولا كانت تبدو عليها الرغبة في الكلام - بل كانت الغضون العميقة في جبينها قد خلعت عليها تعبيرا جادا، وأخيرا قالت بعد تردد ورهبة:

- أعترف أنني كنت أنا نفسي سببا فيما ألم بك من متاعب!

وأخرجت من جيبها حزاما جلديا، وقدمته لي، وأضافت قائلة:

- أرجوك! خذه واضرب به هذه المرأة الخائنة، بل عذبها ما طاب لك ذلك! على أنني أتوسل إليك ألا تتصور أنني أوقعتك في هذا المأزق عن عمد. فليحفظك الإله من أي مكروه يصيبك بسببي. وإذا ما تجمع فوق رأسك شيء لا ترضاه، فليكن علي أنا أن أدفع دمي ثمنا له. كان علي أن أفعل شيئا لغرض آخر، لكن سوء حظي أراد أن تكون عاقبته وخيمة عليك أنت.

ثار فضولي عندئذ، فأردت أن أعرف أسباب ما حدث لي معرفة تامة، فأجبتها:

- ينبغي لي أن أقطع هذا الحزام الجلدي الملعون، الذى وقع عليه اختيارك لأجلدك به، وأن أمزقه تمزيقا قبل أن ألمس به زغب بشرتك البيضاء! لكني أطلب منك أن تروي لي ما حدث بأمانة. ماذا كان عليك أن تفعلي؟ كيف حول سوء حظك ما فعلته إلى كارثة حلت بي أنا ؟ أقسم لك برأسك، الذي أعزه فوق كل شيء، أنني لن

أصدق أحدا، ولو أنك أكدت لي ذلك بنفسك، بأنك كانت لك يد فيما وقع لي! ثم إنه لا مجال للحديث عن الذنب على الإطلاق، حين لا يفكر المرء في القيام بعمل سيء، ينتهي أمره بمحض الصدفة نهاية خاطئة أو حتى محزنة.

وما أن انتهيت من هذه الكلمات، حتى أخذت أمص عيني فوتيس، اللتين كانت نديتين راعشتين مثقلتين بالرغبة ونصف مغمضتين، وأنا أتمنى أن أخرجهما من محجريهما. عندئذ عاودتها البهجة من جديد، وقالت لي:

ـ دعني أولا، إذا سمحت، أغلق باب الغرفة، حتى لا ينتشر الحديث بين الناس بسرعة وأكون سببا في حدوث مصيبة.

غلقت الباب بالمزلاج، ووضعت القفل في مكانه بقوة، ثم عادت إلي، وأحاطت عنقي بذراعيها، وقالت بصوت خافت:

ـ إنه ليرعدني ويهز أوصالي أن أكشف عما يخفيه هذا البيت وأبوح بأسرار سيدتي الخفية، غير أنني أضع ثقتي فيك وفي ثقافتك، فأنت ملم بعدد من العبادات السرية وعلى علم بواجبات الكتمان التام. هذا فضلا عن أنك تنحدر من أسرة راقية وتتمتع بمواهب عالية. عليك إذن أن تكتم في صدرك ما سأبوح به لك الآن، وأن تحتفظ به فيه بصورة دائمة، وأن تكافىء صدق ما أرويه لك ببقائك صامتا صمتا تاما. إن حبي الكبير لك يدفعني إلى أن أحدثك عما لا يعرفه أحد في العالم. ستعرف بعد حين نظام بيتنا كله، وتعرف أسرار سيدتي العجيبة، التي تستطيع بواسطتها أن تجعل الموتى يطيعونها، والكواكب تنحرف عن مسارها، وأن تسحر الأوراح، وتخضع العناصر. وهي لا تستعمل أبدا فنها السحري استعمالا كاملا مثلما تستعمله حين يسحر قلبها شاب جميل، وهو ما يحدث لها في أغلب الأحيان. وقد غرقت الآن حتى أذنيها في حب شاب بويتي، وراحت تضع حوله حبائل فنها السحري بكل جد ونشاط. وقد سمعتها مساء اليوم، أقول سمعتها بأذني هاتين، تهدد الشمس بالعتمة والظلمة الأبدية إن هي لم تختف من السماء بسرعة وتترك مكانها لليل، لتتمكن هي من القيام بأعمالها السحرية. كانت قد رأت هذا الشاب يوم أمس مصادفة أثناء عودتها من الحمام، حين كان هو جالسا عند الحلاق. لقد طلبت مني أن أجمع خفية شعره، الذى كانت الموسى قد قطعته وسقط فوق الأرض، وأحضره إليها. وبينما كنت أفعل ذلك خفية، وقع نظر الحلاق علي، فجرني بشدة، لأننا كنا معروفين مسبقا بممارسة الأعمال السحرية السيئة، وصاح في وجهي:

ـ أما آن لك أن تقلعي، أيها المرأة الدنيئة، عن اختلاس قصاصات شعور الشبان المحترمين؟ إذا أنت لم تقلعي في النهاية عن ذلك، فسأقودك إلى الشرطة في الحين!

ولم يكد ينتهي من ذلك، حتى أدخل يده في صدري وراح يبحث بها بين نهدي، ثم أخرج في غضب قصاصات الشعر، التي كنت قد أخفيتها في صدري. لقد أثارت هذه الحادثة حزنا شديدا في نفسي، لأني كنت أعرف أن سيدتي تثور ثائرتها عادة كلما فشلت في القيام بعمل من هذا النوع وتضربني ضربا مبرحا. لذلك فكرت في الفرار، ولكن حبي لك جعلني أعدل عن هذه الفكرة، وآخذ طريقي إلى البيت. لم أكن طبعا أريد العودة إلى البيت فارغة اليدين، فقد جمعت قصاصات من شعر الماعز، كانت مبعثرة فوق الأرض، رأيت شخصا يقصها بمقص صغير من قرب منتفخة، علقها بعد ذلك فوق الجدار ـ وكانت تلك الشعرات فاتحة اللون تشبه شعر البويتي تماما ـ وقدمتها مجموعة إلى سيدتي، دون أن أذكر لها الحقيقة. عند بداية الليل، وقبل أن تقوم أنت عن مائدة الأكل، صعدت بامفيلتي غاضبة إلى غرفة خشبية خارجية معرضة لتيار الهواء من كل الجهات ـ الجهة الشرقية وغيرها ـ يمكنها منها أن ترى كل شيء، وقد تعودت أن تقيم فيها خفية، لأنها أصلح مكان لأعمالها السحرية، فأعدت أولا مطبخها السحري الجهنمي وجهزته بمختلف الأجهزة من أعشاب متنوعة، وصفائح صغيرة مليئة بحروف مجهولة، وقطع من أنقاض السفن المحطمة، وأعضاء جثث كثيرة، أقيم مأتمها وتم دفنها: كانت هناك أنوف وأصابع، ومسامير مصلوبين لا تزال بقايا اللحم عالقة بها. وهناك في مكان آخر دماء قتيل حفظت، وأنقاض جماجم نزعت من أفواه الحيوانات المفترسة. بعد ذلك راحت تتلو عزائم على أمعاء يتصاعد منها البخار، وتصب الماء فوقها مرة، والحليب مرة أخرى، والعسل الجبلي مرة ثالثة، وأضافت إلى ذلك خمر العسل أيضا. ثم عقدت تلك الشعور وربطت بعضها ببعض، وضمختها بمختلف خلاصات السوائل، وألقت بالبخور فوق الجمر. حينئذ اتخذت تلك الأجسام، التي كانت شعورها تئز ويتصاعد منها الدخان بفعل قوة السحر التي لا تقهر والقدرة على استحضار الأرواح غير المرئية، حياة إنسانية، فأ صبحت تحس وتسمع وتتحرك وتسير في الاتجاه، الذى يحدده لها دخان جثمانها المحترق، وتثب، بدل الشاب البويتي، لاقتحام الباب رغبة في الدخول منه. تصور الآن أنك ـ سكران وسيفك مسلول في يدك مثل آياكس المسعور، لكنك لم تهجم مثله على الأغنام الحية وتجندل قطعانها كاملة، وإنما فعلت ذلك بشجاعة أكثر ـ قد قتلت قربا منتفخة من جلود الماعز! وهكذا أجهزت على أعدائك دون أن تريق قطرة دم. لهذا فإني لا أعانق

الآن رجلا اغتال أناسا، وإنما أعانق رجلا اغتال قربا!

ضحكت لدعابة فوتيس، وأجبت على دعابتها قائلا:

- يمكنني إذن أن أعد انتصاري الأول هذا بمثابة انتصارات هرقل الاثني عشر، فكما انتصر هو على غيريون (راعي المشية بجزيرة إروثيا قرب إسبانيا) ذى الأجسام الثلاثة أو كيربروس ذى الرؤوس الثلاثة دفعة واحدة، انتصرت أنا كذلك على القرب الثلاث مرة واحدة! ولكن إذا كنت تريدين حقا أن أغفر لك من كل قلبي الآلام، التي كنت أنت السبب فيها، فإني أطلب منك أن تستجيبي لرغبتي هذه، وهي أن تريني سيدتك عندما تقوم بعمل من أعمالها السحرية، عندما تستحضر الأرواح، أو على الأقل عندما تتهيأ لأعمالها هذه، حتى أشاهد ما تقوم به. إن لي رغبة شديدة في أن أرى أعمالها السحرية بعيني. أعتقد أن لك أنت نفسك تجارب وخبرات في هذه الأمور. إني لأعرف ذلك وأحس به بوضوح. ولئن لم يكن من عادتي أن أعاشر النساء المحترمات، فإنني الآن أعتبر نفسي طوعا ملكا لك أنت بعينيك المشعتين، ووجنتك الورديتين، وشعرك اللامع، وشفتيك الظامئتين، ونهديك الفاغمين. فالحق أني لم تعد لي رغبة في العودة إلى البيت، ولن أتهيأ للعودة إلى وطني، فلا شيء عندي يعدل ليلة أقضيها إلى جانبك.

فأجابت:

- كان بودي أن أحقق رغبتك، يا لوكيوس، ولكن سيدتي تعودت، فضلا عن سوء ظنها، ألا تقوم بمثل هذه الأمور السرية إلا في مكان منعزل وبدون حضور أي شاهد. وبالرغم من هذا سأحاول تلبية رغبتك، رغم ما في ذلك من خطورة، وأبذل جهدي بمجرد أن أجد الفرصة المناسبة لذلك. عليك الآن، كما قلت لك سابقا، أن تلتزم في هذه المسألة بالسرية التامة.

وبينما كنا نتحدث على هذا المنوال، رغب أحدنا في الآخر رغبة قوية، وانتصبت الأعضاء في آن واحد، فنزعنا ثيابنا كلها واحتفلنا هكذا عاريين بعيد ربة الجمال وإله الخمر. ولما نال مني التعب، تكرمت علي فوتيس من تلقاء نفسها بلذة إضافية على الطريقة الصبيانية، جعلت مسراتي تتجاوز حدودها. وبعدئذ غمر النوم عيوننا، التي لم تعرفه في الليل، ولم يبعدنا عن أحضانه إلا بعد فترة طويلة من طلوع النهار.

بعد أن قضينا معا ليالي كاملة من هذا النوع، جاءتني فوتيس ذات صباح ملهوفة

ومضطربة إلى حد ما، وأخبرتني أن سيدتها تريد ـ لأن أعمالها السحرية الأخرى لم تساعدها بعد على الوصول إلى معبودها ـ أن تتخذ في الليلة القادمة شكل الطير وتطير إليه. وطلبت مني أن أتهيأ بحذر لمشاهدة هذا الأمر خفية. وقادتني أثناء الحراسة الليلية الأولى بنفسها، وكنا نسير على رؤوس أقدامنا تجنبا لإحداث أية ضجة. وحين وصلنا إلى تلك الغرفة الخارجية، أمرتني بمراقبة العملية التالية عبر شق في الباب: لقد تعرت بامفيلة أولا، ثم فتحت صندوقا صغيرا، وأخرجت منه علبا كثيرة. رفعت غطاء إحدى العلب، وأخرجت منه مرهما، دعكته طويلا بين يديها، ثم دهنت به جسدها كله من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، وأخذت، بعد أن أجرت أحاديث سرية مع مصباحها، تهز أعضائها وتحركها كلها. وعندما راحت تتماوج بلطف، التمع زغب ناعم، ونما ريش قوي، وتصلب الأنف وانحنى، وانثنت المخالب معوجة، فتحولت بامفيلة إلى بومة! وأرسلت أنة صارخة، ووثبت عن الأوض قليلا على سبيل التجربة، ثم ارتفعت منشورة الجناحين وانطلقت إلى الفضاء.

لقد حولت بامفيلة نفسها طوعا، أجل حولت نفسها عن طريق فنونها السحرية الخاصة. أما أنا فقد شدهت، دون أن أرى استحضار الأرواح، لمجرد مشاهدتي لتلك الحادثة المجسدة، وتصورت أنني لست أقل مما يدل عليه اسمي لوكيوس! ذلك أنني لم أعرف ماذا حدث لي، وكنت قد خرجت عن طوري وكأنني مجنون، وخيل إلي أنني أحلم وعيناي مفتوحتان. ودعكت عيني لحظة، لأني كنت أريد أن، أعرف ما إذا كنت فعلا مستيقظا. وحين شعرت في النهاية بالأشياء حولي، مسكت يد فوتيس، ووضعتها فوق عيني وقلت لها:

ـ أرجوك، دعيني أنعم بثمرة حبك العظيمة الفريدة، طالما سنحت الفرصة بذلك، واحضري لي قليلا من ذلك المرهم ـ أقسم لك بهاتين العينين، اللتين هما عيناك، يا حبيبتي، وحققي لعبدك بهذه الطريقة رغبة سيظل مدينا لك بها أبد الدهر. اعملي الآن، يا جميلتي، على أن ظهر أمامك كوبيد مجنحا!

فأجابت:

ـ هكذا إذن؟ يا لك من ماكر **غيزبل**! أترتضي لي، يا حبيبي، أن أقطع بنفسي ساقي بالفأس؟ ليس من السهل علي أن أحمي بريئا مثلك من فاتنات تساليا، اللواتي لايتركن من الرجال غير العظام. فإذا ما أنت تحولت إلى طير ـ أين أبحث عنك، وأين أراك ثانية؟

قلت لها:

- فليحفظني الإله من ارتكاب جريمة من هذا النوع. فأنا حريص - ولو جبت الفضاء كله بأجنحة نسر أو كنت رسول رب الأرباب أو حامل أسلحته المرح - على أن أعود وشيكا بعد الحومان الرائع إلى عشي الدافيء! أقسم لك بعقد شعرك الجميل، التي شبكت بها أرواح حياتي، أنني لا أريد امرأة غيرك أنت، يا حبيبتي فوتيس! ثم إني تذكرت شيئا آخر، وهو أنني عندما أدهن جسدي بالمرهم وأرتدي رياش الطير، سأبتعد عن البيوت، التي يسكنها البشر. فالبوم يصبح عاشقا لطيفا حين يحظى بإعجاب السيدات! ونحن نرى مع ذلك أن الناس يقتنصون في خوف هذا الطائر الليلي، عندما يدخل بيتا من بيوتهم، ويسمرونه في الأبواب، لأن طيرانه المشؤوم ينذر الأسرة بموت أحد أفرادها، ومن ثم فإن عذابه يعتبر تكفيرا عن ذلك. كدت أنسى أنه أسألك عن هذا أيضا: ماذا يجب علي أن أقول أو أفعل لأتخلص من الريش وأعود إلى شكلي بصفتي لوكيوس؟

فقالت لي:

- اطمئن فيما يتصل بهذا الأمر، فقد أرتني سيدتي كل ما يعيد هذه الصور إلى شكلها البشري. لا ينبغي لك أن تتصور أنها فعلت ذلك إحسانا منها، وإنما فعلته حتى أستطيع مساعدتها بالوسائل الناجعة عندما تريد العودة إلى شكلها الأصلي. أنظر، ما أقل وما أتفه هذه الأعشاب، التي تعيد الأمر إلى نصابه: يقدم قليل من نبات **الشبت** أوراق الغار في الماء للإستحمام!

وأكدت لي ذلك أكثر من مرة، ثم تسللت في اضطراب كبير إلى الغرفة، وأخذت علبة من الصندوق الصغير، فأخذتها بين يدي وقبلتها، ثم توسلت إليها أن تمنحني أجنحة. بعد ذلك نزعت ثيابي كلها بسرعة، وأدخلت يدي في العلبة، وغرفت كمية معتبرة من المرهم، ودهنت بها جسمي. وأخذت أحرك ذراعي صعودا وهبوطا وأتمرن على طائر معين، - لم ينم لي زغب قط، ولا ظهرت لي ريشة واحدة! لكن شعري نما بشكل واضح وأصبح خشنا، وصارت بشرتي الناعمة طبقة سميكة من الشحم، وتجمعت أصابع يدي وقدمي ليتحول كل منها ببساطة إلى حوافر، وانبثق في أسفل ظهري ذيل عظيم. واتسع وجهي اتساعا كبيرا، واتسع فمي وسال إلى الأمام، وانفتح منخراي على مصراعيهما، وتكورت شفتاي، ونمت أ ذناي بشكل لا يعرف مداه، وقف شعرهما. ولم ألاحظ أثناء هذا التحول البائس شيئا يدخل العزاء على قلبي سوى أن

عضوي، حين لم يعد في وسعي أن أحتضن فوتيس، أخذ ينمو ويبرز. وعندما تأملت كل أعضائي في هذا الوضع اليائس، لم أر نفسي طائرا، بل رأيت نفسي - حمارا! وهممت بتوجيه الشتائم إلى فوتيس على ما فعلته بي، ولكني كنت قد فقدت حركتي وصوتي الإنسانيين. كل ما كان في استطاعتي أن أفعله، هو أن أنظر إليها جانبيا بعينين بليلتين، وشفتي السفلى مدلاة، وأقدم لها شكواي في صمت!

وما كادت تراني في هذا الوضع، حتى راحت تلطم وجهها بكلتا يديها في عنف وتصرخ:

- يا لي من تعيسة، لقد انتهى أمري! لقد أخطأت، من شدة الارتباك والعجلة معا، فخلطت بين العلب المتشابهة! إلا أن هناك لحسن الحظ دواء لهذا التحول: يكفيك أن تقضم الورد لتخرج من جلد الحمار وتعود إلى القيام بدورك بصفتك حبيبي لوكيوس! لو أني كنت قد جمعت لنا مساء اليوم كما هي عادتي بضع باقات جميلة، لما كان عليك أن تتذرع بالصبر مدة طويلة، ولو هي لم تتجاوز الليلة الواحدة! كيفما كان الأمر فإنك ستحصل على دوائك مع تباشير الصبح الأولي.

كانت تتحسر علي على هذه الصورة. أما أنا فقد احتفظت بعقلي البشري، مع أني كنت قد تحولت من لوكيوس إلى حمار نقل على أتم ما يكون! وفي النهاية أخذت أشاور نفسي فترة طويلة وبشكل مسهب فيما إذا لم يكن من واجبي أن أصك المرأة التافهة الملعونة بحافري وأقتلها عضا! إلا أني تخليت عن ذلك حين تبين لي أن إعدام فوتيس سيحرمني من هذا العلاج الفعال.

لذلك أحنيت رأسي وتركته يتأرجح، وكتمت ما كنت أحس به من حين لآخر من عار، وأذعنت لما حل بي من أذى، وذهبت إلى حصاني، إلى مطيتي الجريئة، في الاصطبل. فوجدت فيه حمارا آخر واقفا عند المعلف، هو حمار ميلو، مضيفي السابق. وكنت أعتقد أن حصاني، لو أنه كان للحيوانات العجماء إحساس عفوي وديع بالتضامن، سيتعرف علي ويرحمني ويمنحني مأوى فاخرا ويضيفني عنده. لكن وداعا لحقوق الضيافة المقدسة ولروح الصداقة الخفية! لقد اقترب حصاني الممتاز والحمار برأسيهما من بعضهما بعض واتفقا في الحين على القضاء علي. لقد كانا طبعا خائفين على علفهما، فما كادا يرياني أقترب من المعلف، حتى بسطا آذانهما إلى الخلف وانهالا علي بحوافرهما وكأنهما أصيبا بالجنون. وهكذا أبعدت قدر الإمكان عن الشعير، الذي كنت أنا نفسي قد وضعته مساء أمس أمام هذا الحصان،

الذى يعتبر نموذج المرؤوس الممتن!

لقد دفعتني هذه المعاملة إلى الانزواء في ركن من أركان الاصطبل. وبينما كنت أفكر في ذلك اليوم، الذى أصبح فيه، بمساعدة الورود، لوكيوس ثانية، وأعد العدة للانتقام من حماقة زميلي ومن حصاني الخائن، لمحت عند دعامة الوسط، التي تسند عارضة الاصطبل، صورة لإبونا، ربة الاصطبلات وحارسة الخيل، وهي جالسة في معبد صغير قد زين بأكاليل الورد الجديدة، فلاحت لي بذلك النجاة من حالة التعاسة، التي كنت فيها! فارتفعت على قدر ما سمحت لي به قائمتاي الأماميتان الممتدتان، وكلي أمل في الوصول إلى غايتي، وحاولت بعنقي وبشفتي المدببتين إلى أقصى حد ممكن أن أصل إلى أكاليل الورد الصغيرة، ولكني فشلت في مشروعي هذا، فقد لاحظني على حين غرة خادمي، الذى كان يعتني بالحصان بشكل منتظم، ووقف غاضبا يقول:

ـ حتى متى يجب علينا أن نحتمل هذا الحصان الهرم، الذى رغب أولا في علف المطايا وها هو الآن يرغب حتى في صورة الإلهة؟ ألا ينبغي لي أن أضرب هذا الذى يدوس حرمة المعابد ضربا مبرحا؟

وراح في الحين يبحث عن عصا، فوقع مصادفة على رزمة من الحطب، انتقى منها هراوة ذات أغصان، كانت أقوى من كل ما عداها، وانهال علي بها، ولم يمسك عن ضربي أنا التعس إلى أن تعالت الضجة، وكثر الصراخ أمام الباب، وأخذ الجيران يصيحون "امسكوا الصوص!" ففزع وفر هاربا.

فتح الباب بقوة في لحظة واحدة، ودخلت مجموعة من اللصوص واستولت على كل ما في البيت، وأحاطت بالبناية كلها شارعة أسلحتها. وبينما كان الناس يستغيثون هنا وهناك، حاول اللصوص أن يسدوا المسالك في وجوههم. فكانوا يضيئون الليل بسيوفهم الملتمعة ومشاعله المضيئة، التي كانت كأنها الشمس المشرقة. وبعد ذلك بدأت الفئوس القوية تعمل عملها في مخزن وسط البيت، غلقت أقفاله بإحكام كبير، كان ميلو قد حفظ كنوزه كلها فيه، فحطمته. وحين انفتح لهم، تناولوا منه الأشياء الثمينة كلها ووضعوها في رزم بسرعة واقتسموها فيما بينهم، إلا أن حجم الأحمال كان يتجاوز عدد الحاملين، وسببت لهم كثرة ما استولوا عليه حيرة كبيرة. وعندئذ أخرجونا نحن، الحمارين وحصاني، من الاصطبل، وحملونا أكثر الرزم ثقلا، وأخذوا يسوقوننا خارج البيت وهم يهددوننا بعصيهم، التي كانت تحوم فوق ظهورنا، وقد تركوا

حلفهم رفيقا لهم ليراقب ما سوف يتم من تحريات بشأن هذا الاعتداء، وينقل إليهم اخبار ذلك فيما بعد. لقد قادونا عبر طرق جبلية وعرة بسرعة كبيرة دون أن يتوقفوا عن ضربنا.

كان الحمل يثقلني، وكان الطريق الجبلي يزداد وعورة ولا يعرف النهاية، فلم يعد هنالك من فرق بيني وبين الجثة الهامدة. وعندئذ خطر ببالي ـ في تلك اللحظة فقط، وأنا جاد في هذا ـ أن أضع نفسي تحت حماية الدولة، وأن أتوسط باسم الحاكم المبجل، لأتخلص من متاعبي. عندما كنا أثناء النهار نجتاز قرية، كثرت فيها الحركة لإقبال الناس على سوقها، حاولت أن أنادي في غمرة الزحام باسم القيصر باللغة اليونانية الأهلية، وناديت بصوت واضح عال: "ياه!"، ولكني لم أستطع النطق بكلمة "قيصر!". ولم يعجب اللصوص صوتي المنفر، فأخذوا يضربونني من كل جهة، بحيث إن جلدي المسكين لم يعد صالحا حتى ليستعمل غربالا! ومع ذلك فقد منت علي السماء بغبطة لم أكن أتوقعها. ذلك أنني لاحظت عن بعد، حين كنا نمر قرب عدد كبير من الضياع والقصور، بستانا جميلا، تزدهر فيه نباتات جميلة خضراء، وورود يانعة تهتز في أنداء الصباح. فاقتربت منه، وأنا أتحرق شوقا إلى تلك الورود، وقد أربكني الأمل في تحقيق ذلك. وحين مددت شفتي المدبتين نحوها، التمعت بذهني فكرة أفضل بكثير، وهي أن اللصوص، إن أنا نزعت عني جلد الحمار ووقفت أمامهم بصفتي لوكيوس، سيقتلونني ضربا دون شك، إما بتهمة السحر أو خوفا من رفع شكوى ضدهم! من أجل ذلك تنازلت عن الورود، وقد كنت مجبرا على ذلك، واستسلمت لمصيري وأخذت ـ بصفتي حمارا حقيقيا ـ آكل التبن!

الكتاب الرابع

في منتصف النهار تقريبا، حين أصبحت حرارة الشمس محرقة، نزلنا في إحدى القرى عند عجوزين، كانت لهما علاقة صداقة بقطاع الطرق، وفي وسع الحمار نفسه أن يستنتج هذا من التحية الأولى ومن الحديث المطول والقبل المتبادلة. لقد قدموا لها بعض الأشياء، كانوا قد أخذوها من فوق ظهري، وكان يبدو عليهم أنهم يشيرون من خلال الهمس إلى أنها من غنيمة قطاع الطرق. ونزعوا عنا بعد ذلك كل الأثقال، وحررونا لنرعى كما يحلو لنا في المروج المجاورة. على أنني أنا لم يكن يحلو لي أن أرعى مع الحمار أو مع حصاني رأسا إلى رأس، لأني لم أكن قد تعودت على أكل العشب الأخضر. لذلك اندفعت، وأنا أكاد أموت جوعا، إلى حديقة لمحتها خلف الإصطبل، ورحت أملأ بطني بخضراوات نيئة، لكنها كانت على أية حال متوفرة بكثرة. وبينما كنت أوجه دعواتي إلى الآلهة كلها، كنت أجول بنظري في كل زاوية علني أجد في مكان ما بالحديقة المجاورة حوضا من الورد الرائق. كانت الوحدة بالذات قد منحتني بعض الأمل والثقة، وكنت أود أن أتناول الدواء في الدغل وانتصب ثانية دون شاهد عيان من مشيتي على أربعة حتى أكون إنسانا بدل أن أكون حيوانا.

وبينما كنت أرتج فوق هذا البحر من الأفكار، رأيت في مكان قريب منخفضا وارف الظلال، تزهو فيه ورود ذات ألوان برتقالية وسط حشائش وأعشاب مختلفة. وفي الحين خطر بذهني، الذي لم يكن ذهن حمار تماما، أن هذا الحقل مقدس عند فينوس وإلهات الجمال، في ظلامه الغامض تزهو ملكة الأزهار هذه. وعندها ناديت طالعي الجيد، وعدوت بسرعة بالغة خيل لي معها أنني تحولت حقا من حمار إلى حصان سباق. إلا أن هذا الاندفاع الرائع لم يستطع أن يحول بيني وبين سوء طالعي. فحين وصلت ذلك المنخفض، لم أر تلك الورود اللطيفة الناعمة ذات الرحيق والأنداء الإلهية، التي تنمو عادة في الأدغال والأشواك المباركة، لم أر في أي مكان منخفضا - بل رأيت ضفة نهر تنتصب فوقها أشجار متشابكة. كانت أشجارا ذات أوراق طويلة تشبه أوراق

الغار، وكأنها أزهار طيبة الرائحة، تحمل براعم مستقيمة لها ألوان أرجوانية زاهية، لا رائحة لها يطلق عليها العامة اسم ورود الغار، يقتل تناولها كل أنواع الحيوانات.

حين وجدت نفسي في شبكة مقادير من هذا النوع، أصبحت لا أبالي بحياتي، وعزمت على تناول هذه الورود السامة طوعا واختيارا. ولما اقتربت منها لأقطفها، ظهر لي رجل، خمنت أنه البستاني، الذى كنت فعلا قد دمرت خضراواته كلها. وما كاد يلاحظ ذلك الضرر، حتى اندفع نحوي، وبيده هراوة كبيرة، وأخذني، وهو غاضب، وراح ينهال علي ضربا من الأمام إلى الوراء بحيث أصبحت حياتي معلقة بشعرة، لو أنني لم أساعد نفسي في النهاية على وجه معقول. ذلك أنني رفعت كفلي، ودفعت بحافري الخلفيين نحوه عدة مرات. وبعد أن أصبته إصابة بالغة وطرحته أرضا، فررت نحو المنحدر القريب. وفي لمحة البصر اقتربت منه امرأة، هي زوجته طبعا، وكانت قد رأته من فوق طريحا نصف ميت، وأسرعت إليه وهي تضج بالشكوى. ولعلها فعلت ذلك ليشفق الناس عليها ويقضوا علي. لقد سمع الفلاحون عويلها، فنادوا كلابهم في الحال وأشلوها علي لتهاجمني وتمزقني. وبذلك تأكدت من الخطر المحدق بي، ولا سيما عندما لمحت كلابا كثيرة قادرة على مهاجمة السباع والدببة قد دعيت للانقضاض علي. لكني عرفت كيف أستفيد من هذا الوضع. لم أجنح إلى الفرار، بل رجعت عدوا إلى الإصطبل، الذى كنا قد حبسنا فيه. فجاء الفلاحون، الذين لم يستطيعوا الإمساك بزمام الكلاب إلا بصعوبة، وأخذوني وقيدوني إلى خرم قوي، وكانوا سيقتلونني بضرباتهم ثانية لو لم يتسع بطني، الذى ضاق بالضربات الموجعة ويشعر بالحصر بفعل الخضراوات النيئة، فراح يفرغ ما فيه، وكأنما كان يرسل ذلك من مدفع، ويرش هؤلاء بسائل كريه، ويغمر أولئك ببخار نتن، ويبعدهم عن جانبي اللذين تلقيا ضربات كثيرة.

ولم يدم الأمر طويلا، فقد اقتربت أشعة الشمس من الظهيرة، وأخرجنا اللصوص من الإصطبل، وقد أثقلونا بالأحمال على وجه خاص. وبعد أن قطعنا مسافة مهمة من الرحلة، وكان الطريق الطويل قد أرهقني، والحمل الكبير قد أثقل كاهلي، وضربات الهراوة القوية قد دمرتني، فصرت أعرج في سيري، اقتربت من جدول صغير تترقرق مياهه بلطف، ففكرت في أن أستغل هذه الفرصة، فأثني فخذي بمهارة وأرمي بنفسي إلى الأمام. كنت قد صممت على أن لا أدع أي نوع من أنواع الضربات ينهضني ويحملني على مواصلة السير، إلى درجة أنني كنت على استعداد للموت تحت ضربات الهراوة، بل تحت طعنات الخناجر. كنت أحسب أنهم سيتخلون عني بناء على

ضعفي وعدم صلاحيتي للعمل، أو يوزعون ما أحمله فوق ظهري على الأقل، لاستدراك التأخر الذى حصل من جهة، والإمعان في الهرب من جهة أخرى، على البهيمتين الأخريين، ويتركونني فريسة للذئاب والنسور بدل أن ينزلوا بي عقابا شديدا. ولكن سوء طالع منكر أفسد علي هذا المشروع الجميل. فقد حزر الحمار الآخر فكرتي، وأخذها مني وسقط في نفس المكان بحمله كله، متظاهرا بالعياء، وانطرح كالميت، ولم يدفعه إلى محاولة الوقوف على قوائمه لا الهراوات ولا وخزات الأشواك ولا جره من ذيله وأذنيه وفخذيه. وأخيرا تخلوا عن محاولاتهم واتفقوا على الا يكلفوا أنفسهم الاهتمام بجثة، بل بحمار من حجر، حتى لا يتأخروا في الفرار. هكذا وزعوا حمله علي وعلى الحصان، وقطعوا بالسيف مفاصل ركبتيه، وسحبوه جانبا ورموا به، وهو لا يزال يلهث، في هوة واد سحيق. وعندئذ فكرت في مصير زميلي، وقررت أن أتجنب الحيلة والخداع وأن أظهر لأسيادي بمظهر الحمار الشهم. كنت قد لاحظت، عندما كانوا يتكلمون فيما بينهم، أننا سنتوقف في مكان قريب، ونستريح فيه من سفرنا استراحة مطمئنة، لأنه محل سكناهم وإقامتهم. وبعد أن اجتزنا مرتفعا صعبا، وصلنا إلى المكان المحدد، فأنزلوا فيه كل الأشياء ووضعوها في الداخل. وحاولت أنا، وقد تخلصت من حملي، أن أستريح من تعبي بالتمرغ في التراب بدل الاستحمام.

هنا يتطلب موضوعي أن أقدم وصفا للمكان وللمغارة، التي يسكنها اللصوص. وإني لأريد في الوقت نفسه أن أجرب موهبتي وأجعلكم تشعرون بشكل واضح ما إذا كنت بناء على ما لي من فكر وشعور حمارا فعلا! المكان جبل وعر، عال جدا، تغطيه غابة، وفوق منحدراته المعوجة، التي يتوسطها حزام من الصخور الوعرة، يتعذر تسلقها، تمتد منخفضات ذات هوى جوفاء، تملأها الأشواك والأدغال، يعتبر توزعها على كل الجهات حصنا طبيعيا. وكان هناك ينبوع خرار ينحدر من قمة الجبل، ويدفع بأمواج فضية عالية، ثم يتوزع إلى جداول صغيرة، تروي تلك المنخفضات، فيحيط بكل شيء كالبحر المزبد أو النهر البطيء. وفوق مغارة، تنتهي فوقها حرف الجبل، ينتصب ما يشبه البرج السامق. وكان ثمة أيضا سياج سميك مضفور كذلك الذى يستعمل لحظائر الأغنام، يمتد أمام المدخل في كل الاتجاهات، وهو عبارة عن ممر ضيق، بمثابة جدار، يمكنك أن تراهن، فيما يخصني على أية حال، على تسميته ببهو اللصوص. ولم يكن يوجد قربه سوى كوخ صغير مغطى بالقصب، يقوم فيه اللصوص، كما عرفت فيما بعد، بالحراسة ليلا عقب استعمال القرعة.

لقد تسللوا بعدئذ إلى المغارة واحدا بعد الآخر، وهم يلمون أعضاءهم، بعدما ربطونا بحبال قوية أمام المدخل، وصرخوا بقوة في عجوز، أحنى ظهرها تقدم السن، وكان يبدو أنها تقيم بأمرهم جميعا وتعتني بهم ـ صرخوا بها قائلين:

ـ أنت، يا عشيرة الديدان المحترمة، أيتها المسخة المكرمة، ويا أيتها الهولة الجهنمية المبجلة، أتريدين أن تبقي هكذا جالسة في البيت وتسخري منا دون أن تحضري لنا ما ينعشنا والحال أننا قد انتهينا من عمل شاق خطر؟ إنك لا تفعلين في الليل والنهار شيئا سوى أن تفرغي الخمر الصرف في جوفك الذى لا يرتوي!

أجابتهم العجوز الخائفة بصوت مرتعد:

ـ ولكني، يا حماتي الفضلاء، وشباني الأعزاء، قد أعددت لكم أنواع اللحوم بكميات كافية، وهي طرية ولذيذة كالزبدة، كما أعددت لكم الخبز والخمر بقدر كاف، وملأت الكؤوس حتى حوافيها، وهيأت الماء الدافىء لاستحمامكم كالعادة.

بعد هذا نزعوا ثيابهم وجلسوا عراة يصطلون بحرارة نار قوية، وأساحوا الماء الدافىء فوق أجسادهم، وطلوها بالزيت، ثم أخذوا أماكنهم أمام موائد، تعلوها أطعمة كثيرة. لكنهم ما كادوا يجلسون، حتى حضر رجال آخرون، أكثر منهم عددا، لا بد أن تنسبهم إلى اللصوص أيضا دون تردد، فقد حملوا بدورهم غنائمهم من قطع ذهبية وفضية وأوعية وأقمشة قطنية مطرزة بالذهب. وبعد أن استحموا بطريقة مماثلة، جلسوا بين وسائد زملائهم، ثم اقترعوا على من يقوم منهم بالخدمة. وراحوا بعدئذ يأكلون ويشربون بصورة متفرقة، فتناولوا كثيرا من اللحم وكثيرا من الخبز، وتعاطوا العديد من الكؤوس. وأخذوا يتسلون بالصراخ والعربدة، ويتبادلون النكت الساخرة، وفعلوا ما يفعله أنصاف البشر وأنصاف الحيوانات من اللابثيين والقنطوريين. وبعده تكلم أحدهم، وكان أكثرهم قوة:

ـ لقد استولينا، فيما يخصنا نحن، على بيت ميلو في هيباتا وأدينا واجبنا على أحسن وجه. وقد رجعنا، فضلا عن الغنائم الكثيرة، التي مكنتنا منها شجاعتنا، بعددنا الكامل، هذا من جهة، ثم إننا رجعنا من جهة أخرى، ولأقل هذا عرضا، بزيادة مقدارها ثمانية أقدام. أما أنتم فقد أضعتم على العكس من ذلك رئيسكم بالذات، لاماخوس (المكافح الشعبي) الماهر البارع، حينما هاجمتم المدن البويتية، فرجعتم وأنتم أقل عددا. كنت أفضل أن أراه حيا على أن أرى ما حملتموه من متاع. إن جرأته بالذات هي التي وضعت حدا لحياته. سنحتفل بذكرى هذا البطل إلى جانب احتفالنا

...كرى الملوك والقواد الأمجاد. إن عصابتكم لا تريد في الحقيقة أكثر من أن تختلس ...ما يختلس السعاة من الخدم، وتتسلل حافية عبر الحمامات وغرف العجائز ولا ...حضر من الأمتعة غير الخرق البالية.

هنا أخذ الكلمة واحد ممن جاءوا متأخرين وقال:

" - إذن فأنت الوحيد، الذي لا يعرف أن الإنسان يستطيع أن يأخذ البيوت الكبيرة بسهولة أكبر؟ حقا إن لبعض الأسر خدما كثيرين، غير أن هؤلاء الخدم يهتمون بحياتهم أكثر مما يهتمون بثروات أسيادهم. أما الشجعان، الذين يعيشون بمفردهم، فإنهم يدافعون عن ممتلكاتهم القليلة - بل حتى الكثيرة، التي يحتالون في إخفائها - دفاعا مستميتا، ويضحون بحياتهم من أجلها. والواقع نفسه يؤكد هذا الذى أقوله. فعندما وصلنا إلى أبواب طيبة السبعة، قمنا بتحريات دقيقة - فهذا هو المهم الأول في مهنة من نوع مهنتنا - عن مدى ثروات السكان. ولم يفلت منا في النهاية شخص يدعى خريزيروس (المولع بالذهب)، وهو صراف غني، كان يخفي ثروته بشكل ذكي خوفا من الواجبات والخدمات العامة. ولذلك بقي وحيدا، واقتنع بمنزل صغير، ولكنه حصين بما فيه الكفاية، وكان يرتدي أسمالا بالية، بينما هو يجلس في حقيقة الأمر فوق أكياس من الذهب. وهكذا قررنا أولا أن نقوم بزيارة هذا الرجل، ولكننا لم نكن حريصين على مجابهة رجل واحد، وكنا نأمل أن نستولي على ثروته في يسر.

وقمنا في الحين بتنفيذ ماكنا قد عزمنا عليه، فعند هبوط الليل وقفنا أمام بابه، ولم يكن في نيتنا أن نخلع الباب أو نكسره، حتى لا يستيقظ الجيران على صوت كسر مصراعيه، ويقضوا علينا. فاعتمد حامل لوائنا لاماخوس على شجاعته الثابتة، وأدخل يده بهدوء في ثقب المفتاح، وحاول أن ينزع القفل، ولكن خريزيروس التافه كان قد بقي مستيقظا فترة من الزمن، وتتبع مراحل عملنا كلها مرحلة مرحلة، فاقترب بهدوء كامل، وضرب يد رئيسنا بكل قوة، فسمرها في لوحة الباب بمسمار كبير، وتركه ملصقا بخشبة العذاب موثقا بشكل رهيب، وصعد فوق سقف بيته، وأخذ يصرخ بأقصى ما يستطيع مستغيثا بجيرانه، مناديا كل واحد باسمه، ملحا عليهم في الإسراع إلى نجدته، فالأمر يتعلق بهم جميعا، حتى إنه أشاع أن الحريق قد شب في بيته فجأة. فجاءوا كلهم، لأن الخطر كان، فيما بدا، يوشك أن يصبح عاما، وهم خائفون مرعوبون.

وقعنا عندئذ في حرج، فقد كان علينا أن نختار بين استعمال القوة وبين التخلي

عن رفيقنا، وفي أثناء ذلك خطر ببالنا خاطر، كانت له، بناء على ما كنا فيه، صحته وفعاليته. ففصلنا بضربة محكمة التسديد عضد رئيسنا عن ساعده، وتركنا الذراع في مكانها حيث هي، وسددنا الجرح بمجموعة من الخرق حتى لا يبقى وراءنا أي أثر للدماء، وسحبنا جذع لاماخوس بقوة. وحين ضايقتنا ثورة الناس العارمة ودفعنا الخوف من الخطر المحدق بنا إلى الفرار، ولم يكن يستطيع البقاء في أمان ولا السير وراءنا بسرعة، راح هذا الرجل الشهم، الذى لم يكن لشجاعته مثيل، يحاول إقناعنا عن طريق الحديث والرجاء والشكوى، ويقسم بحق مارس وباليمين المقدسة طالبا منا أن ننقذ زميلا طيبا من العذاب والأسر. فما الذى يدعوه، وهو اللص الشجاع، إلى العيش بدون يد، لا نهب له عند غيابها ولا قتل؟ يكفيه سعادة أن يموت بيد أصدقائه بناء على رغبة صدرت عنه! وحين لم يبد على أي منا، بلغ حديثه ما بلغ من توسل ورجاء، رغبة في الاستجابة له، وشعر بعجزه عن إقناعنا بقتله وفقا لطلبه، تناول سيفه بيده المتبقية وقبله بحب مدة طويلة، ثم غرزه بدفعة باسلة في صدره. فهتفنا عندئذ بشجاعة رئيسنا الشهم، ووضعنا فوق جثته إزارا بكل ما ينبغي من عناية، وألقينا بها في البحر لإخفاء كل أثر لها. وهكذا دفنا لاماخوسنا في أعماق البحر.

هكذا وضع حدا لحياته، كان جديرا بأعماله البطولية، أما ألكيموس (المسلح) فلم يكن على العكس من ذلك قادرا على أن يهيء لنفسه مصيرا يناسب مشاريعه الذكية. فعندما كسر كوخ عجوز، كانت نائمة، وصعد إلى غرفة النوم ليخنقها بسرعة، ويقطع نفسها، فضل أن يخرج أولا أشياءها من نافذة واسعة، لنلتقطها نحن طبعا. وبعد أن جمع كل شيء بشكل جاد، ولم تكن له رغبة حتى في التخلي عن فراشها، فقلبها عن سريرها، ونزع الإزار عنها، وهم بالتطويح به نحونا أيضا، ارتمت العجوز اللئيمة أمام قدميه، وراحت تتوسل إليه قائلة:

ـ لماذا، يا بني، تقدم أسمالي البالية، وأنا عجوز فقيرة، هدية إلى الجيران الأغنياء، الذين تطل عليهم هذه النافذة؟

انطوت هذه الحيلة على ألكيموس، فصدق كلامها، فقد خشي طبعا أنه لا يرمي ما أخذه وما سيأخذه فيما بعد بين أيدي زملائه، وإنما يرمي بها فوق قطعة أرض أجنبية، وعندما اكتشف خطأه، تعلق بالنافذة ليعاين ذلك بدقة، ويتأمل بشكل خاص ما يحتوي عليه البيت المجاور من ثروة. وبينما كان يفعل ذلك بجد ونشاط، ودونما حذر تقريبا، دفعته العجوز الرهيبة دفعة خفيفة، ولكنها كانت مفاجئة غير متوقعة،

فقد توازنه وهو يمد جسمه إلى الخارج، ووقع من الحافة على أم رأسه. كان العلو كبيرا، ثم إنه سقط فوق حجرة كبيرة، كانت ملقاة هناك فتحطم صدره وانشق، واندفعت منه الدماء غزيرة. وروى لنا ما حدث، ثم قضى نحبه بعد احتضار قصير، فدفناه كما دفنا الآخر، فكان للاماخوس تابعه الطيب.

عندما حلت بنا هذه المصيبة المضاعفة، تخلينا عن مغامراتنا في مدينة طيبة، وصعدنا إلى مدينة بلاطي، وكانت أقرب مدينة إلينا. هناك سمعنا الناس يتحدثون عن مبارزة، سينظمها رجل يدعى ديموخاريس (مسلي الشعب). وكان هذا الرجل من عائلة عريقة، وكان ثريا محبا للفنون، دأب على إقامة حفلات رائعة، تتناسب مع ثروته اتسلية الشعب. فهل هناك يا ترى من له من الموهبة والعبارات ما يكفي للحديث عن استعدادته المتنوعة بألفاظ ملائمة؟ كان هناك مبارزون مشهورون، ومصارعو حيوانات ماهرون، ومجرمون محرومون من حماية القانون، يلتهمون بشهية وجبات الحيوانات المفترسة. كان هناك بناء محكم من الأعمدة، وأبراج مبنية على غرار الأسواق من ألواح مترابطة، وكانت هناك منصة مزركشة خاصة بمصارعة الحيوانات، وما أكثر ما كان هنالك من حيوانات مفترسة. لقد حرص الرجل بشكل خاص على إحضار نعوش رائعة من أماكن بعيدة لمن كانوا قد حكم عليهم بالموت. ومما كان يزيد هذه الألعاب بهاء وروعة أنه كان قد تعود أن يجلب بآخر قرش من ثروته عددا كبيرا من الدببة القوية. ولم يكن يحصل عليها عن طريق الصيد المحلي ولا عن طريق شرائها بأثمان باهضة فقط، وإنما كان أيضا يعتني بتلك الحيوانات، التي كان أصدقاؤه يقدمونها له رهانا، ويطعمها بسخاء، ويرعاها رعاية تامة.

ولكن هذه التجهيزات الجميلة الرائعة المخصصة لتسلية الشعب لم تسلم من نظرات الحسد: لقد أهلك الحيوانات ما عانته من طول مدة الأسر المرهق، ومن الحرارة الشديدة، والبطالة الدائمة، فانتشر بينها الطاعون فجأة وقتلها، فنزل عددها إلى الصفر تقريبا. فكانت أجسام حيوانات نصف ميتة ترى في كل مكان من الشوارع، فاتخذ الناس البسطاء، الذين كانوا يبحثون دوما، دون أن يكون لهم الحق في اختيار ما يأكلون، عما يملأون به بطونهم الضامرة من أطعمة مجانية غير لذيذة ـ اتخذوا من تلك الحيوانات الملقاة في كل مكان وليمة فاخرة. وفي هذا الوضع فكرنا أنا وبابولوس في هذه الخطة، وهي أن نسحب أكثر الدببة ضخامة إلى مكاننا في الأسفل، وكأننا نريد أن نعده للأكل، وننزع فروه عن لحمه، ونبقي له مخالبه كلها، ونترك قبل كل شيء الرأس حتى بداية العنق سليما، ونكشط جلد الفرو بحماس إلى أن يصبح رقيقا،

ونذرذر فوقه شيئا من الرماد الناعم، ثم نضعه في الشمس ليجف. وبينما يوضع الفرو ليجف في حرارة الشمس اللاهبة، نأكل نحن في أثناء ذلك من لحم الدب حتى نشبع. ونتفق بعد ذلك بالنسبة إلى مشروعنا المعد على أن يرتدي واحد منا، ولا ينبغي أن يكون أقوانا، وإنما أكثرنا شجاعة ـ وأن يكون بالدرجة الأولى متطوعا ـ ليتخذ شكل الدب، ويدخل هكذا إلى بيت ديموخاريس حتى يمكننا من دخول باب بيته في هدوء الليل المناسب.

لقد شجعت هذه الفكرة الجميلة الكثير من أفراد جماعتنا المتآلفة ورغبتهم في القيام بالمهمة، إلا أن العصابة اختارت تراسيليون (الذي له شجاعة الأسد) للقيام بهذه الخدعة الحربية الخطرة، فاختفى بوجه طلق في الفرو الطيع الناعم، وسوينا بين أطرافه بخيط رقيق، وموهنا مكان المزقة بالشعر الطويل. ثم أدخلنا رأس تراسيليون في المكان، الذى فصل منه عنق الحيوان عند الرقبة بالضبط، وأحدثنا ثقوبا كثيرة في مكان العينين ليتنفس وينظر منها، ووضعنا زميلنا الشجاع، الذى تحول عندئذ من أعلاه إلى أدناه إلى حيوان في قفص، اشتريناه بسعر مناسب، فأسرع هو نفسه بالدخول إليه في فرح. وبعد أن بدأنا عملنا بهذه الطريقة، واصلناه على ما كان فيه من مخادعة على الصورة الآتية:

كنا قد عرفنا اسم شخص يدعى نيكاتور، وهو تراكي، كانت له علاقة وثيقة بديموخاريس، فكتبنا رسالة باسمه با عتبار أنه يريد أن يقدم ، بوصفه صديقا حميما له، أحسن رمز من رموز الصيد مساندة ومشاركة منه في هذه الألعاب. وعندما هبط الليل اتخذنا من ظلامه ستارا، وحملنا قفص تراسيليون إلى ديموخاريس مع تلك الرسالة المزورة. فما كان منه إلا أن اندهش لقوة ذلك الحيوان، وابتهج كثيرا بكرم صديقه الحميم، وأمر بإعطائنا في مقابل ابتهاجه بما حملناه إليه عشر قطع ذهبية ـ وقد كانت له شخصيا ـ من علبة مجوهراته. وبما أنه ما من شيء جديد إلا يذهب الناس لمشاهدته، فقد أقبلوا من كل الجهات لرؤية هذا الحيوان والإعجاب به، ولكن تراسيليون كان له دائما ما يكفي من الذكاء لوضع حد لفضولهم وإبعادهم عن طريق تهديدهم بالضرب. فراح المواطنون يثنون عليه بوضوح ويصفونه بأنه إنسان محظوظ جدا، استطاع أن يعود بهذه الإضافة الجديدة ما فقده من حيوانات. وفي الحين أمر بمرافقة الدب في حذر إلى أحد حقوله. وهنا تناولت الكلمة، وقلت له:

ـ عليك، يا سيدي، أن تحترس من إرسال هذا الدب، الذى أرهقته حرارة الشمس

ومسافة الطريق، إلى الحيوانات الأخرى، فهي، فيما سمعت، لم تشف بعد من مرضها. الا ترى أنه من الأفضل أن تبحث له عن مكان مكشوف في الهواء الطلق داخل منزلك، وقد يكون من الأحسن أن تبحث له عن مكان قرب بحيرة تتوفر فيها البرودة المنعشة؟ اتراك لا تعلم أن هذا النوع من الحيوانات يحب دائما أن يقيم في الأدغال الملتفة، والمغارات الرطبة، والينابيع اللطيفة؟

أثارت هذه الكلمات رعب ديموخاريس، فحسب حساب الحيوانات التي فقدها، ووافق دونما صعوبة، وسمح لنا بوضع القفص في المكان، الذى ارتضيناه نحن في منزله. وقلت له:

ـ نحن مستعدون أيضا لحراسة هذا المكان والوقوف أمام القفص أثناء الليل، حيث نقدم للحيوان، الذى عانى من الحرارة والعذاب، طعامه وشرابه في الوقت المناسب كما تعود على ذلك!

فقال:

ـ لا داعي لتحملكم مشقة ذلك، فإن لخدمي كلهم خبرة في معاملة الدببة وتقديم الغذاء لها.

وودعناه بعد ذلك وانصرفنا، وعندما اجتزنا باب المدينة، لمحنا مقبرة، أقيمت في مكان خفي على الطريق. وهناك كسرنا التوابيت، التي أتلفها العفن والقدم، وكانت تحتضن جثثا تحولت إلى غبار، بل إلى رماد، لنتخذ منها مكانا نخفي فيه غنائمنا المقبلة. والتزمنا حسب ما تقتضيه قواعد العصابة بالليل الحالك، الذى يداهم فيه النوم الناس بعد اضطجاعهم مباشرة ويثقل حواسهم كالرصاص. وأقمنا موكبنا المسلح بالسيوف أمام بيت ديموخاريس استعدادا لسلبه ونهبه. ولكن تراسيليون استغل ساعة هجوم اللصوص الليلية، فخرج من القفص، وقتل الحراس في المكان، الذى كان يعلو فيه شخيرهم قريه، حتى آخر رجل منهم، وقتل البواب أيضا، وأخذ منه المفتاح، وفتح الباب على مصراعيه، وأرانا، عندما وصلنا ودخلنا البيت، الخزانة، التي وضعت بها في المساء ـ وكان قد راقب ذلك بدقة ـ كومة كبيرة من الفضة. دفعت الجماعة الخزانة بقوة، فانكسرت بسرعة. وطلبت من الرفقاء أن يأخذوا ما يستطيعون أخذه من الذهب والفضة ويضعوه عند أولئك الموتى الأمناء، على أن يعودوا مسرعين كالريح لحمل الذهب والفضة من جديد. لقد كان من مصلحة الجميع أن أبقى أنا أمام عتبة البيت لأراقب المكان إلى أن يعودوا ثانية. وكان يبدو أن قناع

الدب، الذى كان يذرع البيت، يمكن أن يرعب الخدم إن حدث واستيقظ واحد منهم، فيفر هاربا خوفا منه. وهل هناك يا ترى من لا يفر، مهما كان جسورا، حين يجد نفسه أمام بهيمة من هذا النوع، ولا سيما في الليل، و يغلق القفل على نفسه ويظل حبيس غرفته؟

ورغم ما عرفته خطتنا من دقة في التنظيم وجودة في التنفيذ، فقد باءت بالفشل. فبينما كنت أنتظر رجوع رفاقي بنفاد صبر، أقبل خادم غبي، كان قد سمع صوتا أو ربما كان له إحساس بذلك، وتقدم بخطى هادئة، فرأى البهيمة، التي كانت تذرع البيت جيئة وذهابا، وأجهد نفسه حتى لا يحدث أية ضجة، وعاد من الطريق نفسه بكل هدوء، وأخبر كل من في البيت على هذا النحو أو ذاك بكل ما شاهده. فامتلأ البيت في الحال بدبيب مجموعة كبيرة من الخدم، تحمل المشاعل والفوانيس والشموع والأضواء وكل ما يحتاجه الإنسان لإضاءة الليل وإنارة الظلام، وما من واحد من هذه المجموعة أتى بدون سلاح، فكانوا يحملون بأيديهم ما سمحت به الظروف من هراوات وحراب وسيوف مسلولة، و أسرعوا فسدوا المداخل، وأطلقوا الكلاب كذلك - وهي ذات آذان كبيرة وشعر منفوش - للتمكن من البهيمة.

وعندما كانت الضجة ترتفع شيئا فشيئا، تراجعت أنا وابتعدت عن البيت، ولكني رأيت، وأنا لا أزال متخفيا وراء الباب، كيف أخذ تراسيليون يصارع الكلاب بضراوة وشجاعة. لقد دخل آخر محطة في حياته، ومع ذلك بقي مخلصا لنفسه ولنا، قادرا على أن يتحدى حتى بلعوم كلب الجحيم نفسه. وخلاصة القول أنه حافظ على الدور المنوط به حتى آخر نفس، فأخذ يتجنب الهجمات، ويندفع إلى الأمام، متخذا أوضاعا ومواقع مختلفة، واستطاع في النهاية عن طريق ذلك أن يتسلل خارج البيت. إلا أنه عجز عن الوصول إلى مكان آمن رغم خروجه إلى عرض الطريق. ومرد ذلك هو أن كلاب الزقاق المجاور، وهي رهط من الكلاب الضارية، كانت قد اجتمعت عليه، فرقة إلى جانب أخرى، وكان من بينها كلاب الصيد، التي كانت قد خرجت من البيوت للغرض نفسه. كان المنظر الذى تراءى لعيني في تلك اللحظة في منتهى البشاعة. فقد أحاطت الكلاب الكثيرة المسعورة بتراسيليون من كل جهة، وراحت تمزق جسده بعضات لا يحصى عددها. وفي النهاية لم أحتمل النظر إلى ذلك، فدسست نفسي في زحمة الناس وفي غمرة أمواجهم، وحاولت - وبذلك فقط استطعت مساعدة زميلنا الطيب بشكل سري - أن أضع حدا لمحرضي الكلاب عليه، فقلت:

يا له من عمل وحشي لا مثيل له! إننا لنضيع حيوانا عظيما وثمينا جدا!

على أن هذه الحيلة لم تفد الرجل التعس في شيء، فقد خرج رجل مسرعا من ا...، وكان طويل القامة، ضخم الجثة، ورمى برمحه في صدر الدب تماما، ثم أقبل ...، واجتمع جمع كبير منهم، راحوا، بعد أن تغلبوا على خوفهم، يتبارون في الرماية ...اورونه بالسيوف عن قرب. وعندئذ فقد تراسيليون، نجم عصابتنا اللامع، حياته الجديرة بالخلود، ولكنه لم يفقد صموده، ولم يند عنه صوت، يجعله يخون قسمه المقدس، وإنما ترك الكلاب، تنهش لحمه، والأسلحة تنال من جسده، وكان في أثناء ذلك يزمجر ويدمدم في جهد كالحيوان، وتجلد وهو يرى الموت أمامه، واحتفظ بما له من مجد حتى لفظ أنفاسه الأخيرة. مع ذلك كان الجمع الكبير يرتعد ويرتجف خوفا منه، فلم يجرؤ أحد منهم إلى أن طلع النهار، بل إلى أن مضى وقت من النهار، على أن يلمس، ولو برأس أصبعه، الدب القتيل. وفي آخر الأمر أقبل جزار شجاع حقا، فشق بطن الحيوان، وإذابه يتكشف له عن لص جريء. وهكذا فقدنا تراسيليون أيضا - لكن المجد لن يفقده.

ربطنا بسرعة الأمتعة، التي احتفظ لنا بها الموتى الأوفياء، وبادرنا إلى مغادرة منطقة بلاطاي. كنا قد فكرنا أكثر من مرة في أن حياتنا لا استقامة فيها، لأنها قد انتقلت الآن قرفًا من عدم صلاحنا إلى المدافن والقبور! لقد حملنا معنا، ونحن نعاني من التعب لثقل الحمل ووعورة الطريق، ومن الحزن لفقداننا ثلاثة من رفاقنا - حملنا هذه الغنائم، التي ترونها أمامكم."

عندما انتهى من خطابه على هذه الصورة، صبوا الخمرة الصافية في أكواب فضية، وشربوها في ذكرى زملائهم الموتى، وتقربوا إلى الإله مارس ببعض الأناشيد، ثم استراحوا قليلا. وقدمت لنا تلك العجوز كمية محترمة من الشعير الجديد، حتى أن حصاني، الذى كان قد استولى على الوجبة لنفسه، تصور من جهته أنها وليمة، أما أنا فقد كنت متعودا على أكل الشعير مدقوقا ومطبوخا، لذلك نظرت إلى الزاوية، التي كان قد سقط فيها فتات خبز الجماعة كلها، فأخذ فكي، الذى كاد يتجمد من الجوع، يلتهم ذلك الفتات في نهم. ولما هبط الليل، نهض اللصوص وساروا مندفعين، وقد تسلحوا بأسلحة مختلفة، أو لبسوا أقنعة جعلتهم يبدون كالأشباح، وتقلدوا سيوفهم. وقد كنت أنا أ مضغ وأمضغ بشجاعة، حتى النوم لم يستطع أن يحول بيني وبين ذلك. عندما كنت لوكيوس، كنت أنهض راضيا عن المائدة بعد خبزة أو خبزتين، أما الآن فإن

علي أن أطاوع كرشة ضخمة عميقة الغور، وأن أملأها بالقفة الثالثة على التقريب. كنت مستسلما لهذا العمل حين داهمني ضوء النهار.

أسلمت أخيرا زمام قيادتي إلى لياقتي الحمارية، فتخليت عن ذلك دونما رغبة، وأرويت عطشي في الجدول القريب. وما هي إلا لحظة حتى حضر اللصوص، وكان يبدو عليهم الانفعال والخوف، ولم يكونوا يحملون معهم أمتعة، ولو كانت من الأسمال البالية. كانوا قد جلبوا معهم تحت حراسة سيوفهم كلها، وقبضات أيديهم كلها، بل كل عصب من أعصابهم، فتاة واحدة، يدل مظهرها على نبل المحتد. وكان يبدو من لباسها أنها من بنات الأسر الراقية في المنطقة، كانت فتاة جديرة بأن تعشق ـ حتى بالنسبة إلى حمار من نوعي! وكانت تمزق ثيابها وتقطع شعرها حزنا وكمدا. وأدخلوها المغارة في الحين، ولكي يخففوا عنها الألم، قالوا لها:

ـ تستطيعين أن تطمئني على حياتك وشرفك، إلا أن عليك أن تتذرعي بالصبر إلى أن نستفيد منك، فقد جعلنا الفقر والعوز نمتهن هذه المهنة، ولسوف يقدم لنا أبواك ـ على بخلهما ـ شيئا كافيا من جبل ثروتهما، يفتديان به دمهما من غير تأخير.

ولكن هذه الثرثرة وما أشبهها لم تخفف من ألم الفتاة إطلاقا. وكيف يمكنها ذلك؟ كانت قد وضعت رأسها بين ركبتيها وراحت تنحب بدون انقطاع. وعندئذ نادى اللصوص العجوز وطلبوا منها أن تجلس إليها وتحاول تسليتها قدر الإمكان، وانصرفوا إلى عملهم. فلم تهتم الفتاة بكلام العجوز، وواصلت بكاءها، بل زاد نحيبها وهي ترج خاصرتها بشكل مستمر، حتى إنها أسالت دموعي في النهاية. كانت تقول:

ـ لقد فقدت أنا التعسة بيتا رائعا وخدما كثيرين. كانت لي ألطف الوصيفات، وكان لي أجل أبوين، فأصبحت غنيمة لعملية نهب رهيبة، وحولت إلى خادمة، وحبست في هذه المغارة كما تحبس الجارية، وحرمت من كل النعم، التي ولدت فيها ونشأت ـ كيف يمكنني أن أكف عن البكاء أو كيف يمكنني أن أحيا وأنا أعاني رعبا قاتلا وخوفا من الموت تحت بلطة الجلاد بين المرعبين من اللصوص وقطاع الطرق؟

وواصلت الشكوى على هذا المنوال، إلا أن ما كانت تشعر به من ألم في قلبها، وفواق في حلقها، وتعب في أعضائها، كان قد أرهقها، فثقلت عيناها وأخذتها الغفوة. لكنها ما كادت تغفو لحظة، حتى انتفضت من نومها كالمجنونة، فأنتابها الغم من جديد، وأخذت تنحب بشدة، وتضرب صدرها بيديها القاسيتين، وتصفع محياها الجميل. لم تستطع العجوز معرفة السبب، الذى دفعها إلى البكاء من جديد. تنهدت

الساة بعمق وقالت:

ـ أواه، الآن تأكدت، تأكدت من ضياعي، وفقدت الأمل في النجاة! لا مندوحة لي ،،، ان اشنق نفسي أو أضرب نفسي بالسيف أو ألقي بنفسي في الهاوية على الأقل.

وهنا طلبت منها العجوز، وقد قطبت جبينها وبدأ الغضب يتمكن منها، أن تحدثها من السبب، الذى جعلها تبكي أو حملها على البكاء من جديد بعد الهدوء، الذى كان قد غمرها، وقالت لها:

ـ ماذا دهاك؟ أتريدين أن تحرمي أطفالي من ثمن فديتك؟ طبعا، إذا ما أنت واصلت البكاء على هذا النحو، فإنني سأكون حريصة ـ وأنا لا أهتم بدموعك، واللصوص لا تهمهم الدموع في أغلب الأحيان ـ على أن تحرقي حية!

فزعت الفتاة من هذه الكلمات، فراحت تغطي يدي العجوز بقبلها، وتقول لها:

ـ ارحميني، أيتها الأم العزيزة! تصوري نفسك في مكاني من هذا الشقاء الرهيب، وحاولي أن تقفي إلى جانبي! فأنا على يقين من أنك لم تفقدي ذلك القلب العطوف حتى وأنت في خريف حياتك وبرغم بياض شعرك. انظري إلى مأساتي: شاب وجيه، يعتبر الأول بين أقرانه، ينظر إليه السكان كلهم على أنه ابن مدينتهم وهو قريب لي، لا يكبرني إلا بثلاث سنوات، وقد تربى ونشأ معي منذ السنوات الأولى، ولم يكن يفارقني في غرفتي، بل كان يقاسمني سريري ومخدتي، فأحبني وأحببته الحب كله، وكنت مخطوبة له منذ فترة طويلة، وكنت زوجة له بناء على الوثيقة، التي أعداها والدانا، ـ يوم حفلة الزواج حمل مع أقاربه وجيرانه القرابين إلى المعابد والأماكن المقدسة تكريما للآلهة. وتصاعدت أغاني الزواج من البيت، الذى كان قد زين بالغار والشموع. كانت أمي الشقية قد مسكتني في حجرها، وراحت تقلد عنقي زينة العرس النفيسة، ثم أخذت تقبلني بحب قبلات كثيرة، وتتمنى أن أرزق الولد في المستقبل. ـ فجأة هجمنا اللصوص وكأنهم في رقصة حرب، وسلوا سيوفهم علينا. لم يكن قصدهم النهب والقتل، وإنما كان هدفهم غرفة النوم، فاندفعوا إليها والأسلحة مشرعة بأيديهم. وبما أنهم لم يجدوا من خدمنا أية مقاومة، حتى ولو كانت مقاومة ضعيفة، فقد انتزعوني من حضن أمي وأنا أعاني ما أعاني من الرجفة والخور والخوف. وهكذا عطل زواجي كما عطل زواج أتيس (من أميرة فريجية، لكن كيبيلي كانت تحبه، فأصابته بخبال، فخصى نفسه) وبروتيسيلاوس (الذى قاد التساليين يوم زواجه من لاوميدا، ضد طروادة، فكان أول من لقي حتفه فيها على يد هيكتور)! لكن حلما رهيبا

جدد تعاستي الآن، بل زادها حدة، فقد تراءى لي في حلمي أنني نزعت بقوة وعنف من البيت، ومن غرفة العرس، ومن فراشي، بل من مخدتي نفسها، فرحت أدعو عبر قفار وعرة المسالك عريسي التعس باسمه، فتبع آثاري، ولم يكد بعد ينتزع نفسه من ذراعي، وهو لا يزال ينعم بعطوره وأكاليله الوردية، وأنا أفر منه وكأني أسير على أقدام غيري. وعندما رفع صوته يشكو اختطاف زوجته الجميلة منه، وطلب من الناس مساعدته، غضب أحد اللصوص من متابعته المزعجة لهم، ورفع حجرا من أمام رجليه، ـ فأصاب مقتلا من الرجل المسكين، من عريسي! لقد أرعبني هذا المنظر الرهيب، فاستيقظت من نومي مرعوبة.

تنهدت العجوز رفقا بدموع الفتاة، وقالت لها:

ـ تشجعي، أيتها الفتاة الفاضلة، ولا تنزعجي لأشباح الأحلام الفارغة! إن صور نوم النهار مزيفة، ثم إنها فضلا عن ذلك تعبر في معظم الأحيان عن عكس ما يحلم به الإنسان من أحداث. فالدموع والضرب، وكذلك الاغتيال والقتل، تعني الفائدة والمكسب المناسب. أما حين يضحك الإنسان ويملأ بطنه بالأطعمة اللذيذة أو ينعم بحبيبته، فإن ذلك قد يشير إلى خطب من الخطوب مثل تكدير النفس والكلال وغير ذلك من الأضرار. ولكني أنا سأروح عنك بأقاصيص وخرافات جميلة مما ترويه العجائز:

"كان يعيش قديما في إحدى المدن ملك وملكة، وكان لهما ثلاث بنات في منتهى الجمال. من الممكن أن يثني الإنسان على الكبريين بما يناسب جمالهما، لكن جمال الصغرى كان متميزا، بل خارقا للعادة إلى درجة أن اللغة البشرية نفسها عاجزة عن الإشادة بجمالها حتى ولوكان ذلك على سبيل التقريب. لقد فتن جمالها الفائق عددا كبيرا من الأهالي ومن الأجانب، الذين قادتهم إليها ألوفًا مؤلفةً شهرة مفاتنها النادرة، ودفعهم الفضول إلى مشاهدتها. فكانوا يرفعون أيديهم إلى أفواههم في دهشة، وقد انضمت سباباتهم وأباهيمهم الممدودة ويتقربون إلى من لا سبيل إليها بالعبادة وكأنهم يتقربون إلى إلهة الجمال نفسها. كانت قد انتشرت في المدن القريبة والقرى الجاورة إشاعة مفادها أن الإلهة (فينوس)، التي ولدتها أعماق البحر الأزرق، وربتها أنداء الأمواج المزبدة، تطوف الآن بين أفراد الشعب، توزع عليهم نعمها السماوية، أو أن إلهة جمال ثانية، لها ما للبراعم العذراء من رونق، خلقتها قطرات سماوية، لم يكن مصدرها البحر في هذه المرة، وإنما كان مصدرها الأرض. وأخذ هذا الخبر يزداد

انتشارا يوما بعد آخر، وبلغ الجزر المجاورة ومعظم المدن والمقاطعات، وتردد على كل لسان.

وأقبل الناس من أماكن بعيدة برا وبحرا لرؤية مفخرة القرن. ولم يعد أحد يشق عباب البحر إلى بافوس ولا إلى كنيدوس، ولا حتى إلى كوثير (كلها أسماء لمعابد فينوس) لمشاهدة إلهة الجمال. فأجلت احتفالاتها، وأقفرت معابدها، ونسيت مقاماتها، وأهملت تقاليدها المقدسة، فكانت الأعمدة تقوم هنالك من غير إكليل، والمعابد المهجورة يغطيها الرماد البارد. أصبح الناس يركعون أمام فتاة، ويمجدون الإلهة القوية في صورة إنسان. عندما تخرج العذراء في الصباح من البيت تقدم القاربين والأضاحي تقربا إلى إلهة الجمال الغائبة، و عند مرورها بالطرقات تقدم لها الجماهير فروض الطاعة، حاملين الأزهار في الأيدى والشعور.

لقد أثار نقل هذه العبادات السماوية إلى إنسانة فانية غضب إلهة الجمال الحقيقية بصورة متقدة، حتى إنها خاطبت نفسها، وهي تهز رأسها دون أن تستطيع التحكم في إرادتها، قائلة:

ـ هكذا إذن أرغم، أنا الأم الأولى للطبيعة، أنا أصل العناصر، إلهة الجمال المقدسة للأرض كلها، على أن أقتسم جلال قداستي مع فتاة فانية! هكذا يقدس اسمي الممجد في السماء بالدناءة الأرضية! سيكون علي ولا شك أن أرضى بعبادات قد لا تكون، بحكم اشتراكنا في الاسم، موجهة إلي، فتتولى حمل صورتي بين الناس فتاة ستموت في يوم من الأيام! ما فائدة أن يكون ذلك الراعي (باريس)، الذى اعترف جوبيتر نفسه بإنصافه وصدقه، قد فضلني لجمال شكلي على منافستي العظيمتين (هيرا وأثينا عند اليونان، جونو ومينيرفا عند الرومان) ؟ لكني لن أتركها، ولتكن من تكون، تتطاول علي وتسلبني عبادتي. سأجعلها وشيكا تندم على ما لها من جمال محظور.

ودعت في الحين ابنها، ذلك الفتى المتهور المجنح، الذى يتحدى التقاليد العامة بطبعه السيء، ويتسلح بالمشاعل والنبال، ويقتحم ليلا بيوت الغرباء، ويحطم راحة الأزواج، ويرتكب أفعالا شنيعة دون أن يعاقب على ذلك، ولا يعمل ما فيه فائدة على الإطلاق.

ومع أنه كان جريئا بما فيه الكفاية، فقد راحت تحرضه فوق ذلك بكلماتها، وقادته إلى تلك المدينة، وأرته بسيشة (النفس) ـ كان هذا هو اسم الفتاة ـ وروت له قصة هذه الفتاة، التي تنافسها في جمالها، وقالت له متوجعة غاضبة:

ـ أتوسل إليك بحب الأم، بجراح سهامك العذبة، بجمرة تلك الشعلة الوديعة، أن تنتقم لأمك من هذه الفتاة انتقاما لا رحمة فيه! كن صارما في معاقبتك لتلك الجميلة المتكبرة، وحاول أن تحقق شيئا واحدا بدل أن تفعل كل شيء: اعمل على أن تقع بشكل يائس في حب أوطأ إنسان، حرمه القدر من الشرف والثروة، ومن الصحة أيضا، بحيث لا يجد مثيلا له في بؤسه فوق هذه البسيطة كلها!

بعد أن حدثت ابنها على هذا النحو وقبلته قبلات حارة، أسرعت إلى الشاطئ القريب، وأدخلت رجليها الورديتين في زبد الأمواج المتكسرة. وجلست فوق قبة أعماق البحر الرائعة، فحدث ما كانت تريده، بل حدث فورا وكأنها كانت قد أمرت به قبل فترة طويلة: لقد ظهر موكبها البحري في الحين، فخرجت بنات فيريوس مع الجوقة الموسيقية، وبرز بوتونوس (إله المرافىء عند الرومان) بخصله السوداء المنتفشة، وسلاكيا وقد امتلأ حجرها سمكا، وباليمون (اليوناني، نظير إله المرافىء الروماني)، وكانت آلهة البحر تتوثب بين الأمواج في كل مكان، هذا يعزف على الصدف الصادح، وآخر يمسك بمظلة مخملية لحجب أشعة الشمس المحرقة، وثالث يرفع مرآة أمام عيني الإلهة، وآخرون يسبحون مثنى مثنى حول العربة على مقربة منها. لقد صاحب إلهة الجمال في رحلتها إلى المحيط موكب من هذا النوع.

وفي أثناء ذلك لم تنعم بسيشة بما كانت تنتظره من وراء جمالها الأثيري الباهر. لقد شاهدها الجميع، وأثنوا عليها، إلا أنه لم يتقدم لطلب يدها أحد، لا ملك ولا ابن ملك، ولم يتجرأ على ذلك أي فرد من أبناء الشعب. كانوا قد أعجبوا بجمالها السماوي، ولكن إعجابهم بها لم يتعد إعجابهم بتمثال فني رائع. وكانت أختاها، اللتان لم ينتشر خبر جمالهما المحدود كثيرا ولم يصل إلى مسافة بعيدة، قد خطبهما اثنان من أبناء الملوك، فتزوجتا بملكين زواجا سعيدا. أما بسيشة فقد بقيت مهجورة، تبكي وحدتها في البيت، وتعاني من مرض في جسمها واضطراب في فكرها، وقد كرهت جمالها، الذي أعجب به الناس جميعا. وهكذا ذهب أبوها المسكين، لأنه خشي أن يكون قد أغاظ الآلهة، فغضبت عليه، إلى معبد قديم لإله ميليت، فاستخاره وتوسل إليه بالصلوات والقرابين أن ينعم على الفتاة المنبوذة بالزوج وبالزواج، ولكن أبولو، على إغريقيته ويونيته، أراد أن يجيبه حبا بمؤلف القصة الميليزية بوحي صاغه باللغة اللاتينية:

ضع الفتاة، أيها الملك، على قمة صخرة جبلية،

وقد تزينت بما تتزين به عروس الموت!

لا تنتظر صهرا من سلالة الفانين،

وإنما من سلالة التنانين المرعبة.

يحوم في الفضاء ويفسد كل سلام،

ويدمر بالنار والحديد كل المخلوقات.

يخشاه جوبيتر نفسه، وترتعد منه الآلهة،

وتفزع منه الأنهر وظلمات العالم السفلي.

عندما سمع الأب، الذى كان قبل ملكا سعيدا، هذه النبوءة المقدسة، عاد إلى بيته متذمرا كئيبا، وكشف لزوجته عن مشيئة القدر المشئوم. فتألما وبكيا وندبا حظهما عدة أيام، وسرعان ما تحققت نبوءة الإله المرعبة القاسية. فهيىء للفتاة التعسة جهاز عرس الموت، فخفت لهيب الشعلة في الرماد، الذى علاه السخام بسرعة، وتحول نغم ناي العرس إلى شكاة مريرة، وانتهت أغنية حفلة الزواج البهيجة إلى نحيب هادىء كئيب، فجففت الفتاة دموعها ببرقع العرس، وحزن الأهالي كلهم لحزن أهل البيت المصاب، وأعلن في الحين الحداد العام في البلاد كلها.

على أنه كان من الضروري الاستجابة لأوامر الإلهة، وكان على بسيشة الشقية أن ترضخ لما حكم عليها به. فبعد أن انتهت الاستعدادات لعرس الموت بكآبة كبيرة، خرج الشعب كله لمرافقة الميتة الحية، وكانت بسيشة تسير، والدموع تنهمر من عينيها، في موكب زفافها. ومع ذلك فبينما كان الأبوان، الذان أضناهما الحزن والألم، مترددين في إنجاز هذا العمل لما فيه من عار وشنار، أخذت ابنتهما تشجعهما قائلة لهما:

- لمذا تعذبان نفسيكما في أيامكما المسنة التعسة بالبكاء بلا انقطاع؟ لماذا ترهقان أنفاسكما، التي كان ينبغي أن تكون أنفاسي أنا، بهذه الحسرة المتواصلة؟ ولماذا تشوهان ملامحكما، التي أحبها من قلبي الحب كله، بدموع لا فائدة منها؟ لماذا تعذبان، في نظراتكما، وجهي؟ ولماذا تقطعان شعركما الأشيب؟ لمذا تلطمان صدريكما المبجلين؟ أهذا ما تستحقان من جزاء راق على جمالي الذى يحظى بإطراء كبير؟ لقد أصاب منكما الحسد الفاضح مقتلا، ولكنكما لم تشعرا به إلا بعد فوات الأوان. كان عليكما في ذلك الحين، الذى كان الناس جميعهم يحتفلون بي فيه احتفالا

إلهيا، ويطلقون علي اسم إلهة الجمال الجديدة، أن تندبا حظكما وتبكيا وتحزنا علي كما لو كنت قد قضيت نحبي. إني أحس الآن وأرى أن اسم فينوس هو الذى حمل الموت إلي. فخذاني واذهبا بي إلى الصخرة، التي أرادت النبوءة أن أكون من نصيبها. فأنا أشعر برغبة في الاحتفال بهذا الزواج، وأشعر برغبة في رؤية زوجي النبيل بأسرع ما يكون. لماذا أمتنع، لماذا أرفض مجيء ذلك الذي خلق ليحطم العالم كله؟

هكذا تكلمت العذراء، وعندما سكتت، التحقت بخطى ثابتة بالموكب المرافق لها من أبناء الشعب. ومضوا بها إلى القمة المحددة في الجبل الشاهق، وتركوها في أعلى قمة فيه، وانصرفوا مخلفين هنالك شعل الزواج، التي كانت أضاءت لهم الطريق وانطفأت بعدئذ في دموعهم، وأخذوا طريقهم إلى بيوتهم مطأطئي الرؤوس. أما الأبوان الشقيان، اللذان أذهلتهما المحنة، فقد غلقا على نفسيهما في البيت، واختفيا في الظلام ليعيشا لوعتهما في سديم مستديم. وبقيت بسيشة فوق قمة الجبل، وهي ترتعد رعبا، وقد جفت عيناها من الدموع، وفجأة هبت نسمات غربية ناعمة، رفعت أهداب ثيابها، وملأتها هواء ورفعتها، وراحت تتماوج بها فوق هوة الصخرة المنحدرة، ثم وضعتها بهدوء وحذر في أعماق واد معشب.

الكتاب الخامس

نامت بسيشة فوق فراش من العشب الندي الناعم، بعد أن زايلتها تلك الانفعالات القوية، نوما هادئا. ولم تلبث أن نهضت من نومها وقد استعادت نشاطها وصفاء ذهنها. فأبصرت حديقة ذات أشجار كبيرة سامقة، ورأت عينا ينبجس منها ماء صاف كالبلور. وكان ثمة في وسط الحديقة، قرب العين المترقرقة تماما، قصر ملكي، لم تبنه أيد بشرية، وإنما شيدته الفنون الإلهية. ما أن يدخله المرء حتى يلاحظ أن هذا القصر الفاخر يسكنه إله ما يجد فيه كل متعته. فقد كانت الأعمدة الذهبية تسند سقفا عاليا من خشب الأرز والعاج، تعلوه نقوش بديعة، وكانت الجدران كلها مغطاة برسوم للحيوانات المفترسة وما أشبهها، هي أول ما تقع عليه عين الداخل. لا بد أن يكون إنسانا عجيبا، كلا لا بد أن يكون نصف إله أو إلها ذلك الذى استطاع أن يحول تلك الكتل الفضية الكثيرة بما له من فن سام ودقة متناهية إلى حيوانات حية. حتى الأرصفة كانت مغطاة بفسيفساء من الأحجار الكريمة مقسمة إلى مجموعات مختلفة من الصور. ما أسعد ذلك الذى يستطيع أن يطأ بقدميه هذه الأحجار واللآلىء النفيسة! وكانت الأقسام الأخرى من القصر تشكل بدورها كنزا لا يقدر ثمنه. لقد كانت الجدران، التي طليت من أعلى إلى أسفل بالذهب الخالص، تشع إلى درجة أن القصر كان له نهاره الخاص حتى في غياب الشمس. فالغرف تلتمع، والأروقة تلتمع، ومصاريع الأبواب تلتمع هي الأخرى. كان كل شيء مناسبا لفخامة القصر، بحيث يبدو حقا وصدقا أنه قصر سماوي، بني في الأرض لجوبيتر العظيم ليستقبل فيه البشر.

كان المكان المذهل يدعو بسيشة إلى الاقتراب منه، فتجرأت على اجتياز عتبته في ثقة، وسرعان ما أغراها الفضول بتأمل تلك الروائع، فراحت تشاهد كل شيء، وإذا بها ترى في الجانب الآخر من القصر دكاكين ذات بناء منقطع النظير مليئة بالتحف والنفائس. ـ ليس هناك من شيء لا يوجد فيها! وإذا كانت الثروة قد أثارت دهشتها إلى حد كبير، فإن الذى أدهشها أكثر هو أنه لم يكن هناك مزلاج ولا قفل ولا

حارس يسهر على حماية خزينة هذه الأرض كلها. وعندما كانت تتمعن في هذا كله في سرور كبير، خاطبها صوت خفي قائلا:

ـ ما لك تقفين، يا سيدتي، هكذا مشدوهة أمام هذه الثروة الوفيرة؟ إنها كلها لك! فادخلي الغرفة إذن، واستريحي فوق الفراش الوثير، وادخلي الحمام كما تشائين! سنقف، نحن اللواتي تسمعين أصواتهن، على خدمتك بصفتنا وصيفاتك، وستكون هناك مأدبة ملكية بعد انتهائك من العناية بجسدك.

شعرت بسيشة عندها بالامتنان للرعاية الإلهية، التي أحاطت بها، وامتثلت لإرشادات الأصوات الخفية، فنامت لتستعيد حيويتها. واستحمت بعد ذلك لتطرد عنها التعب نهائيا. وما أن لمحت قربها مكانا نصف دائري، حتى تصورت أنه غرفة الأكل، التي اعدت لها خصيصا لتناول طعامها، فجلست إلى المائدة مسرورة. وما أسرع ما وضعت فوق المائدة خمور لذيذة وأطعمة كثيرة متنوعة، لم يحملها خدم، وإنما نفخ بها الهواء فوقها. لم تستطع رؤية أحد، ولكنها كانت تسمع كلمات تسقط إليها، ولم تقف على خدمتها سوى الأصوات. بعد أن انتهت من تناول طعامها الوفير، دخل شخص وأخذ يغني دون أن تراه، وكان آخر يعزف على القيثارة، لم تكن هي نفسها تُرى. ثم تناهت إلى سمعها أغنية، تنطلق من أصوات عديدة منجسمة، لا بد أن يكون مصدرها الجوقة، رغم أنه لم يكن هناك أي إنسان.

وحين بلغت من هذه المتع نهايتها، استجابت بسيشة لنداء الليل، حين طرق سمعها نغم طريف، فقد خافت على طهارتها في مثل هذه الوحدة الكبيرة، واعتراها الفزع وراحت أوصالها ترتعد، فقد كانت تخشى هذا الذى لا تعرفة أكثر مما تخشى أية مصيبة أخرى. لكن سرعان ما حضر الزوج المجهول، وصعد إلى الفراش، واتخذها زوجا له، واختفى عنها بسرعة قبل أن يلوح نور الفجر. واعتنت الأصوات المقيمة في غرفة النوم بالزوجة التي فقدت عذريتها. وتوالى حدوث ذلك فترة طويلة، وصارت بسيشة تجد للجديد، كما تقتضي الطبيعة ذلك، لذة من كثرة ما تعودت عليه، وكانت الأصوات المجهولة عزاءها الوحيد في وحدتها.

كان أبواها في أثناء ذلك قد تقدمت بهما السن، والحزن والكرب لا يفارقهما على مدى الأيام. ولما انتشر خبر ذلك، وعرفت الأختان الكبريان عنهما كل شيء، غادرتا منزليهما كئيبتين حزينتين بسرعة، وذهبتا لزيارتهما ومواساتهما في تلك المحنة.

وفي تلك الليلة بدأ الزوج يحدث زوجته بسيشة ـ لم تكن تراه بعينيها، لكنها كانت

،حسه بيديها وتسمعه بأذنيها - ويقول لها:

- هناك، يا بسيشتي العذبة، أيتها الزوجة الغالية، خطر يهدد حياتك مصدره قدر غاشم. عليك فيما أتصور أن تحذريه وتحتاطي منه كل الحيطة. إن أختيك تعتقدان انك ميتة، وهما تبحثان الآن عن آثارك في هوس بالغ، وستظهران وشيكا فوق هذه الصخرة. إذا ما أنت سمعت نحيبهما، إياك أن تردي عليهما. لا تنظري إلى الخارج على الإطلاق، وإلا فإنك ستسببين لي أنا ألما رهيبا، وتسببين لنفسك أنت شقاء قاتلا.

أحنت رأسها موافقة، وأقسمت له أن تخضع لإرادته وتفعل ما يريده منها. على أن التعيسة كانت، بمجرد أن يختفي عنها زوجها مع الليل، تقضي يومها كله تبكي وتضرب بيدها على صدرها. ولا تفتأ تكرر على نفسها أن أمرها قد انتهى، لأنها - وقد نفيت إلى سجن رائع، محرومة من معاشرة البشر والحديث إليهم - لا تستطيع مواساة أختيها، اللتين تذوبان حزنا عليها، ولا حتى رؤيتهما على الإطلاق. لا الحمام ولا الطعام ولا الشراب قدر على أن يمتعها ويغريها باستعادة بهجة خاطرها، فآوت إلى فراشها بدموع منهمرة.

وحضر الزوج مبكرا قليلا على غير عادته، فعانقها وهي لا تزال تبكي، وقال يعاتبها في لطف:

- أهذا ما وعدتني به، يا بسيشة؟ ترى ما الذى أنتظره، ما الذى آمله منك، أنا زوجك؟ ما لك لا تكفين ليلا ونهارا وحتى وأنت بين ذراعي عن تعذيب نفسك؟ افعلي الآن ما تشائين، وطاوعي قلبك إن هو دفعك إلى ارتكاب الحماقات! عليك فقط أن تتذكري تحذيري الأول لك إذا ما أنت شعرت بالندم بعد فوات الأوان!

استطاعت بسيشة أن ترغم زوجها عن طريق التوسلات والتهديدات بأنها ستقضي نحبها إن هو لم يسمح لها برؤية أختيها والتسرية عنهما والحديث إليهما. وهكذا وافق على طلب زوجته الشابة وسمح لها فوق ذلك أن تهدي لأختيها ما تشاء من الحلي والذهب. لكنه كان يحذرها باستمرار وينهاها عن العمل بنصيحة أختيها الشريرتين بالسؤال عن طبيعة زوجها، فلا ينبغي لها أن تدع الفضول الآثم ينزلها من قمة السعادة التي هي فيها إلى الحضيض، لأن ذلك سيحرمها من الإحساس بمعانقته لها. شكرت زوجها، وقد عاودتها بهجة خاطرها، وقالت له:

- كلا! إني أفضل أن أموت ألف مرة على أن أحرم من النوم إلى جانبك! إني أحبك

من كل قلبي، ولتكن من تكون، فإني أعزك كما أعز روحي وما كنت لأضع إله الحب نفسه في منزلة أعلى من المنزلة التي أضعك فيها. إلا أنني أرجوك أن تلبي لي طلبا آخر وهو أن تأمر خادمك زفيروس (الريح الغربية) بإحضار أختي إلى هنا بالطريقة نفسها ووضعهما أمامي هاهنا!

وأقبلت عليه تغرقه بقبلاتها المغرية، وتفتنه بكلماتها المحابية، وتضمه باعضائها المتمايدة، وأضافت إلى إغرائها هذه الكلمات:

- يا حبيبي، يا زوجي، أنت روح بسيشة العذبة!

خضع الزوج لقوة الحب وسلطته رغما عنه، ووعدها بفعل كل شيء، واختفى من بين ذراعيها قبل اقتراب ضوء النهار.

كانت الأختان قد اكتشفتا في أثناء ذلك الصخرة والمكان، الذى تركت فيه بسيشة، فأقبلتا مسرعتين، وراحتا تبكيان وتلطمان صدريهما إلى أن رددت نواحي الصخرة نواحهما وآهاتهما. ثم أخذتا تدعوان أختهما باسمها، فانحدر صوت عويلهما فوق الهوة وبلغ بسيشة، فخرجت من بيتها، وقد أخرجها الانفعال عن طورها، وأقبلت مسرعة، وهي تقول:

- لماذا تسببان الحزن لنفسيكما بهذه الصرخات الكئيبة دون فائدة؟ إن التي تندبانها هنا، فهأنذي! اتركا صرخات العويل، وجففا أخيرا خدودكما المبللة بالدموع الغالية. ففي وسعكما الآن أن تعانقا تلك التي تبكيان عليها.

بعد ذلك دعت زفيروس وذكرته بما أمره به زوجها. فامتثل للأمر من غير تأخير، وحملهما إليها في طرفة عين بهبة ناعمة ورفقة مطمئنة. وأخذن يتعانقن في بهجة ويتبادلن القبل العاصفة، فتساقطت من عيونهن دموع رقيقة، لكنها كانت دموع الفرح، وقالت لهما:

- ادخلا البيت، وروحا عن نفسيكما من الانفعالات العاطفية في منزل أختكما بسيشة!

هكذا خاطبتهما، ثم أرتهما روائع القصر، وطلبت منهما أن يصغيا إلى الأصوات، التي تقوم على خدمتها، وأنعمت عليهما بدخول الحمام وتناول الأطعمة اللذيذة على مائدة سحرية. وبعد أن أخذتا كفايتهما من هذه اللذائذ السماوية، بدأت الغيرة تدب في أعماق قلبيهما، وفي النهاية لم تتمالك إحداهما نفسها، فبدأت تسألها في شيء

... الفضول والريبة عن صاحب هذه الأملاك السماوية وعن زوجها وعن طبيعته. إلا ا... يشة لم تعص أمر زوجها، ولم تبح بأسرار قلبها، واخترعت ما يناسب المقام، وا... ت انه شاب وسيم، بدأ شعر ناعم يظلل خديه، يقضي معظم وقته في الصيد المزارع والحقول أو بالجبال. وحتى لا تنفلت منها كلمة أثناء الحديث، تتم عن افكارها الخفية، راحت تحمل أختيها بالحلي الذهبية والأحجار الكريمة، ثم دعت ... هيروس وسلمتهما إليه ليعود بهما إلى البيت.

تم ذلك في الحين، وفي طريقهما إلى البيت، اشتغلت الغيرة في قلبي الأختين اللئيمتين، فتحدثتا عن أختيهما حديثا سيئا، وفي النهاية قالت إحداهما:

ـ لكم أنت قاس،أيها الحظ، وظالم أعمى! أيرضيك أن يكون لنا نصيب مختلف ونحن ننحدر من صلب الوالدين نفسيهما؟ لقد كان علينا، نحن الكبريين، أن نتزوج من رجلين غريبين، لنقوم على خدمتهما كالجواري، وأن نترك البيت والوطن، ونعيش بعيدتين عن والدينا وكأننا في المنفى. أما الصغرى، التي كانت آخر ثمرة من ثمرات الرحم المتعب، فقد صارت لها هذه الثروة، ومنحت إلها زوجا لها، مع أنها لا تعرف كيف تتصرف في هذه النعم كلها. لقد رأيت بعينيك، يا أختي، الحلي المبعثرة في البيت، وأنواع الثياب الملتمعة، والجواهر البراقة، ووفرة الذهب الذى تطأه الأقدام في كل مكان! إذا كان زوجها وسيما كما تدعي، فليس هناك من امرأة أسعد منها فوق ظهر البسيطة كلها. ولعل زوجها الإلهي سيجعل منها، عندما تتواصل عشرتها له ويشتد حبه لها، إلهة! أليس هذا محتملا؟ من المؤكد أن الأمر سيكون كذلك، فهي الآن تمشي وتقف كالآلهة! تنظر حولها في كبرياء، هي المرأة، لأن لها وصيفات من الأصوات، ولأنها تتأمر على الريح نفسها. لكني، أنا التعسة، تزوجت رجلا أكبر من أبي سنا أولا، وأكثر صلعا من قرعة وأقزم من أي طفل ثانيا، يحرص على غلق البيت كله بالمزاليج والسلاسل!

فأجابت الأخرى:

ـ كان حتما علي أنا أيضا أن أرضى برجل كسيح، يعاني من التهاب مفصلي، ولذلك لا يضاجعني إلا نادرا، فأقضي وقتي كله أدلك أصابعه المعوجة الصلبة، وأدنس يدي الناعمتين بالكمادات النتنة، والخرق القذرة، والضمادات المقرفة، فلا أظهر بمظهر الزوجة المحبة، وإنما أقوم بالدور العسير، الذى تقوم به الطبيبة. يمكنك، يا أختاه، أن تتحملي هذا بكثير من الصبر، بل بكثير من النفاق ـ فأنا أحب أن أعبر عما أحس به

صراحة ـ وترضي به. أما أنا فإني لن أرضى في المستقبل أن يكون مثل هذا المصير السعيد من نصيب إنسانة لا تستحقه. تذكري كيف كانت أختنا بسيشة تعاملنا بكبرياء وتتطاول علينا، وكيف برهنت على غرورها بما صدر عنها من ادعاءات مفرطة، ثم رمت لنا بهذه الأشياء القليلة من تلك الثروة الطائلة على كره منها، وأمرت، لأنها كانت قد سئمت وجودنا معها بسرعة، بأن نطرد وننفخ بعيدا! لا كنت امرأة، بل لا حييت إن أنا لم أسقطها من عليائها الفاخرة! وإذا كانت تصرفاتها تجاهنا قد أغضبتك أنت أيضا، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك، فدعينا نضع خطتنا معا! لا ينبغي أن نطلع أبوينا ولا أي شخص آخر غيرهما على هذه الهدايا، ولا ينبغي أن نذكر شيئا عن وضعها على الإطلاق. يكفينا أن نكون قد رأينا منها ما لم نكن نود رؤيته. لسنا بحاجة إلى أن نتحدث عن سعادتها الكبيرة أمام والدينا وأمام بقية الناس. وما هو بسعيد ذلك الذى لا يعرف أحد ثروته! عليها أن تعرف وشيكا أننا لسنا وصيفتين، وإنما نحن أختاها الأكبر منها سنا. لكن دعينا الآن نذهب إلى زوجينا وبيتينا العقيرين، ولكنهما شريفان بصورة مطلقة، وبعد أن نتروى في الأمر وندرسه جيدا، نعود ثانية، وقد تزودنا بقوة جديدة لمعاقبة غرورها!

هكذا اتخذت المرأتان الشريرتان قرارا شريرا بدل أن تتخذا قرارا خيرا، فأخفتا هداياهما الثمينة كلها، ونفشتا شعورهما وأحدثتا ـ وكانتا جديرتين بذلك ـ ندوبا كثيرة في وجهيهما، وعادتا إلى عويلهما منافقةً! فأرعبتا أبويهما، ونكأتا جراح آلامهما فعلا، ثم أسرعت كل منهما إلى بيتها منتفخة الأوداج، وهما تفكران في الاعتداء الإجرامي على أختهما البريئة، بل تفكران في قتلها.

كان الزوج المجهول قد حذر بسيشة من جديد، وقال لها خلال أحاديثه الليلية:

ـ ألا ترين الخطر الكبير الذى يهددك؟ لقد أخذت إلهة الحظ تناوشك من بعيد، وإذا أنت لم تأخذى حيطتك وتستعدي لذلك، فإنها ستلتحم بك وشيكا. إن الدنيئتين الماكرتين لتكيدان لك مكيدة لا مثيل لها. هدفهما الأول أن تشيرا عليك بالنظر إلى وجهي، الذى لن تريه أبدا ـ وما أكثر ما قلت لك ذلك! ـ إن أنت توصلت إلى رؤيته مرة. إذن عندما تأتي الماردتان الشريرتان ـ وستأتيان، فأنا أعلم ذلك ـ لا تتحدثي إليهما إطلاقا، وإن أنت لم تستطيعي ذلك لطيبتك وحنانك الفطري، فلا تصغي على الأقل إلى ما تقولان عن زوجك ولا تجيبين عنه. ستكبر عائلتنا أيضا، ورحمك الطفلي سيحمل لنا طفلا آخر ـ طفلا إلهيا إذا أنت لم تبوحي بسرنا، وطفلا فانيا إذا أنت

اا،هكت حرمة هذا السر!

سعدت بسيشة بهذا الخبر، وفتتها مُسليها السماوي، وأبهج نفسها كذلك رهان الحب المستقبلي، وجعلها اسم الأم تأتلق طلاقة وبشرا . وراحت تعد كيف تنمو الأيام وتنتهي الشهور، واستغربت، لأنها لم تكن متعودة على مثل هذا العبء الجديد، أن يكون جسدها قد امتلأ على هذا النحو من جراء لسعة صغيرة!

كانت الهولتان الشنيعتان في طريقهما إليها من جديد، وهما تنفخان السم وتسيران بسرعة دنيئة. فحذر الزوج، زوجته بسيشة، خلال زيارة عابرة لها، وقال لها مرة أخرى:

- لقد جاء اليوم الأخير، يوم الفصل في الأمر. لقد تسلحت المرأتان الشريرتان، ودماء الأعداء تجري في عروقهما، و بدأتا الزحف، وكونتا الجبهة، ونفختا البوق. إن أختيك توجهان سيفيهما المسلولين نحو عنقك لتقترفا ذنبا في حقك. أواه! يا لنا من هذه المتاعب، التي تزدحم علينا، يا حبيبتي بسيشة! ارحمي نفسك وارحمينا، حرري بسطوتك الوفية بيتك وزوجك، حرري زوجك وطفلنا الصغير، الذى ينام تحت قلبك، من هذه المحنة الوشيكة الوقوع! لا ينبغي لك أن تسمي تلك المجرمتين أختيك بعد أن دفعهما الحقد القاتل إلى تمريغ روابط الدم في التراب! لا تنظري إليهما ولا تصغي إلى ما تنطقان به عندما تجعلان أصداء صوتيهما تتردد عبر منحدرات الصخور كحوريات البحر يصدحن بأناشيد الموت من أعلى القمة!

فأجابت بسيشة، والبكاء والنحيب يخنقان كلماتها:

- لقد قدمت لك منذ مدة الدليل على أمانتي وكتماني، مع ذلك فلتكن لك عزيمة قلبي أيضا . فمر زفيروس بأداء فروض الطاعة. واسمح لي أن أرى، بدلا عن وجهك المقدس، الذى تخفيه عني، أختي على الأقل. أتوسل إليك بضفائرك المعطرة الناعمة، بخديك الناعمين المستديرين كخدي، بصدرك، الذى تجرى فيه حياة دافئة أجهل طبيعتها، بحق ما سأتعرف عليه من قسمات وجهك في هذاالطفل على الأقل، أن تدع قلبك يرق لتوسلاتي الخائفة، ورجائي المسترحم، وتسمح لي بمعانقة أختي، وتنعم على زوجتك بسيشة، التي تخضع لك خضوعا وفيا، بهذه البهجة الروحية. لن أطلب بعد رؤية وجهك، ولن أخشى الظلام بعد أيضا! - فأنت بين ذراعي، يا شمسي الساطعة!

سحرت الزوج معانقتها الرفيقة، فمسح دموعها بشعره، ووعدها بتلبية طلبها، واختفى قبل سطوع ضوء النهار.

انطلقت الأختان المتآمرتان من الباخرة مباشرة إلى تلك الصخرة، دون أن تزورا أبويهما مجرد زيارة، وألقتا بنفسيهما بسرعة فائقة وبجرأة متهورة، من غير أن تنتظرا وصول زفيروس، إلا أن زفيروس لم ينس الأمر الملكي، فنقلهما في حضن هباته دونما رغبة ووضعهما ثانية فوق الأرض. فبادرتا إلى دخول البيت دون تأخير وبخطى سريعة، وعانقتا ضحيتهما ـ وقد ادعتا كذبا وبهتانا أنهما أختاها، وأخفتا خديعتهما خلف طلاقة ملامح وجهيهما ـ وراحتا تتملقانها:

ـ لم تعودي، يا بسيشة، تلك الطفلة، التي كنتها في السابق، فأنت نفسك ستكونين أما في وقت قريب. فيا لها من سعادة تحملينها في بطنك! ستملئين بيتنا كله بهجة وسرورا. وما أسعدنا، نحن أختيك اللتين ستكون لنا فرحة تربية طفل ذهبي! وإذا كان له ـ وهذا شيء ضروري ـ جمال والديه، فإنه سيكون آمور حقيقيا.

وهكذا كسبتا ثقة أختيهما شيئا فشيئا عن طريق المشاركة الوجدانية المفتعلة، فدعتهما على الفور إلى الجلوس لستريحا من عناء السفر، وأعدت لهما حماما دافئا، ثم قدمت لهما في غرفة الأكل أطعمة لذيذة فاخرة من اللحم الملفوف المحمر في المرق المتبل. وأمرت بالعزف على القيثارة، فتعالت نغماتها، وبالعزف على الناي، فتصاعدت أنغامه، وبغناء الجوقة، فارتفعت أصواتها بالغناء. فنشأت عن ذلك كله، من غير أن يكون لشخص ما حضور هناك، أعذب الأنغام المنسجمة، التي أسرت قلوب المستمعات إليها. ولم تنل من حدتها. فقد وجهتا حديثهما نحو الفخ، الذى كانتا قد اتفقتا عليه، وبدأتا تسألان في مراءاة عن شخصية الزوج ونسبه ومهنته. وعند هذا الحد نسيت بسيشة ـ لسذاجتها وطيبة سريرتها ـ ما كانت قد أخبرتهما به في المرة السابقة، واختلقت كذبة جديدة وقالت لهما إن زوجها ينتسب إلى الإقليم المجاور، ويمارس تجارة واسعة، وقد بلغ متوسط العمر وبدأ شعره يبيض. إلا أنها أسرعت بالابتعاد عن موضوع الحديث، وحملتهما بالهدايا الثمينة، ثم سلمتهما إلى مركبتها الهوائية.

وبينما كان زفيروس يحمل الأختين في طريق عودتهما إلى البيت، راحتا تتبادلان كلمات جارحة:

ـ ماذا تقولين، يا أختاه، عن الكذب المنكر، الذى لجأت إليه هذه المجنونة؟ ذكرت

اما في المرة الماضية أنه شاب، طر شاربه لأول مرة، وقد بلغ الآن متوسط العمر، وبدأ شعره يبيض. ترى من يكون هذا الذى جعل منه الوقت القصير شيخا؟ عليك أن تعترفي لي، يا أختاه، بأن هذه اللئيمة إما أن تكون كاذبة وإما أنها لا تعرف هي نفسها صورة زوجها. مهما يكن في ذلك من حقيقة، فمن واجبنا أن نبعد عنها هذه الكنوز في أسرع وقت. إذا كانت لا تعرف وجه زوجها، فقد تزوجت ولا ريب إلها وهي تحمل في بطنها إلها. أما إذا كانت تسمي طفلا إلهيا ـ لا كان ذلك! ـ ابنها، فمن المؤكد أنني سأتناول في الحين حبلا وأشنق نفسي. لذا فلنذهب أولا إلى أبوينا ونتأمل ماذا يمكننا أن نضيفه إلى الموضوع الذى بدأناه من مكائد.

وفي غمرة اهتياجها هذا حيتا والديهما بتجهم، وقضتا ليلة مضطربة، لم تعرفا فيها طعم النوم. وفي الصباح انطلقت المرأتان الدنيئتان إلى الصخرة، وطارتا بمصاحبة زفيروس إلى الوهدة مثلما حدث في المرة السابقة، وعصرتا الدموع من عيونهما، وأخذتا تخاطبان في مكر الفتاة الشابة:

ـ ما جلوسك هكذا سعيدة مغتبطة إلا لأنك تجهلين الخطر الذى يهددك في بعدك عن الناس وفي عزلتك هذه. أما نحن، ومن واجبنا أن نسهر على حراسة شئونك بصورة مستمرة، فإننا نعاني العذاب لما أنت فيه من شقاء. إننا على يقين، وبإمكاننا أن نحدثك عن ذلك، لأننا نشاركك في حزنك وبؤسك، أن هناك أفعوانا رهيبا ذا عقد كثيرة وعنق منتفخ سما وفم غائر ـ يقيم عندك في الليل متخفيا. تذكري الآن أبولو الذى تنبأ لك بأنك ستتزوجين من مارد وحشي. لقد رآه عدد كبير من الصيادين والفلاحين وسكان المنطقة عندما عاد في المساء بعد أن تناول طعامه وسبح في مخاضة النهر المجاور، وهم يؤكدون أنه لم يطعمك بهذا السخاء مدة طويلة إلا ليلتهمك عندما يمتلىء جسدك ويصل حملك إلى نهايته مع طفلك بوصفه ثمرة إضافية دسمة. لذلك فإن عليك أن تقرري الآن ما إذا كنت توافقين أختيك، اللتين تشعران بالقلق على حياتك، وتفرين من الموت لتعيشي معنا أم أنك تفضلين أن تستقري في بطن الأفعوان الرهيب. أما إذا كانت هذه الوحدة المنغومة تجذبك إليها في هذه الضيعة أو تبهجك مضاجعات الأفعوان السام السرية ومعانقاته المنفرة، فقد قمنا نحن، بصفتنا أختين عطوفتين، بما يجب على إلى الأقل.

هنا فقدت بسيشة، الفتاة المسكينة، وهي على ما هي عليه من رقة وسذاجة، تماسكها أمام هذه الكلمات المفزعة، فنسيت في حالتها هذه تحذيرات زوجها كلها

والوعود، التي كانت قد أخذتها على نفسها، لترمي بنفسها في مهاوي الشقاء. قالت لأختيها بصوت نصف مختنق وهي مرتعدة شاحبة :

- أختي العزيزتين، لقد بقيتما، كما كان منتظرا منكما، وفيتين لما تتطلبه الأسرة من اعتزاز بها. إن أولئك، الذين أكدوا لكما ذلك، لم يقولوا كذبا بالنسبة إلي أيضا. فأنا لم أر وجه زوجي قط، ولا أعرف إطلاقا من أي نمط هو. إني أسمع أصواتا ليلية وأسلم نفسي لرجل عديم الشكل يخشى النور حقا. وإذا كان ما تقولانه من أنه وحش من الوحوش صحيحا، فأنا أوافقكما على ذلك. إنه يفزعي دائما من أن أحاول رؤيته، ويتبأ لي بالشقاء إن أنا دفعني الفضول إلى رؤية وجهه. إذا كان في وسعكما إنقاذ أختيكما، فعليكما أن تفعلا ذلك الآن، وإلا فإن فراغ ذهني سيقضي على حيطتي السابقة.

عندما فتحت الأبواب للمرأتين الشريرتين، وتم لهما الاستيلاء على روح أختيهما، كشفتا النقاب عن مآمرتهما السرية، وراحتا تقتحمان بالسيوف المسلولة ذهن الفتاة الساذجة. قالت إحداهما:

- إن روابط الدم تتطلب منا أن ندفع عنك أقل خطر، ولذلك نريد أن نرشدك إلى الطريق الوحيد، الذى يقودك إلى النجاة، وقد فكرنا فيه طويلا وطويلا. خذي مدية قاطعة، واشحذيها على راحة يدك لتكون أكثر مضاء، وضعيها خفية بجانب الفراش، الذى تنامين عليه، ثم خذي مصباحا مملوءا زيتا يرسل ضوءا حادا، وخبئيه تحت غطاء ما بالغرفة. عليك أن تأخذي حذرك حتى تتم كل هذه الاستعدادات في سرية تامة. وحين يتسلل بعدئذ بخطى بطيئة إلى فراشه المعتاد، ويستلقي فوقه، ويغرق في نومه الأول العميق، أتركي فراشك، واتجهي على رؤوس أصابعك حافية القدمين خطوة خطوة إلى المصباح، وانزعي الغطاء عنه، واغتنمي فرصة نوره للقيام بعملك المجيد: تمالكي نفسك، وارفعي يدك اليمنى، وافصلي بكل ما لك من قوة رأس الأفعوان الشرير عن عنقه بتلك المدية، التي شحذت مرتين! لن نبخل عليك بمساعدتنا، ولن نبرح مكاننا حتى تنقذي نفسك بقتله، وبعد ذلك نساعدك في حمل هذه الأشياء كلها بسرعة ونمضي بك لنزوجك زواج إنسان من إنسان!

أشعلت هذه الكلمات النار في أوصال أختيهما، وعندما أصبحت لهيبا، تركتاها خشية أن تلحقهما هذه النار أيضا، وأسرعتا فوق أجنحة الريح المعتادة، وركبتا السفينة عائدتين إلى البيت.

بقيت بسيشة وحيدة، غير أن إنسانا تعرض إلى تحريض ساحرتين ساخطتين ليس وحيدا. لقد اعتراها ما يعتري البحر من اضطراب صعودا وهبوطا، مع أن مخططها كان ثابتا وعزمها أكيدا. لكنها صارت الآن، وهي تريد أن ترتكب الجريمة مترددة خائفة، تتعاور قلبها مشاعر كثيرة. فكانت تسرع وتتردد، تتجرأ وترتعد، ترتاب وتغضب، والأسوأ من ذلك أنها كانت تكره، في الكائن نفسه، الأفعوان وتحب الزوج. وعندما حل المساء أعدت بسرعة كل ما يلزم لارتكاب الجريمة.

أقبل الليل، وجاء الزوج، وخاض معها معركة الحب، ثم غرق في نوم عميق. حينئذ اكتنفت بسيشة، وهي التي كانت عادة ناعمة جسدا وفكرا، قوى جديدة أرادها لها قدرها المشؤوم، فأخذت المصباح، وتناولت المدية، وقد جعلتها جرأتها تنسى جنسها. ولكن ما أن أضاء النور أسرار الفراش، حتى أبصرت أجمل الوحوش وألطفها كلها، أبصرته هو نفسه، كوبيدو الرائع في نومه الوديع. عند رؤيته احمر نور المصباح فرحة وحبورا، بينما فزعت المدية بحدها الدنيء. أما بسيشة فقد وقعت بعد أن فاجأها هذا المنظر، وفقدت سيطرتها على نفسها، وتحكمها في فكرها، واعتراها الشحوب، وأخذتها الرجفة ـ وقعت على ركبتيها، وحاولت أن تخفي المدية، ـ أن تخفيها في صدرها! وكانت ستفعل ذلك لو لم تثب المدية عن يديها الطائشتين وتطير بعيدا خوفا من ارتكاب مثل هذه الجريمة النكراء. واستبد بها الوهن والعياء، فراحت تجمع نفسها وهي تتأمل من جديد وجه الإله الجميل. أخذت تنظر إلى شعره الذهبي المضمخ بعطر المسرة، وعنقه الأبيض كالثلج، وخديه الأرجوانيين، اللذين تحف بهما خصلات متموجة، جعلت ضوي المصباح نفسه يخفق أمام لمعانه المتألق. وكانت الأجنحة الندية تلتمع فوق كتفي الإله المجنح كالبراعم المتلألئة. ومع أن جناحين كانا ساكنين، فإن رؤوس الريش الناعم كانت لا تكف عن الحفيف والرفيف. وفيما عدا ذلك كان جسمه ناعما مضيئا بحيث إن إلهة الجمال ما كانت لتخجل من أمومتها له.

وعلى مقربة من الفراش كانت هناك الجعبة والقوس والسهام، أسلحة الإله العظيم المسعدة. وبينما كانت بسيشة تحدق في هذا بشغف كبير وبشيء من الفضول، وتتلمس معجبة أسلحة زوجها، أخرجت سهما من الجعبة، وغرزته في إبهامها لتختبر رأسه الحاد. لكنها فعلت ذلك بقوة، إذ كانت يدها لا تزال ترتعد، فسالت دماؤها الوردية وتزحلقت فوق بشرتها الناعمة. وهكذا عشقت بسيشة نفسها إله الحب دون أن تدري بذلك!

في تلك اللحظة أخذ شوقها إلى إله الشوق يزداد بصورة متنامية، فانحنت فوقه في لهفة ظمأى، وراحت تدثره بقبلاتها الشهية، وهي تخشى في الوقت نفسه أن يستيقظ من نومه، ولم تهدأ لما كان يعتمل في نفسها من انفعال وتأثر بما هي فيه من سعادة عظمى، فأسقط المصباح ـ خيانة منه أو حسدا أو حبا في ملامسة هذا الجسم البديع وتقبيله على نحو ما ـ من رأس الشعلة نقطة حارة فوق كتف الإله اليمنى.

الويل لك، أيها المصباح المتطاول الوقح، يا خادم الحب الرخيص! إنك لتحرق إله النيران كلها، أنت الذى لم يخترعك سوى عاشق لينعم في الليل أيضا بتحقيق رغباته!

شعر الإله بالحرق، فاستيقظ، وعندما لاحظ خيانتها لثقته وتحطيمها لها، طار عنها، هي التعسة، مبتعدا في صمت عن قبلاتها وعن ذراعيها. إلا أنها تمسكت، حين ارتفع عنها، برجله اليمنى بكلتا يديها، وكانت ستكون عبئا إضافيا محزنا له في رحلته السماوية وهي تطير معه عبر السحب مصاحبة له ومرافقة. لولا أنها سقطت في النهاية فوق الأرض من التعب والعياء. لم يتركها العاشق الإلهي طريحة فوق الأرض من فوره، وإنما طار إلى أقرب شجرة من أشجار السرو، وخاطبها من قمتها في ثورة كبيرة قائلا:

ـ لقد عصيتُ، يا بسيشة الساذجة التعسة، أوامر أمي، إلهة الجمال، التي كانت تريدني أن أجعلك تقعين في حب رجل بائس منحط وتتزوجين منه زواجا في غاية الخسة، ورضيت أن أكون أنا نفسي عاشقا لك، فطرت إليك. لكن تصرفي هذا كان نزقا، إني لأعلم ذلك، فقد أصبت نفسي، أنا الرامي الشهير، بالسهم الذى كنت قد رميته، واتخذتك زوجا لي. ـ ولأية غاية ؟ من أجل أن تعتبريني في النهاية أفعوانا وتقطعي رأسي، الذى يحمل عينين تعشقانك! لقد طلبت منك قبل هذا أن تحتاطي من ذلك، حرصت على أن أحذرك من ذلك. ستنال أختاك، اللتان أشارتا عليك بفعل ما فعلت رغم فظاعته، عقابهما على الفور. أما أنت فلن أعاقبك إلا بفراري منك.

بعد هذه الكلمات ارتفع بجناحيه في الفضاء. وتابعت بسيشة، وهي منطرحة فوق الأرض، طيران زوجها بنظرها على قدر ما استطاعت رؤيته، وقد أضناها الحزن والبكاء الأليم. وما أن حمله جناحاه فوق السحب واختفى في الأماكن العليا، حتى ألقت بنفسها فجأة من فوق ضفة النهر القريب، غير أن النهر الوديع دفعها ـ طبعا احتراما للإله الذى يعرف كيف يلهب أمواج الماء أيضا ـ فوق أمواجه الناعمة وحرص

على أن يوصلها سالمة إلى الضفة المزدهرة.

كان بان، إله المزارع والمروج، جالسا مصادفة على منحدر النهر، وهو يحضن بين ذراعيه إيخو (الصدى)، إلهة الجبال، ويعلمها كيف تتغنى بالأغاني الجميلة المختلفة. وكان قطيع الماعز يرعى قرب الضفة في مرح، ويخلى المرج من حشائشه وأعشابه. فدعا الإله بان، الذى كانت أقدامه تشبه أقدام التيس، بسيشة التعسة إليه ـ لقد بدا عليه وكأنه يعرف قصتها على نحو ما ـ يهدىء من روعها موجها إليها هذه الكلمات المؤثرة:

ـ ما أنا، أيها الفتاة الجميلة، إلا فلاح وراع، إلا أن سني المتقدمة سمحت لي باكتساب تجارب كثيرة. لهذ أستنتج، إن صح ما أظنه ـ والأذكياء يتحدثون في مثل هذه الحالة عن الفراسة ـ من خطواتك المضطربة المترنحة ومن شحوب وجهك وتنهداتك العميقة، بل من عينيك الحزينتين، أنك تعانين من ألم الحب! فاصغي إلي إذن، لا تحاولي مرة أخرى الانتحار بإلقاء نفسك في الهاوية أو القيام بأي عمل آخر عنيف! تخلي عن الحزن، وانسي ما أنت فيه من كمد، فالأفضل لك أن تتوجهي بالدعاء إلى كوبيدو، رب الأرباب، وحاولي أن تميليه إليك عن طرق التقرب إليه ومحاباته، فهو شاب ظريف مترف!

هكذا تكلم إله الرعاة، ولكن بسيشة لم ترد عليه بكلمة واحدة، وإنما أنحنت إجلالا للإله الذى أظهر نحوها مشاعره الطيبة، وواصلت طريقها. وبعدما قطعت مسافة طويلة نوعا ما، سارت خلالها متعبة على غير هدى، قادها طريق ضيق مجهول، وقد جنحت الشمس إلى الغروب إلى مدينة، كان ملكها زوج إحدى أختيها. وعندما عرفت بسيشة ذلك، أرسلت من يخبر أختها بوصولها إلى المدينة. وأخذت إليها في الحين، فتعانقتا عناقا حارا، ثم سألتها أختها عن سبب مجيئها، فقالت لها:

ـ أنت تذكرين النصيحة، التي أقنعتماني بها، وأشرتما علي فيها أن أقتل الأفعوان، الذى اتخذ لنفسه اسم الزوج المزيف وسكن إلي، بالمدية الحادة قبل أن يبتلعني، أنا الشقية، فمه الرهيب! لكني ما أن أضأت وجهه بنور المصباح، بناء على ما تم الاتفاق عليه بيننا، حتى رأيت منظرا إلهيا رائعا. لقد رأيت ابن إلهة الجمال فينوس نفسه، أجل، رأيت كوبيدو نفسه، وقد نام نوما وديعا. وبينما كنت أنظر إليه، وأنا أرتعد من فرط ما كنت أشعر به من سعادة غامرة، وأنعم بهذه البهجة دون أن أعرف كيف أطفيء شوقي إليه، أسقط المصباح ـ ويا لها من حادثة أليمة! ـ قطرة حارة من الزيت فوق

كتفه، فأيقظه من نومه ما حل به من ألم في الحال. وحين رآني أحمل الحديد والنار، قال لي: "ها أنت قد ارتكبت من جهتك فعلة نكراء، فعليك بسبب ذلك أن تغادري فراشي، وفي وسعك أن تحتفظي بأشيائك كلها، فالطلاق بيننا. أما أنا من جهتي، فإني سأتخذ الآن أختك ـ وذكر اسمك ـ زوجة لي حسب الأصول. "وأمر بعدئذ زفيروس بحملي خارج حدود بيته.

قبل أن تنتهي بسيشة من حديثها، ثار في نفس أختها طموح جنوني وحسد بغيض، فاختلقت لزوجها عذرا مناسبا، إذ ادعت أنها سمعت بموت والديها، وركبت السفينة فورا، واتجهت مباشرة إلى تلك الصخرة. ومع أن الريح كانت غير الريح، فقد راحت تقول، وهي تلهث من فرط الأمل الكاذب: "خذني إليك، يا كوبيدو، فأنا الزوجة المناسبة لك، وأنت يا زفيروس، احمل سيدتك!" وألقت بنفسها بوثبة قوية في الهاوية، ولكنها لم تصل إلى هدفها حتى وهي ميتة، فقد تحطمت عظامها فوق نواتىء الصخرة، وتمزقت أحشاؤها، وهو ما كانت تستحقه تماما، فماتت وصارت فريسة للطيور والحيوانات المفترسة.

ولم يتأخر العقاب الثاني أيضا، ذلك أن بسيشة وصلت أيضا في سفرتها التائهة إلى المدينة الأخرى، التي كانت تقيم فيها أختها الثانية، فأسرعت هي الأخرى، وقد انخدعت بحيلة أختها وأرادته مثل أختها عرسا خسيسا لها، إلى الصخرة ولقيت حتفها بطريقة مماثلة.

كانت بسيشة في أثناء ذلك تطوف البلاد، لا هدف لها سوى البحث عن كوبيدو، بينما كان هو يعاني ألم الحرق، الذى سببه له المصباح، ويلازم فراشه متوجعا.

في ذلك الحين غطس النورس، الذى يستطيع أن يشق أمواج البحر بجناحيه، إلى أعماق المحيط بسرعة، وجلس إلى إلهة الجمال، التي كانت تغتسل وتستحم في تلك اللحظة، وأخبرها أن ابنها يعاني من الحرق وأنه قد لزم فراشه متوجعا يشكو ألمه، ومن المشكوك فيه أن ينجو منه. وما من مكان يصغي فيه الإنسان إلا سمع لجميع الناس همهمات وشتائم تتصل بسوء سمعة إلهة الجمال كلها "لأنكما اختفيتما، فانصرف هو إلى أعمال الفسق في الجبال، وانصرفت أنت إلى الاستحمام في البحر." وبناء على ذلك لم تعد هناك أية تسلية ولا متعة ولا فكاهة، فلا زواج يتم، ولا رابطة صداقة تعقد، ولا رغبة في الأطفال تنمو، كل ما هنالك فوضى رهيبة وعلاقات مبتذلة كريهة مقرفة.

كان هذا هو ما همس به الطائر الثرثار الوقح في أذن إلهة الجمال فينوس، ولم يتورع عن المساس بسمعة ابنها. فغضبت إلهة الجمال وصرخت قائلة:

- أتكون لابني الطيب خليلة إذن؟ أنت الوحيد، الذى يخدمني بإخلاص، أيها النورس! هيا، أذكر لي اسم تلك التي لعبت بعقل الفتى النبيل الأمرد، ولتكن عروسا من عرائس الماء أو واحدة من ربات الطبيعة أو من عرائس الفن أو من ربات الظرف والجمال!

لم يصمت الطائر الثرثار، وإنما قال:

- لا أعرف، يا سيدتي، لكني أعتقد أنه متيم بفتاة - تدعى، إن لم تخني الذاكرة، بسيشة- حتى الموت.

انفجرت إلهة الجمال غضبا:

- إذن فهو يحب بسيشة، التي تنافسني في جمالي وتقلدني في اسمي! إن كان يحبها حقا، فإن هذا الطفل البشع قد اعتبرني قوادة، لأني أنا التي كنت قد عرفته عليها!

نطقت بهذه الكلمات الغاضبة، وخرجت من البحر فورا، ومضت إلى غرفة نومها الذهبية. وحين وجدت ابنها مريضا فعلا، ضجت بالشكوى قدر طاقتها، وصاحت به:

- يا لها من قصة رائعة، تليق بمقامنا وبخصالك الجميلة! لقد دست أولا على أوامر أمك، بل سيدتك، فلم تعاقب عدوتي وتسلط عليها حبا دنيئا، وخرجت ثانيا بوصفك شابا غرا عن الأعراف المتبعة، فاتخذتها عشيقة لك، وأرغمتني على أن تكون عدوتي كنة لي! أتعتبر نفسك، أيها التافه الغاوي السافل، وريثي الوحيد، وترى الأمر منتهيا، لأني لا أستطيع أبدا أن أكون أما نظرا لتقدم سني؟ فاعلم إذن أنه أستطيع أن ألد ابنا أفضل منك، بل سأتبنى، حتى تشعر بوضاعة أكبر، واحدا من أبناء خدمي، وأهبه جناحيك وشعلتك وقوسك مع السهام كلها وجميع أدواتي، التي أقدمها لك لهذا الغرض، ذلك أن أباك (فولكانوس) لم يساهم في هذه العدة بشيء إطلاقا. على أن سلوكك كان سيئا منذ أيام طفولتك، فكانت يداك دائما طليقتين، تضرب بهما الكبار في عناد وإصرار، تضرب حتى أمك، أجل، كنت تضربني أنا نفسي، أيها القاتل اللعين! كنت تمزق ثيابك يوميا، وكثيرا ما كنت تضربني حتى يسيل دمي، وتستهين بي وكأن البيت لم يكن فيه رجل. لم تكن تخاف حتى زوج أمك (مارس)، المحارب الجريء

الرائع. واها! لقد كنت تقود إليه الفتيات على حساب ظروفي الخاصة! لكني سأعمل على أن تندم على هذا الطيش وتشعر بكل ما في الحياة الزوجية من مرارة. ـ ماذا أفعل الآن وقد خدعت ؟ وإلى أين أتجه؟ وبأية طريقة أروض هذه السحلية؟ هل أستعين بعدوتي، القناعة، التي كثيرا ما أهنتها بسبب مزاحات هذا الولد؟ لكني لا أطيق الحديث مع هذه المرأة الريفية القذرة، فنفسي تشمئز منها. ومع ذلك فإن الانتقام العذب لا يُستهان به من أية جهة كان. لا بد أن أستعين بالقناعة دون غيرها لتأدب هذا التافه كما ينبغي، فتنزع جعبته عن حزامه، وتجرده من سهامه، وترخي قوسه، وتطفئ شعلته، وتعالجه هو نفسه ببعض الأدوية الحادة. وسأعد ذلك تكفيرا منها عن إهانتها لي، عندما تقص شعره، الذى مسحت لمعانه الذهبي بيدي هاتين مرات عديدة، وتقطع جناحيه، اللذين طالما بللتهما في حضني بالرحيق.

اندفعت بعدئذ إلى الخارج، وهي غاضبة حانقة، كما هو شأن إلهة الجمال في مثل هذا الظرف، فالتقت بها سيريس وجونو، فاندهشتا لمنظرها الثائر وسألتاها لماذا تخفي جمال عينيها المشعتين خلف غضون الغضب المعتمة، فأجابتهما قائلة:

ـ لقد جئتما في الوقت المناسب لتخففا من حدة ما يلهب مشاعري. إني لأرجوكما وألح في الرجاء أن تبحثا لي بكل ما لديكما من سلطة عن بسيشة الهاربة المتسكعة! أنتما تعرفان يقينا تلك الإشاعة المزية عن بيتي وعن ابني الطائش.

كانتا تعرفان فعلا ما حدث، فحاولتا الآن التخفيف من حدة غضب إلهة الجمال:

ـ وما هي الجريمة النكراء، التي ارتكبها ابنك، أيتها المبجلة، حتى تعارضيه في ميوله العاطفية وتحرصي على القضاء على الفتاة التي يحبها؟ خبرينا، أين الجريمة في أن يكون قد ابتسم لفتاة جميلة؟ ألا تعلمين أنه رجل شاب، أم تراك قد نسيت السن التي بلغها؟ أتعتقدين أن عليه أن يظل صبيا، لأنه يسلك سلوكا لطيفا يتناسب مع شبابه؟ أتريدين بصفتك أما وامرأة، لها قلب يستقر في مكانه الصحيح، أن تتبعي دائما ما يفعله ابنك في أوقات اللهو واللعب، وتنقمي عليه مغامراته وتقمعي نزواته العابرة، وتعاتبي ابنك الجميل على الفنون الخاصة بك، على الملذات الخاصة بك ؟ من من الآلهة، من البشر يقبل منك أن تزرعي الحب في كل مكان من الأرض، إذا كنت تمنعين في بيتك الحب العابر بكل بقسوة، وتغلقين المدرسة العامة لإغراء الشباب؟

هكذا كانتا تدافعان عن كوبيدو في تملق خوفا من نباله، رغم أنه لم يكن حاضرا. لكن إلهة الجمال غضبت، لأنهما سخرتا من الأذى، الذى لحق بها، فانصرفت عنهما،

وأخذت من توها الجهة المعاكسة وسارت في اتجاه البحر.

الكتاب السادس

كانت بسيشة في أثناء ذلك تجوب البلاد وتبحث عن زوجها ليلا ونهارا دون أن يعرف قلبها الراحة. كانت تريد أن تسترضيه، مهما بلغ غضبه، بتوسلاتها المسترحمة إن عز عليها أن تسكن ثائره بمداعباتها الزوجية. وما أن لمحت معبدا فوق قمة جبل سامقة، حتى صرخت:

- من يدري أن سيدي لا يقيم هناك؟

ووجهت خطاها المسرعة إليه على الفور، وكانت متعبة، ولكنها كانت تغالب تعبها بما كانت تشعر به من شوق وأمل. بعد أن تسلقت الجبل بنشاط وبلغت القمة، دخلت المعبد واقتربت من مقر الآلهة. فأبصرت سنابل مكومة من القمح وأخرى قد ضفرت إكليلا، وأبصرت كذلك سنابل الشعير، ورأت المناجل أيضا وبقية أدوات الحصاد. كان كل ذلك ملقى هنالك في فوضى على غرار ما يلقي به العمال فوق الأرض في الأيام الحارة. ففرزتها بسيشة بعناية قطعة قطعة بعضها عن بعض ووضعتها جانبا متفرقة ورتبتها بصورة منتظمة. فقد رأت أنها لا يحق لها أن تهمل معابد الآلهة وتقاليدها المقدسة، بل يجب أن ترجو منها أن تسبغ عليها فضلها ونعمتها.

وبينما كانت منشغلة بذلك في نشاط جم، لمحتها سيريس المنعمة، فخاطبتها من بعيد فورا:

- أممكن هذا، يا بسيشة المسكينة؟ إن إلهة الجمال تبحث عنك عبر الكرة الأرضية كلها دونما راحة، علها تجد لك أثرا، لأنها تريد أن تنزل بك عقابا شديدا وتنتقم منك بكل جلالتها. فما لي أراك الآن تهتمين بشؤوني أنا، وتفكرين في شيء آخر غير التفكير في خلاصك من ورطتك؟

حينئذ ألقت بسيشة بنفسها عند قدميها، وبللت القدمين الإلهيتين بدموعها الغزيرة، ومسحت الأرض بشعرها، وراحت تتوسل إليها في خشوع كبير:

ـ أتوسل إليك بيمناك الحاملة لهذه الثمار، بتقاليد الحصاد الجالبة للمسرة، بصناديق الأسرار المكتومة، بعربتك التي تجرها التنانين المجنحة، بمروج صقلية الخددة، بالعجلات الشديدة السرعة، بالأرض الصلبة، بنزول بروسيربينا إلى العالم السفلي لعقد قرانها الغامض، وصعود البنت إلى لقائها النير، وبذلك الذى تغلفه الجنة الأتيكية بالصمت ـ قفي إلى جانب روح بسيشة الجديرة بالرحمة، التي تجثو أمامك متوسلة إليك! دعيني تختفي بضعة أيام تحت هذه الكومة من السنابل إلى أن تهدأ ثورة الإلهة العظيمة أو تعود إلي قواي على الأقل بعد عذابي الطويل.

فأجبتها سيريس:

ـ لقد أثرت في قلبي دموعك وتوسلاتك، ولكم أود مساعدتك، لكني لا أريد أن تسوء علاقتي بقريبتي، التي تربطني بها صداقة منذ مدة طويلة، وهي إلى ذلك في حقيقة الأمر امرأة طيبة. لذلك يجب عليك أن تبتعدي عن هذا البيت من غير إبطاء واحمدي حسن حظك على أنني لم ألق القبض عليك ولم أسجنك.

هكذا خاب أمل بسيشة، وتضاعف حزنها، فعادت أدراجها، وإذا بها تبصر في حضن الوهدة معبدا وسط حديقة ماتعة، بنته يد صناع. ولما كانت لا تريد أن تترك أي طريق، يمكن أن يبعث فيها الأمل من جديد، وكانت ترغب في أن يصبغ عليها كل إله نعمته، فقد اقتربت من العتبة المقدسة. فرأت هناك هبات نفيسة وأزرا مطرزة بحروف ذهبية، علقت بفروع الأشجار والأعمدة، وهي تحمل، إلى جانب الشكر على النعمة، اسم الإلهة، التي أهديت إليها. فجثت على قدميها، وأحاطت المذبح الدافىء بذراعيها، ومسحت دموعها، وراحت تبتهل هكذا:

ـ يا أخت جوبيتر العظيم وزوجته، سواء كنت تقيمين في معبد ساموس ـ وهو الوحيد الذى يفخر بولادتك، وبنهنهتك الأولى وبرضاعك فيه ـ بين الأروقة القديمة المقدسة، أم كنت تجلسين فوق عرشك السعيد في أعالي قرطاجنة السامقة، التي قدستك وأنت عذراء حين رفعتك العربة، التي تجرها الأسود نحو السماء، أو كنت على ضفاف وادي إيناخوس، الذى يذكرك بوصفك زوجة للرعد وملكة الآلهة، تحمين أسوار أرغوس الشهيرة، أنت التي يعبدك الشرق كله بصفتك زيغيا (حارسة الزواج) ويسميك الغرب كله لوسينا (قابلة): كوني منقذتي، يا يونو، وحرريني من خوفي، أنا المتعبة حتى الموت باحتمالي لمثل هذه الآلام، خوفي من الخطر الذى يهددني! إني لأعلم أن من عادتك أن تعرضي مساعدتك على الحوامل.

وبينما كانت تبتهل هكذا جاثية فوق ركبتيها، ظهرت لها في اللحظة نفسها يونو بكل جلالتها الإلهية، وخاطبتها قائلة:

ـ كان بودي، يا بسيشة، أن أجعل آوامري مطابقة لرغباتك، كوني عل ثقة من هذا! لكن هناك اعتبارات، تمنعني من معارضة إرادة إلهة الجمال فينوس، فهي كنتي، وقد كنت دائما أحبها حب الأم لابنتها، ثم إن الشرائع لا تبيح لي أن أستقبل العبيد الآبقين ضد إرادة أسيادهم.

خارت عزيمة بسيشة عندما رأت محاولاتها تبوء بالفشل من جديد، وأصبحت عاجزة تماما عن البحث عن زوجها المجنح، فتخلت عن كل أمل لها في النجاة، وراحت تتابع أفكارها على هذا المنوال:

ـ ترى هل هناك وسائل أخرى، تخفف عني آلامي، أحاولها أو ألجأ إليها إذا كانت الإلهتان نفسهما، على ما لهما من رغبة في ذلك، لا تستطيعان مساعدتي بصوتهما؟ إلى أين أوجه خطاي، وقد وقعت في الشبكة، تحت أي سقف، بل في أي مخبأ أختفي عن عيني فينوس النافذتين؟ لماذا لا تمدين قلبك في النهاية بشجاعة الرجل، وتتخلين عن بريق الأمل الخادع، وتسلمين نفسك طواعية لسيدتك حتى تلييني غضبها المتفجر بخضوعك لها، ولو جاء هذا الخضوع متأخرا؟ ومن أدراك أنك ستجدين من تبحثي عنه منذ مدة في بيت أمه؟

هيأت نفسها على هذا الوجه للخضوع المريب، بل هيأت نفسها لنهايتها الأكيدة، وأخذت تفكر في الطريقة، التي تبدأ بها في التماس الرحمة والمغفرة.

لكن الإلهة كانت قد تخلت عن البحث عنها في الأرض وقررت الصعود إلى السماء، فأمرت بإعداد عربتها، التي كان فولكانوس، صائغ الذهب، قد صنعها وزخرفها بشكل رائع، وقدمها لها هدية في حفلة زفافها، وقد أعاد لها المبرد ما فقده ذهبه الخالص بفعل التلف والاستهلاك من قيمة فنية رائعة. وبرزت من بين الحمائم الكثيرة، التي كانت تضرب بأجنحتها حول مضجع السيدة، أربع حمامات بيض، وهي تتبختر في غبطة، وتدير أعناقها المتعددة الألوان، ودخلت تحت النير المرصع بالجواهر، وتركت سيدتها تأخذ مكانها في العربة، ثم طارت بها بعيدا في بهجة. وتبعت العصافير العربة تزقزق عابثة، وكانت الطيور المغردة كلها ترسل أعذب أهازيجها وأغانيها لتبشر بوصول إلهة الجمال. وانحسرت السحب، وانفتحت السماء لابنتها، واستقبلها الأثير الأعلى بفرحة، وما كان موكبها من الطيور الصداحة ليخشى النسور والصقور الجارحة.

واتجهت إلهة الجمال مباشرة إلى قلعة جوبيتر الملكية، وطلبت منه بلهجة آمرة أن يضع تحت تصرفها في الحين ميركور (عطارد)، صاحب الصوت القوي، لأمر مستعجل، فلم يومىء حاجب جوبيتر الأسود بالرفض. ونزلت فينوس بعدئذ من السماء في زهو، وكان ميركور برفقتها، فأخذت توضح له ما يشغلها بهذه الكلمات:

ـ أنت تعلم، أيها الأخ الأركادي، أن أختك فينوس لم تفعل شيئا أبدا دون أن يكون إلى جانبها ميركور، وليس بخاف عليك بتاتا منذ متى وأنا أبحث عن تلك الجارية المتخفية. لم يبق لي الآن إلا أن تعلن أنت، بصفتك الداعي، عن مكافأة لمن يجد لها أثرا. فاحرص إذن على أن تنفذ ما أطلبه منك بسرعة، وأن تقدم وصفا دقيقا للعلامات، التي تعرف بها، حتى لا يستطيع أحد أن يدعي، إن كان قد منحها مأوى سريا، عدم معرفته بها.

وقدمت له بعد هذا صحيفة، تتضمن اسم بسيشة وعلاماتها الأخرى، ثم ذهبت إلى بيتها مباشرة. ولم يعص لها ميركور أمرا، فقد تنقل في أرجاء العالم وأتم مهمته بإعلان عام مؤداه: "من استطاع أن يقبض على ابنة الملك الهاربة، خادمة إلهة الجمال، المدعوة بسيشة، أو يخبرنا بمكان إقامتها الخفي، فإن عليه أن يتصل بميركور، الداعي، خلف أعمدة الريحان ليتلقى، مكافأة له على ذلك، من فينوس نفسها سبع قبلات عذبة، وقبلة لسانية شهية من نوع خاص! "

دفعت الرغبة في المكافأة اللذيذة، التي أعلن عنها ميركور، جميع الناس إلى المشاركة في المنافسة، فقضى هذا على ما بقي في نفس بسيشة من حيرة وتردد.

وعندما اقتربت من عتبة سيدتها، التقت بها إحدى خادماتها، واسمها الألفة، وأخذت تصرخ فيها بكل قوة:

ـ أتراك أدركت أخيرا، أيتها الفتاة الخليعة، أن لك سيدة ؟ أم تراك تتظاهرين، دونما تفكير على ما جرت به عادتك في كل تصرفاتك، بأنك لا تعرفين ما قاسيناه في البحث عنك؟ لكن الأمر لا يخلو من فائدة، فقد وقعت بين يدي وكأنك قد وقعت في مقص سرطان أركوس في العالم السفلي ـ لا بد أن تعاقبي فورا على وقاحتك هذه!

ومسكتها في الحين من شعرها، وسحبتها إلى داخل البيت، فلم تبد بسيشة أية مقاومة. وما كادت فينوس تراها أمامها، حين دخلت عليها، حتى راحت تقهقه بصوت عال على غرار ما يفعله إنسان ساخط سخطا كبيرا، وتهز رأسها وتحك أذنها اليمنى،

وهي تصرخ فيها:

- أتفضلت أخيرا بالمجيء لتحية حماتك؟ أم تراك لم تأت إلا للبحث عن زوجك، الذى يلازم الفراش هنا بسبب ما أصابه منك من جرح خطير؟ لكن، لا تهتمي للأمر، سأستقبلك الآن استقبالا يليق بحماة طيبة!

ثم أضافت:

- أين خادمتاي اللوعة والكآبة ؟

ولما دخلت عليها الخادمتان، سلمت إليهما بسيشة لتسلطا عليها العذاب، فنفذتا أمر سيدتهما في اللحظة نفسها. بعد أن جلدتا بسيشة التعيسة بالسياط، وسلطتا عليها أنواع العذاب بأجهزة مختلفة، رجعتا بها مرة أخرى إلى فينوس، فقالت لها وهي تضحك من جديد:

- أنظرن إليها، إنها تريد أن تغرينا وتثير شفقتنا ببطنها المنتفخ، لأنها ترغب في أن تجعل مني وشيكا جدة سعيدة لوليد رائع. إنها لسعادة بالنسبة إلي حقا أن أدعى جدة وأنا في زهرة عمري وأن يكون لي حفيد هو ابن لفتاة وضيعة! الحق أنه قد يكون من الغباء ومن الأمر المخالف تماما أن أسميه ابنا. إن زواجا غير متكافيء، قد تم فوق ذلك في كوخ ريفي دون شهود ودون رضا الأب، لا يمكن أن يكون شرعيا، ومن ثم لا يمكن أن تلدي إلا نغلا. هذا إذا أنا سمحت لك بوضعه على الإطلاق.

عقب ذلك وثبت عليها، ومزقت ثيابها، وجرتها من شعرها، وشرعت تضربها، وهي لا تكاد تلتقط أنفاسها. ثم أخذت القمح والشعير والذرة والخشخاش والبسيلة والعدس واللوبيا وخلطت بعضها ببعض وكدستها، وقالت لها:

- يبدو لي أنك، وأنت الفتاة القبيحة، لا تكسبين عشاقك إلا عن طريق نشاطك في أداء عملك! أريد أنا أيضا أن أمتحن نشاطك هذا. افرزي حبوب هذه الكومة المختلطة، وضعي كل نوع فيها على حدة، وقدمي لي عملك هذا مساء اليوم!

بعد أن أمرتها بذلك، غادرت البيت هي نفسها وذهبت لحضور حفلة زواج. إلا أن بسيشة لم تضع يدها في الكومة المختلطة، التي يتعذر عليها فرزها، لأن هذه المهمة الشاقة جعلتها تغرق في صمت وجمود عميقين. لكن نملة برية، عاملة صغيرة في الحقل - وهي متعودة على مثل هذا العمل الشاق - أشفقت على حبيبة الإله العظيم، ولعنت قسوة حماتها، وأخذت تغدو وتروح بهمة ونشاط، ودعت النمال المجاورة كلها،

و قالت لهن:

ـ ارحمن، يا بنات الأرض الولود النشيطات، ارحمن زوجة آمور، الفتاة الفاتنة، وانقذنها بسرعة مما يحدق بها من خطر!

وتواردت أسراب وأسراب من ذوات الأرجل الست، وجدت في فرز الكومة كلها حسب أنواعها، ثم اختفت على عجل. وعندما هبط الليل عادت فينوس من حفلة العرس، وقد تشبعت بالنبيذ الحلو، وضاعت منها رائحة العطر، وتحلقت جسدها ورود مأتلقة. وما أن رأت أن العمل قد أنجز بشكل جيد كما أرادته هي، حتى اعترتها الدهشة وصرخت فيها:

ـ ما هذا بعملك، أيتها الفتاة الماجنة! ليس عمل يديك، وإنما هو عمل ذلك الذي أعجبك لسوء حظه ولسوء حظك أيضا!

ورمت إليها بقطعة خبز، وآوت إلى فراشها، وكان إله الحب في أثناء ذلك قد غُلق عليه باب غرفته داخل المنزل، ونصبت حوله حراسة شديدة، حتى لا تسوء حالة جرحه بسبب ما قد يقوم به من أعمال طائشة ماجنة من جهة، وحتى لا يرى حبيبته من جهة أخرى. وهكذا فصل بين الحبيبين، وفرق بينهما تحت سقف واحد، فطالت عليهما ليلة الشؤم. وعندما أرسلت ربة الفجر جيادها عاليا، دعت فينوس بسيشة، وخاطبتها قائلة:

ـ أترين تلك الغابة، التي تمتد هناك على ضفتي النهر، وتنتهي أطرافها عند تلك العين القريبة؟ هناك ترعى نعاج سائبة ذات لمعان ذهبي، أريد أن تحضري لي جزة من صوفها الذهبي ـ عليك أنت أن تعرفي كيف تحصلين عليها!

وذهبت بسيشة طوعا، لا لتنفذ أمر سيدتها، وإنما لتلقي بنفسها من قمة الصخرة في أعلى الضفة حتى تضع بذلك حدا لآلامها، إلا أن العازفة اللطيفة، وهي القصبة الخضراء، وقد امتلأت بنسمات إلهية ناعمة، أخرجت أعذب الألحان، وأخذت تتغنى بهذه النبوءة:

ـ لقد عانيت عناء كبيرا، يا بسيشة، فلا تكدري مياهي المقدسة بموتك التعس، ولا تتلمسي في هذه الساعة طريقك إلى النعاج الرهيبة ، فإن حرارة الشمس الحارقة تثير غضبها عادة بشدة، وتدفعها إلى مهاجمة كل الذين يقتربون منها بقرونها الحادة أو بجبهتها الصلدة وفي بعض الأحيان بعضاتها السامة. حين يخف لهيب الشمس عند

الظهيرة، وتستريح الحيوانات في هفهفة الأنسام القادمة من النهر، يمكنك أن تختفي تحت شجرة الدلب هنالك، فهي تشرب معي من نفس الماء الذى أشرب منه. وحين يزايل النعاج غضبها، وتستعيد هدوءها، عليك أن تبحثي في أغصان الغابة المجاورة، وستجدين في كل مكان منها ندف الصوف الذهبية، التي تبقى عالقة بفروع النباتات المقوسة.

هكذا أرشدت القصبة اللطيفة بسيشة الشقية إلى الطريقة التي تنقذ بها حياتها. لقد أصغت إليها بسيشة باهتمام - ما كان ينبغي لها أن تندم على شيء - فلم يفتها شيء مما قالته لها. وعملت ما طلبته منه تماما، فجمعت بسهولة ندفا من الصوف الذهبية الناعمة، ملأت بها حجرها، وحملتها إلى فينوس، إلا أن مغامرة هذا العمل نفسه لم تسعفها أيضا في الفوز بالمغفرة من سيدتها. فقد قطبت فينوس حاجبيها، وابتسمت ابتسامة ساخرة وقالت لها:

- ليس يغيب عن ذهني ذلك الشهم، الذى أنجز لك هذه العمل أيضا. لكني سأحاول الآن أن أختبرك لأعرف ما إذا كنت حقا جريئة وذكية إلى هذه الدرجة. أترين القمة الشامخة لتلك الصخور الجبلية المنحدرة، التي تخرج فيها من عين سوداء أمواج من المياه الكدرة، تسقي المستنقعات الستوجية في الوادى العميق، وتصب في مياه الجحيم الهادرة ؟ عليك أن تملئي من تلك الأعالي هذه الجرة من قلب الماء البارد الفوار وتنزلي به إلي بسرعة.

وأعطتها وعاء بلوريا، وهي تهددها تهديدات أخرى أكثر خطورة. أسرعت بسيشة الخطى، ومضت إلى أعلى قمة في الجبل آملة أن تجد هناك على الأقل نهاية لحياتها الشقية. وعندما وصلت إلى القمة، التي وصفتها لها، اكتشفت صعوبة هذه المغامرة الخطيرة المهلكة. كانت هناك صخرة سامقة العلو، يصعب تسلقها لوعورتها وملاستها، تقذف من فوهة جدارها مياها مرعبة، تخرج من ثقب عال وتنصب بقوة، ثم تنزلق فوق المنحدر نحو مجرى قناة ضيقة خفية لا ترى، لتصب في الوادي القريب. وكان قد برز من مغارات الصخرة على الضفتين اليمنى واليسرى تنينان رهيبان، وقد مدا عنقيهما الطويلين، لا تتوقف عيونها عن الحراسة، وأحداقهما تلتمع بصورة مستمرة. حتى المياه أصبحت لها أصوات، تصدت للدفاع عن نفسها: "اذهبي!" و"ماذا تفعلين هنا؟ انتبهي!" و"ماذا تعملين ها هنا؟ خذي حذرك!" و"هذا هو موتك!". هكذا كانت تتردد هذه الكلمات باستمرار. وتحولت بسيشة نفسها، لأن الأمر لم يكن ممكنا،

إلى حجر ووقفت جسما بلا روح. لقد ثقلت عليها المهمة التي أنيطت بها، حتى إنها فقدت آخر سلوى لها، وهي دموعها. إلا أن شقاء البراءة لم يبق خافيا عن العناية الإلهية الآمرة. فقد ظهر النسر، طائر جوبيتر الملكي الكاسر، وهو ناشر جناحيه معا. كان قد تذكر خدمته القديمة عندما حمل تحت إمرة كوبيدو الساقي الفريجي (غانيميد) إلى جوبيتر، لهذا بادر الآن إلى تقديم مساعدته في الوقت المناسب ليخدم الإله العظيم بإنقاذ زوجته من محنتها. فغادر قمة الجبل السامق في الأعالي وطار ليحط أمام الفتاة، وقال لها:

- اسمعي، أتراك تأملين، وأنت فيما أنت عليه من ضعف وقلة التجربة في هذه الأمور، أن تسرقي قطرة واحدة من هذه العين المقدسة الرهيبة أو تلمسيها مجرد اللمس؟ ألم تسمعي أن تلك المياه السيتيجية مرعبة حتى بالنسبة إلى الآلهة، وبالنسبة إلى جوبيتر نفسه، وأن الآلهة تقسم بجلالة نهر ستوكس كما تقسمون أنتم بعظمة الآلهة؟ ناوليني إذن هذه الجرة الصغيرة!

وخطف الجرة منها بسرعة وطار بها حاملا إياها بين مخالبه، وراح يحرك جناحية القويين بشكل أفقي، ويحوم بهما بين التنينين المكشرين عن أنيابهما بلسانيهما الثلاثي الرؤوس ذات اليمين وذات الشمال، ويجمع المياه في الجرة، ولم ترض المياه بذلك وحذرته مما يلم به من شر إن هو لم ينسحب فورا. ولكن النسر ادعى أن فينوس هي التي أمرته بإحضار الماء وأنه يقدم لها هذه الخدمة، وهو ما سهل له الوصول إلى ما أراد. وتلقت بسيشة الجرة المملوءة بفرحة كبيرة وحملتها إلى سيدتها على الفور.

لكنها لم تستطع إرضاء الإلهة الغاضبة بذلك أيضا، فقد شرعت تهددها بما هو أسوأ من ذلك وأبشع، وتقول لها وقد رسمت على فمها ابتسامة مخيفة:

- يبدو أنك ساحرة كبيرة قوية ما دمت تنفذين طاعةً لي أوامر من هذا النوع دونما تردد. الآن عليك، يا عروستي، أن تؤدي لي عملا آخر.

وقدمت لها علبة، ثم قالت لها:

- خذى هذه العلبة، وانزلي بسرعة إلى العالم السفلي إلى بيت موتي أركوس! قدمي هذه العلبة إلى بروسيربينا وقولي لها: "إن فينوس ترجوك أن ترسلي إليها شيئا من جمالك، مقدار ما يكفيها ليوم واحد على الأقل، فقد استنفدت كل ما لديها من

جمال واستهلكته في معالجة ابنها المريض." وعليك أن تعودي بسرعة، فأنا أريد أن اتزين به لأذهب إلى مسرح الآلهة.

عندئذ لاحظت بسيشة أن هذه هي ساعتها الأخيرة، واتضح لها، وقد سقط النقاب الآن، أنها في طريقها إلى الموت الأكيد. وكيف لا يكون الأمر كذلك والحال أنها ستطأ هوة تارتاروس في العالم السفلي بقدميها وتحل بين أرواح الموتى؟ لم تتردد كثيرا، فصعدت إلى برج عال لتلقي بنفسها منه، وكانت تظن أنها ستنزل هكذا مباشرة إلى العالم السفلي! لكن البرج نطق فجأة بهذه الكلمات:

- لماذا تريدين، أيتها الشقية، أن ترمي بنفسك لتطفئي شعلة حياتك؟ ولماذا تيأسين من القيام بهذا العمل الأخير دونما روية؟ إذا ما فارقت روحك جسدك، فإنك ستذهبين حقا إلى أعماق العالم السفلي قدما، ولكنك لن تستطيعي العودة من هناك بأية حال من الأحوال. فاصغي إلي إذن! إن لاكيدمون، وهي مدينة الآخيين الشهيرة، ليست بعيدة من هنا. ابحثي عند حدودها عن تيناروس، وهو مكان يقع في منطقة وعرة المسالك، ستجدين فيه منفذا هوائيا يفضي إلى العالم السفلي، وسترين عبر الباب العميق طريقا وعرا. عندما تجتازين عتبته و تشعرين أنك قد تعودت على السير فيه، تكونين قد مضيت في ممر مستقيم يقودك مباشرة إلى قصر أركوس في العالم السفلي. على أنه لا يحق لك أن تمري عبر مملكة الظلام دون أن تحملي معك شيئا. عليك إذن أن تأخذي في كل يد من يديك رغيفا من الشعير مغموسا في العسل وأن تحملي قطعتين نقديتين في فمك. وبعد أن تقطعي مسافة كبيرة من طريق الموت، تلتقين بحمار أعرج، يحمل الخشب، يسوقه رجل أعرج أيضا، سيطلب منك أن تناوليه الأخشاب، التي سقطت من رزمة الحطب، فإياك أن تنطقي بكلمة واحدة، عليك أن تمري به في صمت. ولن يمر عليك بعدئذ وقت طويل حتى تكوني قد وصلت إلى نهر الأموات، وهو يقع تحت سيطرة خارون، الذي يطالب بأجرته في الحين قبل أن ينقل القادمين في قاربه المرقع عبر النهر إلى الضفة الأخرى. - إذن فالجشع يعيش حتى بين الموتي، فلا خارون هذا ولا الأب ديس (بلوتو، ملك الجحيم)، الإله العظيم، يفعل شيئا دونما ثمن، فعلى المحتضر المسكين أن يلتمس نقود الطريق، فإذا هو لم يحمل في يده قطعة من النقد، فإنه سيحرم من لفظ أنفاسه. قدمي لهذا العجوز القذر قطعة واحدة من قطعتيك في مقابل عبورك على أن يستخرجها هو نفسه من فمك. ستجدين هناك، وأنت تعبرين النهر الكسول، عجوزا ميتا يسبح فيه، سيرفع يديه النتنتين ويطلب منك أن تسحبيه إلى القارب، فإياك أن تشعري نحوه بشفقة ممنوعة!

عندما تعبرين النهر وتتقدمين فيه قليلا، ستطلب منك نساجات عجائز أن تساعديهن في عملهن، فلاينبغي لك هنا أيضا أن تفعلي ذلك. فمثل هذا وغيره سترسله فينوس في طريقك لتحتال عليك حتى تفقدي أحد الرغيفين على الأقل. ولا تتصوري أبدا أنه لا ضرر من فقدان رغيف من الشعير. فإذا ما أنت تخليت عن رغيف واحد، فإنك لن تري ضوء الشمس أبدا. هناك كلب كبير مخيف مرعب ذو ثلاثة رؤوس هائلة ينبح في الموتى بحنجرة مدوية، ولكنه لا يستطيع أن يؤذيهم، يبسط يديه بوصفه شبحا مخيفا لا فائدة منه أمام عتبة بروسيربينا وقاعاتها المظلمة، ويقوم على حراسة بيت أركوس الشاغر. حين تقدمين له رغيفا، يخضع لك، وعندها تمرين مباشرة إلى بيت بروسيربينا نفسها. ستستقبلك بلطف، وتقدم لك كرسيا وطعاما فاخرا، فاجلسي فوق الأرض، واطلبي قطعة خبز رديء وكليها! عليك بعد ذلك أن تخبريها لماذا جئت إليها، وعندما تستلمين منها ما ستقدمه لك، خذي طريق العودة، واشتري نفسك من الكلب الغاضب بالرغيف المتبقي، ثم قدمي قطعة النقد إلى المراكبي الجشع. وحين تعبرين النهر، تتبعي آثارك السابقة، وستعودين سالمة إلى رقصة أضواء النجوم الدائرية لهذه السماء. وأنصحك قبل كل شيء بما يلي: إياك أن تفتحي العلبة، التي تحملينها في يدك أو تنظري إلى ما فيها أو تتفحصي كنز الجمال الإلهي المخفي!

هكذا تحدث إليها البرج البعيد النظر، فلم تتردد بسيشة في العمل بنصيحته، فقد أسرعت إلى تيناروس، وأخذت معها القطعتين النقديتين والرغيفين، وسلكت طريق العالم السفلي. وبعد أن مرت صامتة بالحمار الأعرج وأعطت للمراكبي أجرته، وتجاهلت طلب الميت السابح كذلك، وأعرضت عن توسلات النساجات، وهدأت الكلب المرعب بالرغيف، دخلت منزل بروسيربينا. لم تقبل الكرسي ولا الطعام الشهي، اللذين قدمتهما لها الوصيفة، وإنما جلست بتواضع عند قدميها، واكتفت بكسرة خبز منزلي، وأبلغتها رسالة فينوس. وتناولت على الفور العلبة السرية مغلقة، وأسكتت نباح الكلب بالرغيف الثاني طُعما، وأعطت المراكبي القطعة النقدية المتبقية، وأسرعت مبتهجة بالعودة إلى العالم العلوي. لكنها ما أن رأت النهار وحيت ضوءه من جديد، حتى استولى عليها، رغم رغبتها في إنهاء مهمتها بأسرع ما يكون، فضول لا يقاوم، فقالت تخاطب نفسها: "وي! يا لي من ساذجة! أحمل الجمال الإلهي ولا آخذ منه شيئا، قد أنال به إعجاب عشيقي الجميل!"

وبعد هذه الكلمات فتحت العلبة، ولكنها لم تجد فيها جمالا، وإنما وجدت فيها نوم الموت، الذى داهمها، بمجرد أن تحرر من الغطاء، على وجه جهنمي بسحابة كثيفة من

النعاس، انسحبت فوق أعضائها كلها، وتمكنت منها حتى إنها جعلتها تسقط في المكان الذى كانت تقف فيه وسط الطريق، فبقيت طريحة هناك بلا حراك، جثة نائمة لا أكثر ولا أقل.

ولكن كوبيدو، الذى كان جرحه قد التأم في أثناء ذلك ولم يعد يحتمل غياب حبيبته بسيشة الطويل، خرج من النافذة العليا في الغرفة، التي كان قد حبس فيها، وطار بجناحيه، اللذين كانا قد استراحا واستعادا قوتهما، بشكل أسرع، ومضى إلى حبيبته بسيشة، ومسح النوم عن عينيها بعناية وأعاده إلى مكانه في العلبة، وأيقظها بوخزة ناعمة من سهمه، وقال لها:

ـ ها أنت، أيتها الفتاة الشقية، قد أوشكت على الهلاك بسبب فضول مماثل لفضولك الأول! اسرعي الآن بإتمام المهمة، التي كلفتك بها أمي. وسأهتم أنا بما عدا ذلك.

وطار بعد هذه الكلمات في الجو، فأسرعت بسيشة إلى فينوس لتقدم لها هدية بروسيربينا. وفي أثناء ذلك عاد كوبيدو، وقد أوهنه الحب، واقتعد ملامحه، إلى حيله القديمة خوفا من صرامة أمه، فمضى ضاربا بجناحيه السريعين نحو قمة السماء، ورمى بنفسه أمام جوبيتر وعرض عليه قضيته ليفصل فيها. فمسك جوبيتر خده المكتنز في رفق، وقربه بيده من فمه، وقبله، ثم قال له:

ـ إنك، يا سيدي الشاب، لم تحترم أبدا عظمتي، التي أقرت لي بها جميع الآلهة، وإنما سددت طعنات كثيرة ودنست بالشهوات الأرضية قلب ذلك الذى يحدد قوانين العناصر ودوران الكواكب، وألحقت الضرر بالأعراف العامة حتى اليولية (قانون أغسطس المتعلق بالخيانة الزوجية) منها متحديا سمعتي ومكانتي بالقصص الغرامية السيئة، وذلك حين حولت مظهري الجليل بزراية إلى أفعى وشعلة من نار وحيوان مفترس وطير كاسر ورأس من رؤوس الماشية المختلفة. مع ذلك أريد أن أستجيب لرغبتك وأنهي الأمر كله لأن رأفتي بك تتطلب ذلك، ثم لأنك نشأت على يدي. إلا أن عليك أن تتولى الدفاع عن نفسك أمام منافسيك، وإذا كانت هناك في أي مكان من الأرض فتاة جميلة جمالا خاصا، فإني أود أن تقدمها لي في مقابل ما أنعم به عليك في هذه اللحظة!

عقب ذلك أمر ميركور باستدعاء جميع الآلهة لحضور اجتماع عام وبإخبارهم بأن من يتأخر عن هذا الاجتماع سيكون حتما عليه أن يدفع غرامة مالية مقدارها عشرة

آلاف درهم. امتلأ مسرح السماء في نفس اللحظة خوفا منه، فجلس متربعا على عرشه السامي وخاطبهم قائلا:

ـ أيتها الآلهة والإلهات الأجلاء، أنتم كلكم يا من سجلت أسماؤكم في سجلات إلهات الفن! من المؤكد أنكم تعلمون أن هذا الشاب قد نشأ على يدي هاتين. وإني لأرى أنه من الضروري الآن أن نضع حدا لما كان له في شبابه من أفعال عاطفية جامحة. يكفي ما قيل وما يقال عن مغامراته وإ غراءاته المتنوعة. لذلك يجب أن نبعده عن كل فرصة سانحة وأن نكبح جماحه بقيد الزواج! لقد اختار لنفسها فتاة وهتك عرضها، فلتكن له وليشعر بين ذراعي بسيشة أنه إله الحب!

والتفت إلى فينوس، وقال لها:

ـ أما أنت، يا بنيتي العزيزة، فلا تغتمي لهذا ولا تهتمي بمصاهرة أسرتك العلية ومقامك الرفيع لأسرة بشرية. كوني حريصة على ألا تكون هناك علاقة غير شرعية، ومن ثم يجب أن يتم الزواج وفقا للقانون المدني.

وأمر ميركور على الفور أن يمسك بسيشة ويقودها إلى السماء. وقدم لها قدحا مملوءا بشراب الآلهة، وقال لها:

ـ اشربي، يا بسيشة، فأنت من الآن فصاعدا خالدة! ولن يكون لكوبيدو حل الرباط، الذى يربطك به، فلزواجكما هذا الخلود والدوام.

بعد هذا مباشرة هيئت مأدبة عرس فاخرة، واستراح العريس الشاب فوق وسادة عالية، وأخذ بسيشة بين أحضانه. واستقبل جوبيتر حبيبته جونو، وكذلك الآلهة الآخرون على الترتيب. وقدم الساقي الشاب (غانيميد) كأس الرحيق ـ شراب الآلهة ـ لجوبيتر، ووقف باخوس (إله الخمر) يسقي الآخرين، بينما راح فولكانوس يهيىء الأطعمة.

أخذت العرائس تحيط كل شيء بالبراعم وما أشبهها من الأزهار، وكانت الآلهات تنثر البلسم، وعرائس الفن ينشدن أناشيد ساحرة. وغنى أبولو على قيثارته، وسحرت فينوس الجميع حين رقصت على أنغامها. وغنت كذلك جوقة الآلهات الفنية، وعزف ساتور (مرافق إله الخمر) على نايه، كما عزف أحد أتباع بان على قصبته.

هكذا احتفلت بسيشة بزواجها من إله الحب كوبيدو، وعندما جاء موعد الولادة، وضعت بنتا، نطلق عليها اسم فولوبتس (اللذة!)،

هذا ما قصته العجوز السكرى في هذيانها على الفتاة الأسيرة. ولقد كنت واقفا على مقربة منها، لذلك آلمني ألا يكون لدي مفكرة وقلم لأسجل هذه الخرافة الجميلة.

وعاد اللصوص عندئذ بعد اشتباك قوي، حاملين معهم ما غنموه فيه. وتهيأ بعضهم، وكانوا أصلبهم عودا، بينما بقي الجرحى منهم في المنزل لمعالجة جروحهم، للذهاب إلى إحدى المغارات لإحضار ما أخفوه فيها من باقي الغنائم بناء على ما تحدثوا به، فتناولوا لقمة بسرعة، وساقونا أنا والحصان لحمل الأمتعة، وعصيهم تلهب ظهرينا دون كلل. بعد أن عانينا من السير في ممرات كثيرة وعرة وملتوية، قادونا إلى مغارة كنا قد وصلناها في المساء بالذات، وعدنا من هناك بسرعة من غير أن نسترد أنفاسنا لحظة واحدة، وعلى ظهرينا أحمال كثيرة. كانوا يسيرون في عجلة كبيرة، حتى إنهم قلبوني، أنا الذي كانوا يدفعونني إلى الأمام بضربات عديدة موجعة، فوق حجر كان يحتل وسط الطريق. وأخذوا بعدها ينزلون بي الضربة تلو الأخرى بإيقاع، وحملوني على النهوض في نهاية الأمر، وقد لحقت رضوض بفخذي اليمنى وحافري الأيسر. قال أحدهم:

ـ حتام ينبغي لنا أن نقدم العلف دونما فائدة لهذا الحمار المتهدم، الذي صار الآن زيادة على ذلك يعرج.

وقال آخر:

ـ هناك ما هو أكثر من هذا، ألم يجلب لنا النحس منذ أن دخل بيتنا؟ لم نقم منذ ذلك الحين بعملية مفيدة، والنتيجة الوحيدة التي خرجنا بها، أن بعضنا جرح، وبعضنا الآخر قتل، ففقدنا بذلك أكثرنا شجاعة.

وقال الآخر أيضا:

ـ اعتمدوا علي! عندما نوصل الحمار إلى المكان المحدد، حتى ولو هو عاند عنادا كبيرا، سألقي به في الهوة وأجعله بذلك طعاما للصقور.

وبينما كان الرجال العاطفيون يتناقشون في الطريقة المثلى لقتلي، وصلنا البيت، لأن الذعر، الذى شعرت به، كان قد حول حوافري إلى أجنحة. بعد أن نزعوا الأثقال عنا ووضعونا جانبا، أحضروا، دون أن يهتموا بإطعامنا أو يعبأوا بقضية إجهازهم علي، رفاقهم، الذين كانوا قد بقوا في البيت يعانون من جراحهم، وذهبوا بأنفسهم ثانية لإحضار ما تبقى من الأمتعة زعما منهم بأنهم لم يعودوا يحتملون ما نسببه لهم

من سأم وملل.

كنت في أثناء ذلك مغموما، أفكر في الموت الذى يهدد حياتي وقلت لنفسي: "ما وقوفك هنا، يا لوكيوس، وماذا تنتظر؟ لقد حكم عليك اللصوص وقرروا أن تموت أشنع ميتة. المسألة لا تحتاج إلى عناء كبير. إنك لترى قريك فجوة الصخرة ورؤوس الحجارة المسننة. لو هي دخلت جسدك، لمزقتك عضوا عضوا قبل أن تصل إلى الأرض. لقد منحك سحرك الرائع شكل حمار وعناءه، ولكنه لم يمنحك جلده، وإنما ألصق بك جلد العلقة الرهيف. أتعزم إذن عزم الرجال وتنقذ نفسك ما دام ذلك ممكنا؟ لديك الآن في غياب اللصوص أفضل فرصة للفرار. أفضل فرصة للهروب. أم تراك تخشى الحارسة العجوز نصف الميتة، التي تستطيع أن تقضي عليها بضربة واحدة من حافرك حتى ولو كانت رجلك تعرج؟ لكن أين يمكنني أن أذهب فوق هذا الأرض ومن يستطيع أن يمنحني مأوى؟ حقا، يا له من تفكير أحمق يليق بحمار تماما! أي مسافر لا يسره أن يأخذ دابة يركبها؟"

ومزقت في الحين السير، الذى كنت قد شُددت به، دفعة واحدة، وانطلقت أركض بسرعة فائقة، ولكني لم أستطع أن أتجنب نظرات العجوز المحتالة، التي كانت تشبه نظرات الصقر. فما أن رأتني قد تحررت من قيدي، حتى مسكت السير بحزم لا ينتظر من جنسها ولا من سنها، وأخذت تبذل كل جهدها لجري والعودة بي إلى البيت. ولكني لم أنس عزم اللصوص على كتم أنفاسي، وتجردت من نوباتي العاطفية، فأرسلت بحافي الخلفيتين نحوها وأسقطتها أرضا، لكنها ظلت، رغم أنها كانت متمددة فوق الأرض، متمسكة بالسير بشدة، حتى إنها كانت تنسحب خلفي حين كنت أتقدم راكضا. وبدأت تصرخ وتبكي طالبة المساعدة والنجدة! ألكن صراخها لم يعد عليها بالنفع، إذ لم يكن هناك من أحد يستطيع مساعدتها ما عدا الفتاة الأسيرة، التي خرجت مسرعة عندما سمعت صراخ العجوز، وشاهدت منظرا غريبا: امرأة عجوز تشبه ديركي (ملكة طيبة)، ولكنها لم تربط إلى ثور وإنما ربطت إلى حمار. فقامت الفتاة بعمل شجاع، إذ نزعت السير من يد العجوز، وهدأت من روعي ببعض الأصوات المغرية، وصعدت فوق ظهري، وراحت تحثني على السير خببا. إلا أن عزمي على إنقاذ الفتاة زاد من رغبتي في الفرار من تلقاء نفسي، فانقدت للضربات، التي كانت تنهال علي، وأخذت أضرب الأرض بقوائمي بسرعة كحصان سباق، وأنا أحاول أن أرد بنهيقي على ما كانت تنطق به الفتاة من كلمات لطيفة! وغالبا ما كنت أميل عنقي، لأحك ظهر جلدى ظاهريا، لكني كنت أقبل قدمي الفتاة الفاتنتين! وعندئذ قالت

متنهدة، وقد رفعت محياها الحزين نحو السماء:

ـ أنت، أيها الآلهة في عليائها، ساعديني أخيرا في محنتي! وتخل أنت، أيها القدر، عن غضبتك علي، واقبل آلامي المبرحة قربانا! وأنت يا مظلة حريتي وحياتي، إن أنت أعدتني إلى بيتي وإلى والدي وإلى خطيبي الجميل، فسأقضي لك دينك، وأكرمك وأهيىء لك ما تشتهي من الأطعمة. أريد أولا أن أمشط عرفك وأزينه بجواهر عذريتي، وأفرق شعر جبينك على نحو جميل، وألمع شعر ذيلك الخشن وأسرحه ـ فهو أشعث لزق إن لم يلق العناية ـ وأريد كذلك أن أعلق فوق جسدك أقفالا ذهبية تجعلك تلتمع كالنجوم، وترفه عن نفسك في مواكب الشعب البهيجة، وأحمل إليك هناك البذور والمأكولات اللذيذة في مريلة حريرية، وأحتفي بك يوميا بصفتك منقذي. ولكن الاحتفاء بك لن يقتصر على الأطعمة اللذيذة والراحة التامة وما إلى ذلك من المسرات والطيبات، وإنما يتعداه إلى ما يمنحك الشرف والمجد. فأنا أريد أن أخلد هذه التجربة والعناية الإلهية بشهادة دائمة، فأقيم تمثالا في رواق منزلي يصور فراري أنا في هذه اللحظة. وسيرى الناس ويسمعون ويجدون فيه قصتي الفريدة، التي نحتتها يد صناع: "الأميرة الفارة من الأسر تركب حمارا." وستكون أنت أعجوبة أخرى إلى جانب الأعاجيب القديمة، وسنصدق، بناء على مثلك الحي هذا، أن فريكسوس سافر بحرا على ظهر كبش، وأن أريون (المغني الإغريقي) قاد دلفينا، وأن أروبا (ابنة الملك الفينيقي) ركبت ثورا. صحيح إن جوبيتر قد خار كما تخور البقر، لذلك قد يخفي حماري أيضا وجها بشريا أو محيا إلهيا!

وبينما كانت الفتاة تردد هذا، وتقطع وعودها بتنهداتها في كثير من الأحيان، وصلنا إلى مفترق طرق، فسحبت زمامي بقوة، وحاولت يائسة التوجه نحو اليمين، ربما لأن هذا الطريق كان يقود إلى بيت أبويها. لكني أنا كنت أعلم أن اللصوص قد سلكوا هذ الطريق نفسه لإحضار ما تبقى من غنائمهم، ولذلك قاومتها بقوة، ورحت أشكو في أعماقي: "ماذا تفعلين، أيتها الفتاة الشقية؟ ماذا تفعلين؟ لماذا تستعجلين الوصول إلى الآخرة؟ وماذا تريدين أن تفعلي بقوائمي؟ أنت لن تقضي على نفسك فقط، وإنما ستقضين علي أنا أيضا." وهكذا كان أحدنا يريد أن يتجه يمينا والآخر شمالا وتنازعنا في مرافعة حدودية حول ملكية الأرض، بل حول توزيع الطريق! وفي تلك اللحظة وصل اللصوص، وهم يحملون غنائمهم، فباغتونا وعرفونا في ضوء القمر من بعيد، ووجهوا إلينا التحية، وصاح بنا أحدهم قائلا:

ـ إلى أين تذهبان بهذه السرعة في هذه الساعة المتأخرة، ألا تخافان الأرواح والأشباح في هذا الليل المخيف؟ أتريد البنت الطيبة أن تقوم بزيارة سريعة لأبويها؟ لكننا سنصاحبك حتى لا تكوني وحيدة وندلك على طريق أقصر يقودك إلى أهلك.

وأعقب قوله عمله، فتناول السير وأدارني إلى الخلف، ولم يقتصد في ضربي بهراوته العقداء كالعادة. وعندما كنت عائدا ـ دونما رغبة مني على الإطلاق ـ إلى هلاكي الأكيد، تذكرت آلام حافري، فأخذت أعرج وأنا أومىء برأسي، إلا أن ذلك اللص أدارني بقوة وقال:

ـ أتترنح الآن وتهتز من جديد؟ كيف تساعدك أرجلك الملتهبة على الفرار ولا تساعدك على المشي؟ قبل لحظات كنت أسرع من بغاسوس (الحصان المجنح)، الذي يطير بأجنحته!

وبينما كان مرافقي اللطيف يداعبني بهراوته، كنا قد وصلنا إلى أبعد نقطة في ضيعتهم، فوجدنا العجوز معلقة بحبل في عنقها في فرع شجرة من أشجار السرو، فأنزلوها وألقوا بها مع الحبل في الهاوية، ثم قيدوا الفتاة. وبعد ذلك أقبلوا كالوحوش المفترسة على الطعام، الذى كانت العجوز المستهترة قد أعدته لهم بعناية كبيرة.

وأخذوا، وهو يبتلعون طعامهم في نهم كبير، يناقشون فيما بينهم مسألة عقابنا وجزائنا. كانت هناك بطبيعة الحال اقتراحات متباينة تخللت اجتماعهم المضطرب. اقترح الأول حرق الفتاة حية، وأوصى الثاني بإلقائها إلى الحيوانات المفترسة، وطالب الثالث بصلبها، بينما أمر الرابع بتعذيبها حتى الموت. وكان الثابت على العموم هو الحكم عليها بالموت. وحين خفت حدة الثورة العامة، أخذ أحدهم يقول بلهجة رقيقة:

ـ ليس مما يتلاءم مع مبادىء جمعيتنا ولا مع سلامة النوايا الفردية ولا مع تحفظي الشخصي أن يترك لكم الأمر للحكم على مدى الجريمة والهدف منها وتجاوز ذلك باللجوء إلى الحيوانات الفترسة والصلب والنار والتعذيب أو حتى باللجوء إلى المحاكمة القصيرة و تنفيذ حكم الإعدام. إذا أردتم العمل بنصيحتي، فابقوا على حياة الفتاة ـ كما كانت جديرة بذلك قبل. وأنتم لم تنسوا الحكم، الذى اتخذتموه سابقا بشأن الحمار، الذى هو كسول جدا وأكول فوق ذلك، وقد تظاهر الآن بالعرج، ولكنه حرض الفتاة على الهرب وساعدها فيه. فابقروا بطنه إذن صباح غد، واستخرجوا أحشاءه كلها، وضعوا في شق بطنه الفتاة، التي فضلها علينا، عارية، وخيطوا الشق بحيث لا يبدو منها غير وجهها، بينما يختفى جسمها البشري ويستقر في بطن

الحيوان، ثم ضعوا الحمار، مملوء ومحشوا كما هو، فوق صخرة مسننة واتركوه لحرارة الشمس المحرقة. وهكذا سيتعرضان لكل ما عزمتم عليه بشأنهما، للحمار الموت الذى استحقه منذ مدة، ولها هي نهشات الوحوش، عندما تأكل الديدان أعضاءها، واشتعال النار، حين تحمي الشمس البطن بحرارتها اللاهبة، وعذاب الصلب، عندما تستخرج الكلاب والنسور أحشاءها. عليكم أيضا أن تحسبوا حساب متاعبها وعذاباتها الأخرى: فهي ستسكن بطن حيوان حية، وسيعاني أنفها من حرارة الشمس نتنا لا يحتمل، وسينهكها الجوع حتى الموت، لأنها بلا طعام، ولن تكون يداها طليقتين حتى تستطيع أن تضع حدا لحياتها.

وبعد كلماته هذه قبل اللصوص اقتراحه، وأبدوا حماستهم له بدل التصويت عليه. لقد سمعت هذا لأن أذني كانتا كبيرتين إلى حد كاف. ألم يبق لي الآن إلا أن أبكي الجثة، التي سأكونها صباح غد؟

الكتاب السابع

عندما توهج النهار، وقد تحرر من الظلام، بنور أبيض، وأضاءت عربة الشمس المشرقة جميع الكائنات وصل رجل، دل تبادل التحية على أنه من عصابة اللصوص، وجلس لاهثاً عند مدخل المغارة، واسترد أنفاسه أخيراً، ثم أخبر أفراد طائفته بما يلي:

ـ يمكننا الآن أن نضع حداً لاضطرابنا ونطمئن إطمئناناً تاماً فيما يتعلق ببيت ميلو في هيباطا، الذي كنا قد نهبناه قبل فترةٍ قصيرة. فبعد أن نحيتم بوثبة بريئة كل شيء جانباً وانطلقتم إلى البيت، اختلطت أنا بجماهير الشعب، وتظاهرت بالغضب والأسف، ورحت ألاحظ ماذا قرر بشأن التحقيق في عملية السطو وما إذا كانت هناك نية في تعقب السراق، لأخبركم، كما طلبتم مني ذلك، بكل ما جرى، وإذا بي أجد الجميع ـ وليس هذا بناء على ظنون غير أكيدة، وإنما لأسباب وجيهة ـ متفقين على المطالبة بمحاكمة شخص يدعى لوكيوس بصفته مدير عملية السطو وكان قد تقدم إلى ميلو بتوصيات مُزيفة على أساس أنه رجل مستقيم وكسب ثقته في الأيام الأخيرة. ومن ثم دخل بيته، فأصبح فرداً من أفراد الأسرة، وأقام عنده العديد من الأيام حتى إنه استولى على قلب خادمة ميلو بحبه الكاذب، فتمكن بذلك من ملاحظة أقفال الأبواب، وخاصة أبواب الغرف، التي توضع فيها عادة الثروة كلها، والتعرف عليها بدقة كبيرة. وقد تمت الاشارة إلى بينة ثبتت على المجرم، وهي أنه فر عند القيام بالعملية في تلك الليلة واختفى منذ ذلك الحين. وقد كانت له فيما يقال وسيلة أكيدة للهرب، أمكنه بها أن يعابث مطارديه ويفر بعيداً، بعيداً عنهم وينجو بنفسه، وهي حصانه الأبيض الذي كان قد أحضره معه ليتقل فوقه فيما بعد. حقاً لقد أعتقلت الشرطة خادمه، الذي كان في البيت، وسألته عن جرائم سيده ومشاريعه، وعذبته في اليوم الموالي عذاباً شديداً حتى كادت تزهق روحه، ولكنه لم يعترف بشيء من هذا النوع. ومع ذلك فقد قيل إن عدداً كبيراً من الناس قد أرسلوا إلى مدينة لوكيوس هذا للبحث

عنه حتى تُوجه إليه التهمة في المستقبل ويعاقب على جرائمه.

وحين كان يروي هذا، وكنت أقارن بين ما كان ينعم به لوكيوس السعيد في السابق وبين ما يعانيه الحمار الشقي الآن، تنهدت من أعماق روحي، وقد خطر بذهني أن العلماء القدامى الأجلاء لم يفكروا عبثاً ويعلنوا أن إلهة الحظ عمياء، لا عيون لها تماماً، تكوم كنوزها عند الأشرار والحقراء، ولا تختار أحداً كائناً من كان فوق هذه الأرض بناء على حكم يصدر عنها أبداً، فهي تتردد على العكس من ذلك إلى أولئك، الذين ستفر بعيداً عنهم بالذات، لو قدّر لها أن تراهم. والأسوأ من هذا كله أنها تعرضنا لأحكام مُريبة، بل خاطئة، فينعم السافل بسمعة الرجل الشريف، ويشقى البريء بصيت الرجل الشرير. لقد أصبحت، أنا الذي حولتني في هجمتها الشرسة إلى حيوان، حيوان رديء من ذوات الأربع، لا بد أن يثير شقاؤه أعتى المجرمين وشفقته. أصبحت متهماً بسرقه مضيفي المحترم ومطالباً للمثول أمام المحكمة. والحق أن جريمة من هذا النوع لا ينبغي أن ندعوها سرقة، فهي بمثابة جريمة قتل الأبوين. إلا أنني لم يتح لي أن أمثل قضيتي أو أنكرها ولو بكلمة واحدة فقط. وحتى لا يظهر علي في النهاية أنني - بدافع من تأنيب الضمير - أعترف صامتاً بهذا الشر الذي ينسب إلي، أردت أن أقول في زحمة فروغ صبري لم أفعل ذلك!؛ وصرخت بالبداية مرة ومرات عديدة بملء صوتي، غير أني لم أتمكن من النطق بما يتبع ذلك، فبقيت مع الصوت الأول ورحت أردد باستمرار إي آ، إي آ !؛، وأنا أحاول أن أهز شفتي الغليظتين وأمرتهما من اتجاهات مختلفة كلهما يخرجان أصواتاً مناسبة. ولكن لم أواصل شكاتي من أخطاء آلهة الحظ، التي لم تستح حتى من أن تجعل مني رفيقاً لخادمي ولدابتي، ولحصاني، في الحمل والمعلف؟

وبينما كانت هذه الأفكار تدور برأسي، تذكرت ذلك الهم الكبير، فقد بدأت أتصور أن مشروع اللصوص الثابت يتطلب أن أكون ضحية للعذراء، وأتأمل بطني كما لو أنني قد أصبحت حاملاً بالفتاة الشقية. إلا أن ذلك الذي كان قد حمل قبل حين التهمة الباطلة الموجهة إلي، أخرج ألف قطعة ذهبية كان قد علقها في ثيابه وأخفاها عن الأنظار. وهي، كما قال، من الغنا ئم التي انتزعها من مارة مختلفين، وقدمها، بناء على قلة رغبته، في الحال لتوضع في الصندوق العام، ثم بدأ يسأل بكثير من الاهتمام عن رفاقه. وعندما عرف أن بعضهم، وهم أشجعهم بالذات، قد لقوا مصرعهم في مغامرات مختلفة لم تعرف الكلال في آن واحد، أشار على رفاقه أن يدعوا السلام يعمر الطرق وأن يتوقفوا عن هجوماتهم في كل الجبهات، وأن يصرفوا وقتهم فيما هو

أفضل لهم، وهذا يعني البحث عن رفاق جدد وتكوين فرقة من الشباب تكتمل بها الفرقة السابقة. فمن الممكن أن يرغم من يرفض ذلك عن طريق التخويف وأن يجلب من يرغب في ذلك عن طريق الإغراء، ثم إن هناك كثيرين يتنازلون عن حياة الحرمان والعبودية ويفضلون أن تكون لهم مهنة مشابهة لمهنة عصابة منعمة. وكان قد توجه هو نفسه إلى رجل معين، طويل القامة، موفور الشباب، قوي الكتفين، متماسك اليد، وأوضح له الأمر وأقنعه من النهاية بأن عليه أن يستعمل يديه، اللتين نامتا من شدة الكسل، فيما هو أفضل له، وأن يستغل حظه من سلامة البنية في الوقت المناسب، وألا يمد يده طلباً للصدقة، وإنما يمدها لجمع القطع الذهبية.

ووافق الجميع على هذه الكلمات وقرروا قبول الشخص المذكور، الذي تم، فيما بدا، الاعتراف به، والبحث عن أناس آخرين لإتمام قوتهم. فقام الرجل وأحضر بعد فترة قصيرة، كما وعد بذلك، شاباً ممتازاً لا شبيه له بين الحضور. كان يفوقهم، بغض النظر عن ضخامة جسمه، طولاً برأسه، وقد بدأ الزغب الأول يعلو خديه، إلا أنه كان يرتدي ثياباً مرقعة ترقيعاً غير متناسق، يطل منها صدره وبطنه بما لهما من طبقة سميكة من الشحم. وبمجرد أن دخل قال:

- طاب يومكم، يا أمناء الإله مارس ورفاقي الأعزاء منذ اللحظة هذه! خذوا في صفوفكم رجلاً قوي العزيمة يقابل الإخلاص بالإخلاص، ويفضل أن يستلم الجراح بصدره على أن يمسك الذهب بيده، ويتفوق حتى على الأمر، الذي يرتعب منه الآخرون! لا تعتبروني صعلوكاً ولا تحكموا على خصائصي من هذه الثياب البالية! فقد كنت رئيس عصابةٍ قوية جداً، ودمرت ولا فخر مقدونيا كلها. فأنا اللص الشهير هيموس (الدموي) التراقي، الذي ترتعد لذكر اسمه الأقاليم كلها، وأنحدر من صلب اللص الشهير أيضاً تيرون، (الصياد)، فأنا ابنه، أرضعني دماء البشر، فنشأت على قواعد العصابة بصفتي وريثاً لأبي الشجاع وسائراً على منواله. على أنني فقدت خلال فترة قصيرة كل رفاقي العديدين الشجعان وكل ما كان لدي من ثروة كبيرة. حدث ذلك عندما هاجمت مكاسا ملكياً، كان يتقاضى راتب الدرجة الثانية، ثم عزل من منصبه في ظروف مؤلمة جداً، صادفته في الطريق كما أراد ذلك سوء حظي، - سأروي القصة، حتى يتضح لكم الأمر، على الترتيب:

كان هذا الرجل قد قدم للقصر خدمات جليلة نال عليها المجد والشرف، وكان القيصر نفسه قد خصص له مكانة في نفسه، ولكنه لم يسلم من مكائد بعض الناس

وحسدهم البغيض فاتهم وطرد خارج البلاد. واستهانت زوجته بلوتينا، وهي امرأة ذات وفاء نادر، وعفة متميزة، كانت قد ساهمت في إنشاء الأسرة بعشر ولادات. استخفت بمسرات المدينة واحتقرت نعيمها، ورافقت زوجها في تشرده وشقائه، وقد قصت شعرها، وارتدت لباس الرجال، وحشت حزامها دائر مدار جسدها بمال لها من حلي نفيسه وقطع ذهبية ثمينة، وشاركت في الأخطار كلها وسط الحرس العسكري والسيوف المجردة دونما خوف، واعتنت بزوجها وبسلامته عناية متيقظة، واحتملت كل المتاعب بعزم رجولي.

وكانت مصاعب السير ومخاوف البحر كلها قد انتهت عندما وصلوا إلى (جزيرة) زاكونتيوس، التي حكم على الطريد بالإقامة فيها. ورست السفينة في ساحل اكتيوم. كنا نحن قد عدنا آنئذ من مقدونيا وأخذنا نطوف في المنطقة. فقضى الرجل وزوجته الليل، وكان قد تقديم كثيراً، في خانْ قريب من الشاطىء ومن السفينة، وهذا تجنُّباً لاهتزاز البحر. فهجمنا عليهما وسلبناهما كل شيء! ولكننا لم ننج من ذلك دون أن نتعرض للخطر. ذلك أن المرأة ما كادت تسمع صرير الباب أول مرة، حتى أسرعت إلى غرفة النوم وأخذت تصرخ بصوت عالٍ دونما كلل وتدعو الجنود والخدم بأسمائهم وجمعت الجيران كلهم لمساعدتها. إلا أن الفزع العام. إذ اختفى كل واحد منهم خوفاً على نفسه ـ مكننا من النجاة بأنفسنا دونما عقاب. وبعدئذ قدمت هذه المرأة المحترمة الأمنية ـ وعلى المرء أن يعترف بهذه الحقيقة ـ طلبا إلى جلالة القيصر، وقد كانت لها حظوة لصفاتها الحميدة، فوافق بسرعة على رجوع زوجها إليها وعلى الانتقام التام ممن اعتدى عليه.

وبذلك قضى القيصر على عصابة هيمُوس، فاندثرت بسرعة؛ ذلك ما تفعله مجرد إشارة تصدر عن أمير عظيم! فقد حاصرت الفرق العسكرية العصابة كلها وحطمتها وأبادتها. أما أنا نفسي فإنني لم أنج إلا بمشقة وخرجت من فم الموت على الصورة التالية: لقد تناولت لباساً نسوياً مزركشاً، كان فضفاضاً إلى حد كبير، وغطيت رأسي بقلنسوة من القماش، وارتديت نعلين نسويين أبيضين، وتنكرت ما أمكنني التنكر في الجنس اللطيف، ثم حملت حماراً سنابل الشعير، وركبته وشققت طريقي عبر جبهة جنود الأعداء وهربت. فقد تصورني حمارة، وسمحوا لي بالمرور، وكان خداي أئنذ بدون زغب أيضاً، وكانا يلتمعان كخدي طفل!

ولكني بقيت مع ذلك وفياً لسمعة أبي المجيدة، ولشجاعتي الخاصة، رغم أنني

كنت في وضعي أرتعد قليلاً حين أقترب من نصال الإله مارس. فقد هاجمت بمفردي، وأنا متنكر في الزي الغريب، بيوتاً ريفية أو مناطق حصينة، وجمعت قدراً من المال استعين به على مشقة السفر.

ومزق ثيابه البالية في الحين، وهزها فسقطت منها ألفاً قطعة ذهبية، وقال:

ـ إني أقدم هذه الهدية الصغيرة، بل هذا الجهاز لجمعيتكم بكل سرور، وأعرض عليكم أن أكون رئيسكم الوفي إن أنتم قبلتم بهذا، ولن يمروقت طويل حتى أجعل من بيتكم الحجري هذا قصراً ذهبياً!

ولم يتردد اللصوص لحظة واحدة، وإنما وافقوا بالإجماع وبأصواتهم العالية على إسناد الرئاسة إليه، وأخرجوا رداءً فاخراً إلى حد ما، وطلبوا منه أن يأخذه وأن يرمي أسماله التي جمع فيها أمواله. وما أن أرتدى الرداء الجديد، حتى راح يقبل رفاقه واحداً واحداً، وأخذ مكانه فوق أعلى مخدة، وتناول الأطعمة الشهية والمشروبات اللذيذة، التي أعدوها احتفاء بإنتمائه إليهم.

وعندها عرف، من خلال حديثهم بعضهم مع بعض، بفرار الفتاة البكر وبركوبها لي وبالموت الرهيب الذي حكموا علينا معاً به. فسألهم عن المكان، الذي أخفوها فيه، وعندما حملوه إليها ورأها ترسف في قيودها الثقيلة، أنف من ذلك وأبدى عدم رضاه، وأبتعد عنها وقال:

ـ ما أنا ممن يتمسك برأيه أو ما أنا على أية حال بالذي يجرأ على إبطال القرار الذي اتخذتموه، على أنني سأعاني من عذاب الضمير إن أنا أخفيت عنكم ما يبدو لي صواباً. عليكم أن تمنحوني أولاً ثقتكم، فأنا أجهد نفسي من أجلكم، خاصة وأن من حقكم، إن كان رأيي لا يعني شيئاً بالنسبة إليكم، أن تعودوا إلى ما قررتموه بشأن الحمار! فأنا أرى أن اللصوص لا يجوز لهم، وهم يفكرون تفكيراً سليماً، أن يقدموا عملهم على أي شيء آخر، حتى ولو كان الانتقام نفسه، الذي كثيراً ما يجلب الضرر على أية حال وبناء على هذا، إذا كان ينبغي لكم أن تقضوا على الفتاة في بطن الحمار، فإنكم ستشفون غليلكم منها دون أن تكسبوا شيئاً على الاطلاق، في حين أنكم لو أنتم، فيما أرى، أخذتموها إلى مدينة ما لتبيعوها هناك، فإن فتاة طرية مثلها يمكن أن تجلب لكم ثمناً محترماً. وقد سبق لي أنا نفسي أن عرفت عدداً من تجار البغايا، يستطيع هذا أو ذاك منهم، في تصوري، شراء الفتاة وفقاً لمنزلتها بمبلغ كبير حقاً، فترسل لتمارس البغاء في الطرق بدل أن تحاول الفرار كما تفعل الآن. ثم إن عملها

خادمة في المبغى سيحقق لكم جزءاً كبيراً من انتقامكم منها. وبهذا أكون قد قدمت لكم هذا الاقتراح، الذي يخدم في اعتقادي هذا الأمر. ولكنكم أصحاب القرار وأصحاب الملك.

هكذا تحدث محامي كنز اللصوص عن قضيتنا، فكان الملاك المنقذ بالنسبة للفتاة وللحمار! على أن الآخرين عذبوا أعصابي عذاباً كبيراً، بل أزهقوا روحي بمشاوراتهم الطويلة وبطئهم في اتخاذ أحد قراراتهم. وفي آخر المطاف قبلوا بالإجماع مقترح رفيقهم الجديد، ونزعوا القيد عن الفتاة في الحال. وكانت قد ضحكت وغمرتها البهجة عندما رأته وسمعته وهو يستعمل كلمات تجار البغايا؛ والمبغى؛ ولا غرابة أن أكون قد شعرت بالكراهية للجنس اللطيف عندما رأيت الفتاة، التي كانت قد ادعت أن لها خطيباً شاباً وأنها تطمح إلى الزواج الطاهر، تبتهج فجأة لذكر اسم المبغى الحقير القذر. عندها أصبحت مبادىء النساء وطبائعهن جميعاً تتوقف على حكم حمار! إلا أن الشاب تناول الكلمة مرة أخرى وقال:

ـ ألا نذهب الآن لنقدم القربان لمرافقنا مارس، ثم لنبيع الفتاة ونبحث عن الرفاق في آن واحد؟ ولكننا لا نملك، حسب ما أرى، حيواناً نضحي به كما جرت العادة، وحتى الخمر لا تكفي لشربنا هنا وهناك. فهيئوا لي إذن عشرة مرافقين، وستكون فيهم الكفاية، لأمضي إلى القرية الموالية لإحضار الأطعمة لإقامة وليمة فخمة.

وهكذا مضى، فأشعل الآخرون النار وأخذوا يبنون معبداً لمارس من الأعشاب الخضراء. وبعد ذلك بفترة ليست بالطويلة عادوا وهم يحملون زقاق الخمر فوق أكتافهم ويسوقون قطعان الماشية أمامهم. واختاروا منها تيساً سميناً قوياً عجوزا وقدموه قرباناً للإله مارس، الحامي والمرافق. ثم أُعد في الحين طعام فاخر وعندئذ قال ذلك الغريب:

ـ لا ينبغي لكم أن تعرفوني بصفتي رئيساً جريئاً في غزوات السلب فقط، وإنما ينبغي لكم أن تعرفوني أيضاً في ملاهيكم!

وراح يعمل بمهارة وبخفة ونشاط، يكنس ويهيىء المائدة ويطبخ، ويعد شرائح اللحم المحشوة المحمرة، ويقدم الطعام وكأنه طباخ خبير وأسكرهم قبل كل شيء بأكواب كبيرة الواحد بعد الآخر وكان مع ذلك يتظاهر بين الحين والآخر بأنه يجلب ويحضر ما هو في حاجة إليه ضرورة، بينما كان في الحقيقة يذهب باستمرار إلى الفتاة ليقدم لها فرحاً ما كان يأخذه خفية من الطعام والشراب، الذي كان يتذوقه

بنفسه، فتقبل على ذلك في نهم، وحين كان يهم في حين لآخر بتقبيلها، تقدم له شفتيها وتتمطق طواعية. وقد استأت لهذا الأمر تماماً. هيه! أنسيت عريسك وخطيبك المحترم، يا ملاكي البريء، وتفضلين عليه، وأنا لا أعرفه، وقد اختاره لك أبواك ليكون رفيق عمرك - هذا اللص الغريب السفاك؟ وكيف لا تشعرين بالندم وأنت تدوسين عاطفتك بقدميك وتمارسين البغاء تحت الرماح والسيوف؟ وماذا تفعلين إذا لاحظ اللصوص الآخرون ذلك؟ ألن تعودي ثانية إلى الحمار راكضة وتكبتي أنفاسي لأفر بك؟ حقاً إنك لتعرضين حياة غيرك للخطر! وبينما كنت أناجي نفسي هكذا ساخطاً على الفتاة، عرفت من بعض الكلمات التي نطقا بها، وكانت كلمات مريبة، ولكنها لم تكن غامضة بالنسبة لحمار ذكي، أنه لم يكن اللص الشهير هيموس، وإنما هو تليبو ليموس، خطيب هذه الفتاة بالذات. ذلك أنه قال في أثناء الحديث بصوت عال نوعاً ما، من غير أن يهتم بي - كما لو أني قضيت نحبي حقيقة! - إطلاقاً: تشجعي، يا خريتتي الحلوة! كل أعدائك هؤلاء سأضعهم أسرى عند قدميك. ثم راح يبالغ في الإلحاح على اللصوص في تعاطي الشراب ويقدم لهم خمراً غير ممزوجة، ولكنها دافئة إلى حد معين ليزدادوا سكراً دون أن يتعاطى الشراب هو نفسه. ويعلم الله أنني ظننت أنه يضع موما ما في أكوابهم. وفي النهاية اضطجعوا هناك كلهم صرعى النبيذ؛ الواحد بجانب الآخر كما هم. وعندئذ قيدهم بسهولة وجعلهم عاجزين عن الحركة، وربط بعضهم إلى بعض طولاً وعرضاً، ليضع الفتاة بعد ذلك فوق ظهري ويمضي إلى مدينته.

وما أن وصلنا إلى المدينة، حتى نزل أهلها إلى الشارع لمشاهدة المنظر الذي ترقبوه، وتراكضوا كلهم، الأبوان، والأقارب، والأتباع، والمكفولون والخدم، وقد علا البشر وجوههم وأسكرتهم الفرحة، فكونوا موكبا من كل جنس ومن كل عمر، ومشهداً جديداً معتبراً: فتاة يافعة تمتطي حماراً في موكب النصر! وتبعاً لذلك أظهرت أنا أيضاً متعتي، وبكل قواي، حتى لا أبدو بوصفي غير مشارك في هذه اللحظة المثيرة، فمددت أذني، ونفخت منخري ورحت أنهق، بل أرسل دويا كالرعد! وأخذ الوالدان ابنتهما إلى غرفتها وعُنيا بها في إهتمام بالغ. أما أنا فقد أعادني تليبو ليموس مع عدد كبير من دواب الحمل ومجموعة من شبان المدينة بسرعة إلى مغارة اللصوص، وقد أطعته بسرور، فقد كنت أتطلع بفضول إلى أن أرى الآن أيضاً كيف يتم أسر اللصوص. فوجدناهم لا يزالون مكبلين بالخمر الرديئة أكثر مما هم مكبول بالقيود التي وضعت لهم. وبعد أن طلب منهم الكشف عن كنوزهم، وأخرجت هذه الكنوز،

وحملنا الذهب والفضة وما أشبه ذلك، دحرج اللصوص الأشرار، وبعضهم لا يزال موثوقاً كما كان، وألقي بهم على رؤوسهم من فوق الصخور القريبة، بينما قطعت رؤوس بعضهم الآخر بسيوفهم وتركوا هنالك.

وعدنا إلى المدينة ونحن مسرورون راضون عن إقامة العدل كما ينبغي، وسلمنا الغنائم إلى الخزينة المدنية أما تليبو ليموس فقد سلمت إليه الفتاة، التي استرجعها بنفسه، وتزوجها بشكل رسمي.

وأخذت السيدة منذ ذلك الحين تحيطني برعايتها الكاملة وتغدق علي بسخاء، وأمرت في يوم عرسها بأن يُملأ معلفي بالشعير ويقدم لي تبن يكفي لإشباع جمل بلخي. ولكن أي نوع من اللعنات الرهيبة، أستطيع أن أصبه على رقبة فوتيس، التي لم تحولني إلى كلب، وإنما حولتني إلى حمار! فقد رأيت الكلاب كلها تتلقى نصيباً من الأطعمة الفاخرة أو تأخذها بنفسها وتأكل منها فوق كفايتها.

وبعد الليلة الفريدة ودرس الحب الأول لم تكف الزوجة الجديدة عن الإشادة بما تدين لي به إلى أن وعدها أبواها وزوجها بأنهم سيقدمون لي أكبر مكافأة ممكنة. وعندما استدعى بعدئذ الأصدقاء المقربون، أخذوا يتشاورون في الطريقة التي يتم بها تكريمي بما يليق بي. واقترح أحدهم أن أترك لأنعم بالراحة بين جدران أصطبلي الأربعة ويقدم لي علف من الشعير الممتاز والفاصولية والبسلة الجبلية مكافأة لي. على أن شخصاً آخر، كان يفكر في حريتي، غلبه على رأيه واقترح أن أقاد إلى المروج وأطلق هناك لأسرح بين قطعان الخيول وأتوثب وأملأ، بصفتي معشراً أصيلاً لأناث الأفراس، حظائر أصحابها بأمهار البغال!

ونفذ الأمر في الحين، فدعي المشرف على حظيرة الخيل، وسلمت إليه بعد حديث طويل ليذهب بي. فسرت أمامه منشرح الصدر مسروراً، وفي ذهني أنني سأودع قريباً الأحمال وغيرها من الأثقال، وأنعم بحريتي وأتطلع إلى بداية الربيع، الذي سأعثر فيه بالمروج الخضراء على بعض الورود بهذه الطريقة أو تلك. وفي تلك الأثناء خطرت بذهني فكرة أخرى، وهي أنني إذا كنت قد أنعم علي كل هذا الإنعام وأكرمت كل هذا الإكرام بصفتي حماراً، فلا بد أن يكون الإنعام علي، حين أستعيد صورتي الإنسانية، أكثر من ذلك بكثير.

على أنني لم أشعر، بعد أن قادني المشرف على حظيرة الخيل إلى المكان المقصود خارج المدينة، بالمسرة ولا بأي أثر للحرية. فقد شدتني زوجته، وهي امرأة

نفعية بخيلة، إلى نير الطاحونة، وراحت تضربني ضرباً شديداً بهراوة من فروع الشجر، لأطحن لها ولأسرتها دقيقاً بعرق جلدي تطبخ منه خبزاً ولم يكفها أن تنهكني في إطعام أسرتها، وإنما طحنتُ القمح بدوراتي للجيران أيضاً في مقابل مبلغ من المال. وحرمتني أنا الحقير التافه حتى من نصيبي المقرر من الشعير! فقد جففته وطحنته من نفس الطاحونة التي أديرها وباعته بصورة منتظمة للفلاحين المجاورين - أما أنا، الذي كنت أقضي اليوم كله مشدوداً إلى الطاحونة، فكانت تقدم لي قبل هبوط الليل نخالة غير مغربلة قذرة وتصر فيها الحجارة.

وبعد أن استسلمت صاغراً لمثل هذه العذابات، سلطت علي إلهة الحظ القاسية آلاماً جديدة، وذلك لكي أستطيع، كما قيل، أن أفخر بأعمالي البطولية في البيت وفي الجبهة! فقد تذكر الراعي الفاضل مؤخراً ما كان قد أوصاه به السادة وأخرجني إلى الحقل لأرافق قطعان الخيل. فأصبحت أخيراً حماراً حراً! فأخذت أرقص وأثب جذلان فرحاً وأبحث عن إناث الأفراس، اللواتي يصلحن أن يكن ضجيعاتي، إلا أن هذا الأمل الجميل تحول إلى خطر يهدد حياتي. ذلك أن الأحصنة، التي كانت بحكم عادة السفاد القديمة تأكل وتملأ بطونها منذ زمن طويل، وكانت على أية حال مرعبة بالنسبة إلى أي حمار وأقوى منه ببساطة، لم تتوقع مني شيئاً يروق لها، فهاجمتني، منعاً للخيانة الزوجية المخلة بعراقة النسب، بشراسة، وبدون مراعاة لقوانين الضيافة، بوصفي منافساً لها في فُحُولتها. فرفع أحدها مقدمته الضخمة، وأقام رأسه بشكل مستقيم، وأخذ يلاكمني بحافريه الأماميين، وأدار الثاني ظهره المكتنز وناوشني بحافريه الخلفيين، بينما راح آخر يتوعدني بحمحمته الخبيثة، ونصب أذنيه إلى الخلف، وكشف عن أسنانه البيضاء الشبيهة بالسكين وعضني بقوة! هكذا كنت قد قرأت في التاريخ عن ملك عراقي، كان يقدم ضيوفه المساكين إلى أحصنته المتوحشة لتمزيقهم وأكلهم. لقد كان هذا الطاغية المتباهي يضن عليها بالشعير إلى درجة أنه كان يطعمها من جوع بما يضعه أمامها بسخاء من أطباق لحوم البشر. وعلى هذا المنوال مزقتني هجمات الأحصنة بحيث رغبت في العودة إلى عربة الطاحونة.

ولكن آلهة الحظ لم تشبع من تعذيبي وحفرت لي حفرة أخرى. ذلك أنني انتدبت لنقل الحطب من الجبل، وعين رئيساً لي شابٌ شرير من جميع نواحيه فلم يكفه أن يتعبني الجبل بعلوه ووعورته، ولم يكفه أن تجرح الحجارة المسننة حوافري، وإنما راح فوق ذلك يضربني بهراوة دون انقطاع حتى أن ألم ضرباته كان يخترق جسمي حتى النخاع. وبما أنه كان يلهب بضرباته جانبي الأيمن على الدوام وينزلها في الموضع

نفسه فقد فتق جلدي وأحدث فيه خرقاً بل ثقباً أو قرحة واسعة، ولم يكن يتوقف عن ضرب الجرح الذي كان يقطر دماً. وكان يُحملني عندها حملاً من الحطب، يخيل للمرء أن كتلة رزمة قد أُعدت ليحملها فيل لا ليحملها حمار. وما أن يفقد الحمل توازنه ويميل إلى جانب، حتى يلتقط الحجارة. بدل أن ينزع من الحمل المنزلق بعض الأعواد ويريحني من ضغطه لأسترد أنفاسي أو يضعها فوق الجهة الأخرى لإحداث التوازن على الأقل. ويثقل بها الحمل من الجانب الآخر. ولم يرضه هذا الخطب الذي ألم بي، وجعلني أحمل ما تجاوز الحد من الحطب، وإنما جلس، حين وصلنا إلى مجرى مائي، يسيل بمحاذاة الطريق في إتجاه الوادي، كان علينا أن نقطعه، فوق ظهري ليحفظ نعليه من البلل، وكان وزناً خفيفاً بالنسبة إلى ما كنت أحمله بطبيعة الحال! وإذا حدث مرة حقاً وعجزت، لأن الطين الموحل يجعل صفحة المجرى زلجة، عن مسك الحمل وزلقت أو وقعت وكان في وسع الحمار في هذه الحالة أن يسرع إلى مساعدتي، فيجرني من اللجام أو من ذيلي لأقف، أو يخفف من حملي على الأقل إلى أن أنهض ثانية من كبوتي. فإنه لم يساعدني على ما أنا فيه من عناء، بل كان ينهال علي بهراوة كبيرة ويضربني فوق رأسي، بل فوق أذني بصورة خاصة، إلى أن تنهضني هذه الضربات بدل أن ينهضني التخفيف عني!

لقد فكر الوغد في المكر بي على الوجه التالي أيضاً: كان يأخذ حزمة من الأشواك الحادة، التي تنطوي على السموم، ويربطها بخيط معقود، ويثبتها في ذيلي بوصفها آلة تعذيب معلقة. فإن أنا مشيت، تحركت وترنحت وجرحتني بأبرها القاتلة بشكل مرعب! وهكذا كان علي أن أختار بين شرين: عندما أخب لأتجنب هجماته الرهيبة، تتأرجح الأشواك وتخزني بشدة أكثر، وعندما أتوقف قليلاً لأخفف من ألمي، ترغمني ضرباته على الجري. وكان يبدو أن هذا الوغد الحقير لا يفكر في شيء آخر غير كيف يتم له القضاء علي على هذا النحو أو ذاك! وقد أقسم على ذلك وهددني أكثر من مرة.

وقد حدث بالفعل ما كان سبباً في عودته إلى خبثه الشنيع بشكل أسوأ. فقد فقدت ذاتي يوم صبري على وقاحاته المسرفة، فرفعت حافري الخلفيين وركلته. ففكر في هذه الفعلة الشيطانية! لقد حملني رزمة كبيرة من القنب وربطني بالحبال بمهارة، وأخرجني إلى الطريق، ثم سرق فحمة ملتهبة من منزل ريفي قريب ووضعها وسط الحبل بالضبط، فاشتعلت النار في الهشيم حالاً، واتسعت وارتفعت لهباً، وعمني الوهج المميت، فلهم أر لي من نجاة من هذا الخطب الأسوأ ولا أمل في الخلاص منه،

ولم يكن هذا الإحراق ليسمح لي أيضاً بالتفكير في أمر أفضل. إلا أن هناك بصيصاً من إلهة الحظ التمع في هذه اللحظة اليائسة، لعلها أرادت أن تحتفظ بي لأخطار مقبلة، غير أنها أنقذتني على الأقل من موت محقق في هذا الظرف. فقد لحظت مصادفة على مقربة مني غديراً في الماء الموحل، كان قد تجمع من أمطار اليوم السابق، فرميت بنفسي فيه بوثبة واحدة كيفما اتفق بحيث انطفأت النار تماماً، وتخلصت أخيراً، عندما خرجت، منه ومن الحمل ومن الموت. ولكن الغلام الخبيث الوقح نسب هذه المخزاة إلي، وأكد للرعاة جميعهم أنني تعثرت على قدمي المترنحتين عندما مررت بكانون الجيران، فاشتعلت في النار من دون مساعدة منه وابتسم وأضاف يقول:

- حتام نستمر في تقديم العلف لهذا الحيوان المحروق من غير فائدة ترجى منه؟

وبعد مضي أيام قليلة أراد أن يعاملني معاملة أسوأ إلى حد بعيد، فعندما باع في الكوخ القريب ما كنت أحمله من حطب وساقني من غير حمل، أخذ يصيح بأنه لم يعد يتحكم في حقارتي، وأنه أصبح غير قادر على القيام بدور المشرف، وأرسل شكاة من هذا النوع:

- ألا ترون إلى هذا الكسول الممل، إلى حمار الحمار؟ فبعد مخازيه الأخرى ها هو الآن يخيفني بمزعجات جديدة! فما أن يلمح ماراً، سواء أكان امرأة لطيفة أو عذراء في سن الزواج أو حتى غلاماً ناعماً، حتى يلقي حمله، وفي بعض الأحيان يلقي أحلاسه أيضاً، وينطلق كالمجنون ويداهم الناس في هيام، ويسقطهم ويتهالك عليهم، ويظهر نزوات مجرمة لا مثيل لها وملذات فظيعة، ويجعل من نفسه خاطبا تعافه إلهة الجمال، حتى إنه ليوزع ما يشبه القبل ويندفع ويعض بفمه الوقح. إن هذه الواقعة ستسبب لنا مجادلات ومشاجرات خطيرة، بل ربما ترفع دعوى ضدنا. لقد شاهد قبل لحظة فتاة بهية، فألقى الحطب، الذي كان يحمله إلى الوادي، في الحين وبعثره، واندفع نحوها كالمسعور قُدماً وطرحها دون محاباة فوق الأرض القذرة، وهم باعتلائها أمام الناس جميعاً في عين المكان، إلا أن نحيبها وصراخها نبها المارة إليها فأسرعوا إلى نجدتها. ولو لم ينزعوها من حافريه مباشرة ويحرروها منه لداسها وحطمها تحطيماً، يعرضها هي لعذاب أليم، ويعرضنا نحن لعقاب شديد!

ومن خلال هذه الأكاذيب وأمثالها، التي زاد صمتي الخجول من شدة وطأتها علي، حرض الرعاة على الوقوف ضدي. فقال عندئذ أحدهم:

- فلنذبح الآن عريس الجميع هذا المدنس العام للحرمات، كما يليق بممارسته المنافية للطبيعة، ونقدمه قرباناً! ثم أضاف:

- هيا، يا غلام! اقطع رأسه حالاً، وارم أحشاءه لكلابنا، وأحتفظ باللحم لنقدمه وجبة للعمال! أما الجلد فنذر فيه الرماد للمحافظة عليه وحمله إلى السادة. ومن السهل أن ندعى بعدئذ أن الذئب هو الذي قتله.

وبدأ فهمي - وهو الجدير بالعقاب - ومنفذ حكم الرعاة في يشحذ مباشرة السيف في حجر الجلخ، وقد امتلأت نفسه مرحاً وسخرية من وضعي ومن تذكر ضربة الحافر تلك، التي أتأسف بالغ الأسف لقلة فعاليتها.

وعندئذ قال أحد الحاضرين من الأهالي:

- من الإثم أن يقتل حمار جميل من هذا النوع وأن يستغنى عن أعماله وخدماته الجليلة لمجرد أنه متهم بالشهوانية والمغامرات الماجنة! فإذا ما أنتم قطعتم خصيتيه، فلن يستطيع المباشرة بعد ذلك بأية حال من الأحوال، ولن يعود لكم ما تخشونه من متاعب ومضايقات، ثم إنه سيكون لكم فوق ذلك أسمن وأكثر اكتنازاً. وإني لأعرف أن الكثير من الأحمرة الكسولة وحتى من الجياد الجامحة، التي عانت من الرغبة العارمة في التعشير وأصابها الجنون والشرود، تصبح أكثر طواعية وهدوءاً، بعد مثل هذا الإخصاء، وأكثر قدرة على الحمل والقيام بما يشبه ذلك من الأعمال في صبر. وبناء على هذا أستطيع، إذا لم يكن لكم رأي آخر غير هذا الذي اقترحه عليكم، أن أذهب إلى البيت، بعد أن أنتهي من عمل أقوم به في السوق المجاور خلال فترة قصيرة، لأحضر الأدوات اللازمة بمثل هذه العملية، ثم أعود إليكم بسرعة وأفتح فخذي هذا الماجن الكريه وأخصيه وأجعله أكثر وداعة من أي خروف!

لقد أنقذني هذا الحديث الجميل من بين ذراعي الموت، واحتفظ بي لعقاب لا عقاب أنكر منه. فأحنيت رأسي، ورحت أنحب في صمت. لأن أمري سينتهي، ما دام الدور قد وصل إلى أكثر أجزائي الجسمية تطرفاً. ومن ثم عزمت على وضع حد لحياتي عن طريق إضرابي المتواصل عن العلف أو بإلقاء نفسي من مكانٍ عالٍ، لأموت طبعاً على هذا المنوال، ولكني أموت محتفظا بأعضائي الكاملة. وبينما كنت أفكر هكذا في الطريقة التي أختارها لانتحاري، قادني في الصباح من جديد ذلك الغلام، جلادي، إلى الطريق الجبلي المعهود، وربطني في الحين إلى فرع معلق في سنديانة ضخمة، وصعد هو نفسه الطريق قليلاً وأخذ يقطع الحطب ببلطته، وكان يريد أن

ينزل به. وإذا برأس دب رهيب يخرج من مغارة قريبة! وما كاد نظري يقع عليه، حتى جعلني ظهوره المفاجيء أهتز رعباً وأضع ثقل جسمي كله في باطني ركبتي الخلفيتين، وأنصب رقبتي، وأقطع السير الذي يحيط بعنقي، وأفر بسرعة فائقة. لم اكن أركض برجلي فقط، وإنما كنت أركض بجسمي كله، أتدحرج فوق المنحدرات واسير مسرعاً في المراعي المكشوفة، لا أفكر إلا في الخلاص من الدب الرهيب ومنه، من ذلك الغلام الذي كان أسوأ من الدب.

وعندما لمحني أحد السفر، جاء إلي وركبني بسرعة، وأخذ يضربني بعصاه، وقادني إلى طريق جانبي غير معروف. ورحت أخب في سرور بعيداً عن مجزرة الخصي ولم أهتم بالمناسبة بضرباته، فقد تعودت أن أضرب ضرباً رادعاً.

على أن إلهة الحظ، التي دأبت على التفكير في حظي الرد، أقبلت بسرعة كبيرة لتحول بيني وبين اغتنام الفرصة المناسبة للاختفاء، ونصبت لي فخاً جديداً. ذلك أن رعاتنا كانوا قد خرجوا للبحث عن بقرة سخيفة، كانت قد فقدت، وأخذوا يطوفون في اتجاهات مختلفة، فقابلونا مصادفة، وعرفوني في الحين، فمسكوا زمامي ليجروني، إلا أن الآخر قاومهم بصورة عنيفة وتساءل عما إذا كان يقبل مثل هذا أمام الله وعباده وقال:

ـ لماذا تجرورنني بالقوة؟ لم تهاجمونني؟

ـ أهكذا! أنُسيء معاملتك، وأنت الذي سرقت حمارنا وأخذته؟ الأفضل لك أن تعترف حالاً. أين أخفيت الغلام ـ لا شك أنك قد قتلته ـ الذي كان يقود هذا الحمار!

وطرح أرضاً في الحين، وأنهالت عليه الضربات بالأيدي والأرجل إلى أن أخذ يقول ويقسم أنه لم ير سائق الحمار، وإنما وجد الحمار وحده طليقاً، ولم يأخذه في الحقيقة إلا طمعاً في المكافأة، وسيعيده إلى صاحبه في هذه الأثناء. وقال:

ـ لو أن الحمار، الذي أتمنى حقاً لو أنني ما كنت قد رأيته قط، ينطق لاستطاع أن يشهد علي براءتي! وعندئذ ستندمون على دناءتكم هذه.

ولم يفد تأكيده لهم في شيء، فقد وضع الرعاة المزعجون حبلاً حول عنقه، وعادوا به إلى غابة ذلك الجبل، الذي اعتاد الغلام جلب الحطب منه. ولكنهم لم يجدوا له أثراً في أي مكان. ورأوا أن جثته قد مزقت عضواً عضواً ونثرت في كل مكان هنا وهناك! لقد لاحظت بوضوح أن ذلك كان من عمل الدب وأسنانه، وكنت حقاً سأبوح

بما أعرفه لو أنني كنت قادراً على الكلام، إلا أنني قدرت على شيء واحد على الأقل، دون كلمات طبعاً، وهو أن أهنىء نفسي على الانتقام منه ولو هو جاء متأخرا ! وثم في النهاية العثور على الجثة بكامل أجزائها المتناثرة، وجمعت لمقتضى الضرورة ودفنت في المكان نفسه، أما راكبي بيلليفرون البريء فقد اتهموه بالسرقة والقتل الدموي، وحملوه مقيداً إلى أكواخهم، إلى أن يمضوا به - حسب قولهم - في صبيحة الغد إلى الشرطة ليسلم إلى العدالة.

وعندما كان والداه ينحبان ويبكيان صغيرهما، جاء ذلك الفلاح، الذي لم يخلف وعده إطلاقاً، وطالب بخصائي كما تم الاتفاق على ذلك. قال أحدهم:

- لم تأت خسارتنا الراهنة من هذا. ولكننا لا نريد يقيناً أن نقطع لهذا الحمار الدنيء جزءه المخصب فقط، وإنما نحب أن نقطع رأسه أيضاً في صبيحة الغد وستجد هؤلاء الناس تحت تصرفك.

وهكذا أجل شقائي إلى اليوم الموالي، وقد كنت عندئذ ممتناً شاكراً للغلام، الذي منحني بموته يوماً آخر أحياه حتى لحظة إعدامي، إلا أن الوقت لم يتح لا بفرحتي ولا براحتي، فقد دخلت أم الغلام، التي كانت تبكي ميتة ابنها الرهيبة، إلى حظيرتي، والدموع تنهمر من عينيها، وقد ارتدت السواد وراحة تقطع شعرها الأشيب، الذي حيثت الرماد فوقه وقالت، وهي تنحب وترتعد وتضرب صدرها بقوة:

- ها هو الوغد يهجم الآن على معلفه في هدوء، يطاوع نهمه ويوسع كرشه، العديم القعر بحشوه بالعلف، لا يشفق علي فيما أعانيه من حزن أو يفكر في الخطب الفادح الذي ألم بصاحبه! وليس له طبعاً إلا أن يسخر من عجوز ضعيفة مثلي ويحتقرها ويتصور أنه سينجو من العقاب على جريمة من هذا النوع. أتراه يعتقد أيضاً أنه بريء؟ إنه من أولئك الأوغاد الذين لا يتوقعون أن يصابوا بأذى رغماً عن عذاب الضمير. بحق الآلهة، يا وغداً يمشي على أربع. لو أنك نطقت بشكل عابر فأي مأفون يمكنك أن تقنعه بأن هذه الفعلة الشنيعة قد تمت دون أن يكون لك ذنب فيها، وقد كان في وسعك أن تدافع بحوافرك عن الغلام الشقي وترد الشر عن نفسك بأسنانك؟ كيف، أكنت تستطيع مهاجمته هو نفسه في أغلب الأحيان وتعجزُ، عندما كان عليه أن يموت، عن الدفاع عنه بالحيوية نفسها؟ لقد كان في مقدورك أن تأخذه فوق ظهرك على الأقل، وتحمله بعيداً منتزعاً إياه من أيدي قطاع الطريق القتلة، وألا تتركه في آخر الأمر - وهو زميلك وصاحبك ومرافقك وراعيك - وتتخلى عنه وتنجو بنفسك. أم تراك لا

تعرف أن من يرفض عادة تقديم النجدة والمساعدة في وقت الخطر ويسيء بذلك إلى الأخلاق الحميدة، يصله العقاب أيضاً؟ على أنك لن تفرح طويلاً بما أنا فيه من شقاء، أيها السفاح! لا بد أن تشعر أن الطبيعة تمدنا بالقوة في لحظات الحزن والألم!

وبعد هذه الكلمات أدخلت يديها تحت مهشدبها الذي تحمله، وفتحته؛ وربطت رجلي بخيوطه اثنتين اثنتين، وقاربت فيما بين كل منهما بشدة، وهذا حتى لا أستطيع بطبيعة الحال الدفاع عن نفسي عند تنفيذ العملية، ثم تناولت قضيباً، يُسدُّ به باب الحظيرة عادة، وراحت تضربني بدون انقطاع إلى أن تعبت ووهنت قواها وسقط القضيب من يدها تحت ثقل حمله. وشكت بعدئذ من أن ذراعيها قد أصابهما التعب بسرعة، وأسرعت إلى البيت وعادت بحطبة مشتعلة ودفعت بها في خاصرتي إلى أن ألجأتني إلى السلاح الوحيد الذي بقي لي، فأطلقت سيلاً من الروث ولوثت وجهها وعينيها، فأبعد العمى والنتن عني الهلاك - وإلا لكنت قضيت جثتي أنا والحمار المسكين مثلت ميلياغر بجذوة ألثايا المسعورة!

الكتاب الثامن

عند صياح الديك الأول جاء شاب من المدينة القريبة، والظاهر أنه كان أحد عبيد خاريتي، تلك الفتاة، التي شاركتني في معاناتي عند اللصوص. وقد روى أشياء مرعبة عن نهايتها وعن محنة أسرتها كلها، إذ أنه جلس إلى موقد النار وراح يحدث أمثاله من العبيد الذين اجتمعوا حوله:

ـ يا سياس الخيل، ويا رعاة الغنم، وكذلك أنتم يا رعاة البقر، إن سيدتنا خاريتي لم يعد لها وجود! فقد حلت بها مصيبة كبيرة مفجعة، فغادرتنا إلى عالم الأرواح وكان لها من يرافقها. ولكي تعرفُوا كل شيء أريد أن أبدأ من البداية وأروي لكم ما حدث وما يستطيع الرجال العلماء، الذين وضع القدر القلم في أيديهم، أن يضعوه فوق الورق من قصص نموذجي لو هم تناولوا هذا الموضوع.

كان يعيش في المدينة المجاورة شاب كريم المولد، وكان لذلك وجيهاً وثرياً نوعاً ما، ولكنه كان طائشاً منغمساً في الملذات، يخالط البغايا باستمرار، ويتردد على مجالس الشراب يومياً، وهكذا أصبح رفيقاً لعصابة من اللصوص، ولطخ يديه كذلك بدماء بني الإنسان، وكان اسمه ثراسيلوس (الجسور)، هكذا كان اسمه وهكذا كانت شهرته.

وما أن بلغت خاريتي سن الزواج، حتى تقدم فيمن تقدم لخطبتها، وكان أكثر الخطاب الوجهاء عزماً على الفوز بها. ولكنه، مع أنه كان أولى بها من هؤلاء جميعاً وحاول أن يستولي على قلبي الوالدين بما قدمه لهما من هدايا نفيسة، رفض بسبب سوء سيرته، وكان هذا الرفض بمثابة العار بالنسبة إليه. وعندما خطبت بنت الدار لتليبوليموس (المقاتل الصامد) الفاضل، أظهر هياماً شديداً بها، وامتزج ذلك بسخطه لرفض زواجه منها. فأخذ يبحث عن طريقة لإرتكاب جريمة دموية. وحين وجد في النهاية فرصة للاقتراب منها، استعد لتنفيذ الجريمة التي فكر فيها طويلاً. ففي اليوم الذي حررت فيه الفتاة بفضل حيلة خطيبها وجرأته من نصال اللصوص

المشرعة، اختلط بسرور ظاهر بمجموع المهنئين، وبما أنه أظهر فرحته بنجاة الفتاة وبذرية الخطيبين المقبلة، فقد سمح له حباً بأجداده الشرفاء بالانضمام إلى أصحاب الحظوة من الضيوف في بيتنا، حيث لم يترك أحداً يلاحظ شيئاً عن خطته الإجرامية، ولعب دور الصديق الوفي. وقد جعلته أحاديثه الشيقة وزياراته المبتكرة، ومشاركته أحياناً في مجالس الطعام والشراب، محبباً إلى القلوب شيئاً فشيئاً، وسقط، دون أن يلاحظ ذلك، في دوامة الاشتهاء. وكيف يكون الأمر غير ذلك؟ فمن الممكن أن تمتع شعلة الحب المضنية، حين تكون صغيرة، وتحترق لأول مرة دون لهبٍ، ثم إذا ما أن يؤججها هشيم العادة، حتى تحرق الناس بلهيبها المتواصل من الرأس إلى القدم.

لقد فكر راسو لوس طويلاً في الأمر، ولكنه لم يجد مكاناً مناسباً يتحدث فيه خفيةً معها، ورأى كل الأبواب المؤدية إلى الخيانة الزوجية يقوم على حراستها رجال يزداد عددهم باستمرار فكان عليه أن يعي أن عاطفة يافعة نامية لا تنفصم عراها، وأن الزوجة الشابة، حتى لو هي أرادت (مع أنها كانت تستطيع ألا تريد) لا تعرف شيئاً عن فن خيانة الزوج، وهو ما يقف في طريق نيلها أيضاً. ومع ذلك دفعه قضاء عنيد إلى ما لا يمكن حدوثه بالذات، مع أن حدوثه ممكن! فإذا كان ثمة شيء يصعب نيله، فإن نمُو الحب يوماً بعد آخر يجعله سهل المنال. فانظروا إذن، وانتبهوا رجاء، إلى أين تدفع بالإنسان عواصف الهوى الجامح!

ذات يوم ذهب تليبوليموس إلى الصيد وأخذ معه ثراسويلوس لصيد الوحوش، إن صح أن نعتبر الأيائل وحوشاً. ذلك أن خاريتي لم تكن تدع زوجها يصطاد الحيوانات التي لها أسنان أو قرون، وحاصر الصيادون الأيائل فوق تل غابي تظلله فروع الأشجار الكثيفة، وأرسلت كلاب الصيد لمطاردتها في أماكنها، فاندفعت في الحين وسدت جميع المسالك حسب الطريقة التي تعلمت بها على القنص. واستطاعت في البداية أن تسيطر على نفسها، فكانت تهر بصوت غير مسموع، على أن صفيراً مفاجئاً جعلها تنبح نباحاً مسعوراً، ولم يكن هناك أيل ولا ظبي وجل ولا أكثر الحمر وداعة، الغزالة، وإنما كان ذكر الخنزير البري الرهيب، الذى لم ير مثله، قام من مرقده، وقد امتلأ جلده شحماً، ووقف شعره الخشن، واتخذ شكلاً مدبباً فوق عموده الفقري، وانتشر الزبد حول أنيابه الحادة المصرة، وانطلقت من عينيه الناريتين نظرات متوعدة، وأشبه نخير خطمه عاصفة هوجاء وبرقاً مشخصاً! وراح في البداية يقذف بالكلاب بجانبي وجهه يمنة ويسرة، عندما تجرأت على مهاجمته، فمزقها وقتلها هكذا، ثم داس الشبكة في المكان الذي توقف فيه عن هجومه، فخرج منها وسار مبتعداً في

،راخ وتمهل.

تجمدنا نحن كلنا رعباً، لأننا كنا متعودين على عمليات الصيد العادية، ولم نكن نحمل معنا سلاحاً، لذلك اختفينا خلف الأدغال أو الأشجار. على أن تراسيلوس وجد فخاً مناسباً، فخاطب بليبوليموس قصد إحراجه قائلاً له:

ـ أيجوز لنا أن نصاب بالذهول ونرتبك، وأن نظهر دعراً بالغاً كهذه المجموعة من الخدم أو تتضاءل نفوسنا على طريقة النساء وندع هذه الغنيمة الفاخرة تفلت من ايدينا؟ ما رأيك في أن نمتطي صهوة جيادنا ونذهب لإحضارها؟ خذ أنت الحربة، وانا آخذ المزراق!

وامتطيا جواديهما في نفس اللحظة وبادرا بمطاردة الخنزير البري، إلا أن الخنزير البري فكر في قوته الطبيعية واستدار للهجوم، ووقف ينظر في ضراوة مرعبة ويترقب في حيرة من منهما سيتلقى أولاً ضربة نابه. كان تليبويموس أول من قذف عندئذ حربته في ظهر الحيوان، أما تراسيلوس فقد تركه يذهب. ولكنه وخز بمزراقه مفصلي الركبتين الخلفيتين لحصان تليبوليموس، فخرقهما، فانثنى الحصان إلى الخلف، وقد انبجست الدماء غزيرة من ركبتيه، ووقع على ظهره تماماً ورمى صاحبه فوق الأرض رغماً عنه، وإن هي إلا لحظة حتى هاجمه الخنزير الهائج، ومزق ألبسته أولاً، ثم مزقه هو نفسه، عندما أراد النهوض، بضربات أنيابه المتواصلة. ولم يرتع الصديق الطيب لهذه البداية المنكرة، بل لم يشف غليله عندما رأى الخطر يحدق بضحيته، فطعنه، حين كان يحاول أن يغطي فخذيه المخروقين ويتوسل إليه بصورة بائسة أن ينجده، بمزراقه في وركه الأيمن، وذلك لأنه كان على ثقة بأن طعنة المزراق ستكون شبيهة بطعنة ناب الخنزير وبعد ذلك طعن الخنزير نفسه وقتله بيده الماهرة.

وعندما أنهى حياة الشاب على هذه الصورة، أخرجنا نحن الخدم من مخابئنا المختلفة، فأسرعنا مرعوبين إلى المكان الذي قتل فيه هذا الشاب. وقد سره هو أن يرى أمنيته قد تحققت وعدوه طريحاً فوق الأرض، ولكنه لم يظهر شيئاً من فرحته هذه، وقطب جبينه وتظاهر بالألم. أما في أعماقه فكان يعانق الجثة ـ فعله! ـ وسلك سلوك من يشعر بألم كبير، إلا أنه لم يوفق في ذرف دموعه. وهكذا عرف كيف يتلاءم مع عويلنا الحقيقي وينسب ما جنته يده إلى الحيوان!

وكانت الإشاعة قد انتشرت قبل أن تنتهي الجريمة تماماً، ووصل خبر موت تليبوليموس أولاً إلى أهله. وما أن مزق سمع خاريتي المسكينة هذا الخبر المرعب.

وما كان في استطاعتها أن تسمع خبراً أسوأ منه - حتى داهمها ألم جنوني، وفقدت السيطرة على نفسها، واندفعت تركض كالسكرى بين الجموع في الشوارع والمروج، وهي تتأوه وتولول وتبكي بصوت صارخ موت زوجها. وازدحمت جموع الأهالي حولها، وراح المتعاطفون معها يشاركونها في الصراخ والولولة، وفرغت المدينة، فقد كان الجميع يريدون أن يروا ما حدث. وجرت إلى جثة زوجها ورمت نفسها فوقها باكية ناحبة. وكادت تقدم له هناك حياتها التي كانت قد كرستها له وحده. وأبعدها أهلها عنه بمشقة كبيرة، فبقيت لها حياة لا رغبة لها فيها. وحمل الميت إلى قبره وشارك في موكب جنازته الشعب كله.

وكان تراسيلوس يصرخ ويصرخ، ويصدر حركات تعبر عن ألمه، وانهمرت الدموع من عينيه - لم يبك عند بداية المأتم، ولكن فرحته نمت في تلك اللحظة! وأطلق عليه ألطف الأسماء، التي تخدع الحقيقة نفسها: الصديق، والزميل، والرفيق، والأخ في النهاية إضافة إلى اسم الميت! ويبعد بين ذلك يدي خاريتي، اللتين تضربان صدرها، ويهدىء روع الملتاعة، ويأسى الباكية، ويخاطبها. بكلمات مسكنة لأشواك الألم. وذكر لها أمثلة متنوعة عرضية مواساة لها!

وكان يريد من وراء إظهار هذا الوفاء الكاذب للصديق مُلامسة المرأة! فكان ذلك بمثابة جعل المسرات المعكوسة وقوداً لحب بغيض! - ومع ذلك فما أن انتهت الجنازة، حتى أسرعت المرأة الشابة تهيىء طريق النزول إلى زوجها، وراحت تختبر كل الطرق على الترتيب، واختارت على كل حال ذلك الطريق الهادىء الذي لا يتطلب سلاحاً، وإنما يشبه الهدوء الوديع: فقد ودعت الحياة حين ألزمت نفسها الصوم المتواصل وأهملت كل شيء وعاشت في الظلام والخفاء.

على أن تراسيلوس استطاع بإلحاحه - تارة بنفسه - وتارة عن طريق أهله أو بواسطة معارفه، وفي النهاية عن طريق أبويها أيضاً - أن يفتك منها موافقتها على أن تنعش جسمها، الذي كاد يتهدم شحوباً وقذارة، بالاستحمام ثم بتناول الطعام. وفعلت على رغم منها، احتراماً لأبويها وإذعاناً للواجب الخلقي، ما طلب منها دون أن تبدو عليها الطلاقة، ولكنها كانت، وهو تقوم بأشغال الحياة، كما يقال لها، منبسطة الملامح قليلاً. أما في أعماق صدرها، بل في أعماق نخاعها فكانت تتمزق ألماً ونقمة، وكانت تقضي أياماً وليالي كاملة يعذبها الشوق الحزين إلى زوجها، وتتقرب إلى تماثيله، التي صنعت بأمر منها حسب المظهر الذي يظهربه الإله ديو نيزوس، بالعبادة والتقديس

في خشوع كبير، فكانت تعذب نفسها بهذا العزاء. ولكن تراسيلوس كان دائماً متسرعاً وجريئاً، كما يدل على ذلك اسمه. فقبل أن يشبع ألمها من دموعها، وتخف ثائرة عقلها المضطرب، ويفتر حزنها المفرط، وفيما كانت لا تزال تبكي زوجها، وتمزق ثيابها، وتقطع شعرها، أخذ يحدثها عن الزواج ويكشف بوقاحة عن أسرار قلبه وأباطيله البالغة. ولكن خاريتي أحست بالرعب والهلع حيال كلمة الزواج الدنيئة، كما لو أنها اصابتها الصاعقة أو ثورة السماء أو غمرتها ومضة بريق جوبيتر، فسقطت مغمى عليها. ولكن ما أن عاد إليها وعيها بعد فترة تدريجياً، حتى راحت تصرخ كحيوان جريح وقد اكتشفت لعبة تراسيبلوس الوغد. فطلبت منه أن يمهلها في قضية الزواج، حتى تضع خطتها.

وفي أثناء ذلك رفع ظل القتيل التعس وجهة الشاحب المتقاطر دماً وقطع نوم الزوجة الطاهر قائلاً:

ـ يا زوجتي الغالية! هذا ما لن يسمح لغيري أن يقوله لك، إلا إذا أنت تخليت عن الاحتفاظ بذكراي في قلبك وقطعت ميتتي المريرة رباط الحب. يمكنك أن تكوني سعيدة مع زوج آخر، ولكن إياك أن تسلمي نفسك إلى يدي تراسيلوس الملطختين بالعار، وتجنبي الحديث إليه والجلوس معه إلى المائدة والاستراحة معه في فراش واحد! أهربي من يمناه الدموية، التي قتلتني غيلة! لا تقبلي على حياة زوجية تحت شعار قتل الصديق! إن الجراح، التي غسلت دماءها دموعك ليست كلها من ضربات الأنياب: إن مزراق النذل تراسيلوس قد انتزعني من جانبك!

وروى لها ما عقب ذلك وأوضح لها العمل الخبيث بشكل مفصل. كانت قد استسلمت للنوم وهي حزينة حزناً كبيراً، وقد ضغطت وجهها في مخدتها، والدموع تنبعث من عينيها وتبلل وجنتيها، فأخذت تصرخ، كما لو هزها كابوس رهيب من نوم مضطرب، بصوت حاد، وتقطع قميصها، وتخدش ذراعيها الجميلتين بيديها الصغيرتين الهائجتين. ولم تخبر في ذلك الأثناء أحداً بالوجه الذي ظهر لها في نومها، وإنما احتفظت بما اكتشفته سراً خاصاً بها، وقررت في صمت أن تعاقب القاتل الكريه وأن تعتزل هي نفسها متاعب الحياة.

وعاودها مرة أخرى يسعى إلى اللذة الوقحة، وراح يعرض عليها مشاريع الزواج بإلحاح، ولكنها غلقت أذنيها دونه. ورفضت المرأة الشابة حديث تراسيلوس بلطف، وردت على هديله الملح وتسوله الوضيع بكلمات فيها الكثيرة من الروعة والدهاء.

وقالت:

ـ لا يزال وجه صديقك العزيز وزوجي الجميل يسكن في عيني، ولا يزال عطر البلسم، الذي يفوح من جسمه الإلهي، يغمر أنفي، ولا تزال هيأة تليبوليموس البديعة تعيش في قلبي! ولهذا فأحسن، بل أفضل نصيحة تقدم إليك هي أن تترك لامرأة حلت بها مصيبة كبيرة الوقت الضروري لعدتها إلى أن تنتهي وتكمل الشهور الباقية من الفترة السنوية، وهذا حرصاً على سمعتي أولاً، إلا أنه لا يخلو أيضاً من منفعة وفائدة بالنسبة إليك. ذلك أنه لا يجوز لنا أن نغضب روح زوجي بزواجنا المبكر، فينهض في غضبة المشروع ويقضي على حياتك.

إلا أن تراسيلوس لم يتأثر بهذه الكلمات أو يعود إلى وعيه لقرب الأمل في النجاح، وإنما راح يهمس في أذنيها دون توقف بكلمات معيبة حتى الضجر، إلى أن تظهر له في النهاية أنه انتصر عليها وتقول له:

ـ ولكن لي رجاء ملحاً، عليك على الأقل أن تحققه لي، يا تراسيلوس، وهو أن نلتقي في أثناء ذلك بشكل سري وألا يلاحظ أحد في البيت شيئاً من ذلك، وهذا إلى أن تنقضي الأيام المتبقية من السنة.

وخضع تراسيلوس لأمر المرأة المكارة دون مقاومة ووافق من غير روية على اللقاء السري بينهما. وتمنى في شوق أن يحل الليل بظلامه المليء بالأسرار ونسي كل شيء من أجل أن يتملكها. قالت له خاريتي:

ـ اسمع! عليك أن تتلثم تماماً وأن تتخلي عن مرافقة أي شخص لك وأن تأتي بهدوء إلى باب بيتي في نوبة الحراسة الأولى! واكتف بصفير واحد وانتظر هناك مربيتي، التي ستكون ساهرة قرب مزلاج الباب. وعندما تفتح لك البيت وتدخلك، ترافقك، دون أن تشعل الضوء، إلى غرفة نومي.

ووافق تراسيلوس على حفلة زواج الموت. ومن غير أن يرتاب في شيء، أخذ، وقد نفد صبره، يشكو من طول النهار وتأخُر الليل. ولكن ما أن أخلت الشمس مكانها لليل، حتى تسلل، وقد تجهز، كما طلبت منه خاريتي ذلك، وأغرته المربية الساهرة بالاتجاه إلى الفخ، إلى غرفتها والأمل يسكره. فاستقبلته العجوز وفقاً لأوامر سيدتها، وأحضرت خفية كوباً وجرة، تحتوي على خمر مزجت بمنوم. وبينما كان يرتشف الخمر بنهم لا يحمل هماً رشفة بعد أخرى، زعمت له أن سيدتها ستتأخر، لأنها جالسة

إلى فراش أبيها المريض، ونجحت في حمله على أن ينام كالميت! وعندما انبطح على ظهره، وأصبح عرضة لكل أذىً، استدعت خاريتي، التي اندفعت نحوه بشجاعة الرجل، وقد تملكها غضب عنيف، ووقفت عند رأسه تقول:

ـ هذا إذن هو المرافق الغالي لزوجي، هذا الصياد الماهر، هذا هو خطيبي العزيز! هذه هي اليمنى التي أراقت دمي، هذا هو القلب الذي دبر المكيدة لهلاكي! هاتان هما العينان اللتان كان لا بد أن أعجبهما، ولكنهما تجريان الآن الظلام المقبل وتسبقان العقاب الغريب. نم خلي البال، واحلم حلماً سعيداً! لن آتيك بالسيف ولا بمزراق، ـ بعداً لموتٌ قريب ينزلك منزلة زوجي! يجب أن تعيش، وأن تموت عيناك وحدهما، ولا ينبغي لك أن ترى شيئاً إلا في النوم. سأحرص على أن أجعلك تعتبر موت عدوك سعادة أكبر من حياتك! كن مطمئناً إلى أنك لن ترى الضوء أبداً، عليك أن تسلم نفسك لمرافقك. لن تحتل خاريتي ذراعيك، ولن تبتهج بزواجك، لن يسرك هدوء الموت ولن تفتنك لذة الحياة. كلا، ستطوف شبحاً مترنحاً بين السماء والجحيم وتبحث طويلاً عن اليمنى التي حطمت عينيك. وأسوأ ما في عذابك أنك لن تعرف ممن تشكو. أما أنا فأقدم دماء عينيك قرباناً في قبر زوجي تليبوليموس وأتبرع لروحه الميتة المقدسة بهاتين العينين. ولكن لماذا توفر على نفسك عذابات مستحقة عن طريق تأجيل ذلك ولربما تصور لنفسك معانقاتي القاتلة؟ أترك ظلام النوم وأنهض إلى ظلام آخر هو ظلام العقاب! أرفع وجهك بمحجريه الفارغين، وتعرف على الانتقام، وافهم الشقاء، وفكر في العذاب! هكذا أعجبت امرأة عفيفة بعينيك، وهكذا أضاءت شعل الزواج مضجعك! ستكون ربات الانتقام وصيفات عروسك، وسيرافقك العمى وعذاب الضمير الأبدي!

هكذا كانت المرأة تتحدث وهي كالمسحورة، وأخذت إبرة الشعر من رأسها وغرزتها في عيني تراسيلوس. وبينما بقي هو هناك طريحاً أعمى، وقد أطار ألم غامض سكرته مع نومه، التقطت هي سيفاً مجرداً، كان تليبوليموس يعلقه في حزامه، انطلقت تركض عبر المدينة، وتوجهت، وفي ذهنها ولا شك القيام بعمل من أعمال العنف، مباشرة إلى قبر زوجها.

وسرنا نحن والشعب كله ـ كان البيت يفرغ الواحد بعد الآخر ـ وراءها بسرعة، أحدنا يحرض الآخر على أن ينتزع السيف من يدي المجنونة. ولكن خاريتي اقتربت من ضريح. تليبوليموس، وأبعدتنا بالسيف الملتمع في يدها. وصاحت، عندما رأت

الجميع يبكون ويولولون، قائلة:

. ليس هذا أوان الدموع ولا هو أوان الشكوى التي لا تجدي أعمالي البطولية! لقد انتقمت من قاتل زوجي، وعاقبت اللص البشع الذي سلبني حياتي الزوجية. وقد آن الأوان الآن لأبحث بهذا السيف عن الطريق الذي يفضي بي إلى زوجي تليبوليموس في العالم السفلي!

وروت على الترتيب ما أخبرها به زوجها في الحلم وكيف احتالت على تراسيلوس وكيف هاجمته وفعلت به ما فعلت، ثم غرزت السيف تحت الجانب الأيمن من صدرها ووقعت فوق الأرض، وراحت تتقلب في دمها، ونطقت بكلمات غير مفهومة قبل أن تلفظ روحها الشجاعة. وغسلت جثة خاريتي المسكينة بعناية، وأعاد الأهل الزوجة لزوجها ودفنوهما في قبر واحد إلى الأبد.

وعندما علم ترسيلوس بكل شيء، تصور أن المصيبة التي حدثت لا يمكن أن تنتهي إلا بمصيبة جديدة مناسبة. وبما أنه كان على وعي بأن السيف لا يتناسب مع جريمة من هذا النوع، فقد طلب بدافع ذاتي أن يحمل إلى الضريح هناك أيضاً. وأخذ يردد:

. ضحية متطوعة جاءت قرباناً لك، أيتها الأرواح الغاضبة. ها هي هنا!

وبعد ذلك غلق الباب على نفسه بعناية، وقرر أن يطفيء شعلة حياته عن طريق الصوم، فهو الذي قضى عليها بنفسه.

هكذا روى الرجل القصة، والأهالي يرسلون تنهدات عميقة، وبعضهم يذرف دموعاً حارة من أثر الفاجعة. لقد كانوا الآن يخشون أن تحدث أشياء جديدة بحكم تغيير الملكية، وكانوا قد تألموا كثيراً أيضاً لما حدث لبيت أسيادهم، فأخذوا يستعدون للهرب. وأحضر المشرف على الحظيرة، الذي كان يعتني بي عندما يطلب منه ذلك اتفاقاً، كل ما كان لديه من أشياء نفيسة وثمينة في مسكنه، وحملني إياها كما حمل بها غيري من الدواب وترك المكان الذي أقام فيه حتى الآن. وحملنا أطفالاً صغاراً ونساء، وحملنا دجاجاً وطيوراً مغردة، وعنزات وكلاباً صغيرة. فكل من عجز عن المشيء وعاق هربنا، كان يمشي على أرجلنا. ولم أشعر بثقل الحمل، مهما بلغ حجمه . لأني كنت قد تركت بهذا الفرار البهيج ذلك الرجل، الذي كان قد جعل من الحماقة سلاحاً ليجري لرجولتي عملية جراحية!

واجتزنا ظهر جبل غابي وعر وعبرنا ثانية أراضي قاحلة إلى أن أظلم الطريق

امامنا في المساء ووصلنا إلى مدينة صغيرة كثيفة السكان غنية. وقد طلب منا سكانها أن نقضي الليل فيها أو نبقى إلى الصباح الموالي، فهناك أسراب من الذئاب القوية الضخمة المتوحشة المفترسة إلى حد كبير، تعودت على القيام بهجمات واسعة، جعلت المنطقة كلها خطيرة غير آمنة. وقالوا إنها تحاصر حتى الطرق وتهاجم المارة كاللصوص، بل تهاجم في جوعها المسعور المزارع المجاورة، باختصار: كان على الناس أن يرتعدوا مثل أكثر الماشية بلادةً خوفاً على حياتهم. ولذلك فعلى الطريق، الذي سنسلكه إجبارياً جثث بشرية افترس نصفها وقد أصبح كل شيء أبيض نتيجة للأضلاع التي نزع عنها اللحم. فعلينا إذن أن نكون حذرين أثناء السير وأن نحرص على ألا نسير إلا في الضوء عند تقدم النهار أو سطوع الشمس وأن نتجنب كل الكمائن الخفية، عندما يجعل الضوء البهائم المروعة كسلى بطيئة الحركة. وعلينا كذلك ألا نتناثر هنا وهناك، وإنما يجب علينا أن نمر عبر تلك المخاطر ونحن نكون شكلاً صغيراً وموكباً متماسكاً.

ولكن الفارين الأراذل، الذين كانوا يقودوننا، لم يأخذوا في سرعتهم العمياء خوفاً من مطاردة ممكنة بهذه النصيحة الجيدة وساقونا، دون أن ينتظروا ضوء النهار المقبل، في نوبة الحراسة الثالثة على التقريب، إلى الشارع بأحمالنا. لقد أخذت حذري من الخطر المعلن عنه، وجعلت نفسي، قدر ما استطعت، في وسط المجموعة بين دواب النقل صغير أو غير مرئي، وذلك لأضمن لردفي السلامة من هجمات الحيوانات المتوحشة. وكان الجميع قد استغربوا أن أكون قد تميزت بسرعة سيري عن الحيوانات الأخرى، عن الأحصنة، ولكن خفة الحركة هذه لم تكن تدل على الحيوية، وإنها كانت تدل على الخوف! ومن ثم طاف بذهني أن بيغاسوس الشهير كان أشد خوفاً من الطيران، وهو ما جعل الصور تظهره بحق مجنحاً، عندما طار عمودياً حتى السماء وهبط ثانية، وهذا طبعاً احتراماً لعضة خيميرا (الأفعى) التي تنفث ناراً!

كان الرعاة، الذين كانوا يسوقوننا، قد حملوا الأسلحة بأيديهم وكأنهم ماضون إلى ميدان المعركة، فهذا يحمل مزراقاً، وذاك يحمل رمحاً، واحد يحمل سهماً وآخر هراوة، ولكنهم حملوا أيضاً، الحجارة التي كان الطريق الوعر يقدمها لهم بوفرة. وكان بينهم كذلك من حملوا الأعمدة المدببة، وكان معظمهم يحاولون أن يطاردوا الحيوانات بواسطة الشعل الملتهبة. ولم ينقص شيء ما عدا البوق، وإلا لكانت ثمة جبهة قتال!

وبعد أن نجونا من هذا الخوف، الذي كان فارغاً ولم نجن منه أية فائدة على الإطلاق، وقعنا في مصائد أكثر سوءاً. ذلك أن الذئاب - ومن الجائز أن تكون قد أفزعتها ضجة المجموعة المتلاحمة أو نيران المشاعل الملتهبة على الأقل، فانتقلت إلى منطقة أخرى - لم تهاجمنا، ولم نر أيًا منها حتى من بعيد. ولكن فلاحي إحدى المزارع، التي مررنا بها، اعتبرونا لصوصاً، واعتراهم الرعب، وربما كان ذلك خوفاً على أموالهم وأملاكهم، فحرضوا علينا كلاباً عُقُراً، كانت أكثر ضراوة من الذئاب والدببة، وكانوا قد دربوها بعناية على الحراسة، وهم يصدرون أوامر وصيحات مختلفة. وفضلاً عن طبيعتها الضارية، فإن ضجة أصحابها جعلتها أكثر ثورةً وهياجاً، فهاجمتنا، وحاصرتنا من جميع الجهات ووثبت علينا في كل مكان من غير تمييز، فراحت تمزق دواب الحمل والبشر، وطرحت أغلبهم أرضاً بعد صراع طويل. وما كان لامرء أن يستطيع رؤية منظر أدعى إلى الشفقة منه إلى الحديث عنه حقاً مثل هذا المنظر: كلاب كثيرة ضارية تحاصُر هنا كل ما يتحرك، ولا تترك هناك كل ما يتوقف، وتعلو على ملم طرح أرضاً كذلك وترسل أسنانها تتجول عبر قافلتنا.

وعقب هذا الخطر الكبير خطب أكبر منه. فقد كان الفلاحون يرسلون علينا من سطح الجلمون ومن فوق تل قريب حجارة مزمجرة، إلى درجة أننا لم نستطع أن نقرر أيا من هذه المصائب ينبغي لنا أن نتجنبها، الإلتحام بالكلاب أو الرمي البعيد بالحجارة. وقد أصاب واحد منها رأس المرأة، التي كانت جالسة فوق ظهري، فجأة، وآلمها ذلك أشد الألم، فصرخت ودعت زوجها، ذلك الراعي، إلى مساعدتها، فمضى إليها ومسح الدم عنها وأخذ يصرخ:

- بربكم، لماذا تهاجموننا نحن الرعاة المساكين المعذبين على هذا النحو من القسوة وتقضون علينا؟ أتطمعون في الغنائم؟ أتطالبون بالتعويضات؟ إنكم لا تسكنون في المغارات مثل الحيوانات الضارية أو فوق الصخور كالوحوش حتى تتسلوا بسفك الدماء البشرية وإراقتها!

وما كاد ينتهي من قوله هذا، حتى خف مطر الحجارة، واستدعيت الكلاب المزمجرة وهدئت. ثم صاح أحدهم في الجهة الأخرى من أعلى قمة شجرة من أشجار السرو قائلاً:

- إننا لا نطمع في أن نسلبكم ونبتز أموالكم، وإنما نريد أن نبعدكم عنا بالذات حتى لا تفتشوا منازلنا! الآن يمكنكم أن تواصلوا رحلتكم في أمن وسلام وطمأنينة.

هذا ما قاله. أما نحن فقد أخذنا نسير مثقلين بجراحنا، هذا جرحه حجر، وذاك عضه كلب. كنا كلنا نحمل جراحاً بالغة! وبعد أن قطعنا مسافة بعيدة إلى حد ما على هذه الصورة وصلنا غابة ذات أشجار عالية ومساحات جميلة خضراء. وهنا قرر قادتُنا أن نستريح قليلاً حتى يعالجوا جراح أجسادهم بعناية. فتمدد الجميع فوق الأرض، ليسترد كل واحد أنفاسه من شدة الحرارة أولاً، ثم يعالج جراحه بأدوية مختلفة. هذا يغسل جرحه بماء بارد ينساب على مقربة منه، وذاك يضع فوق أورامه كمادات مضمخة بالخل، وثالث يعصب جراحه المنفرجة بالضمادات، فكان هكذا كل واحد مهتماً بصحته وعافيته.

وفي أثناء ذلك أطل من فوق أحد التلال رجل عجوز، نمت المعاز، التي كان ترعى حوله، عن أنه راعٍ. فسأله أحدنا عما إذا كان لديه حليب يبيعه، سواء كان شراباً أم جبناً طازجاً، ولكن العجوز حرك رأسه طويلاً، ثم قال:

- كيف تفكرون الآن في الطعام والشراب أو في أي شيء منعش على الإطلاق؟ ألا تعرفون في أي مكان نزلتم؟

وبعد أن نطق بهذه الكلمات جمع قطيعه واستدار واختفى. ولم يكن كلام الرجل وفراره أقل إثارة لرعب رعاتنا. وبينما كانوا لا يزالون، وقد أصابتهم الدهشة، يتساءلون عن أمر هذا المكان ولم يكن ثمة من يرد على أسئلتهم، أقبل عجوز آخر، طويل القامة، أحنى ظهره عبء السنين، وهو يتكيء بصعوبة على عصاه، يسير بخطى بطيئة والدموع تنهمر من عينيه. وعندما وصل إلينا، لمس ركبة كل رجل باكياً وتوسل قائلاً:

- أتوسل إليكم بربات الحظ والأرواح الحارسة، ولتكن من نصيبكم الصحة والسعادة حتى تبلغوا ما بلغته أنا من العمر! أتوسل إليكم أن تساعدوا رجلاً خدع في سعادته. أنتزعوا ابني الصغير من مملكة الموتى وأعيدوه إلى شعري الأبيض! إنه حفيدي، مرافقي الحلو في رحلتي هذه. كان قد كمن في سياج من الشجيرات الملتفة لطائر مغرد، وعندما أراد أن يمسكه وقع في حفرة قريبة منه، تقع فتحتها تحت الأدغال، وحياته الآن معرضة لخطر كبير. فقد عرفت من بكائه وندائه، لأنه يهتف دائماً باسم جده، إنه لا يزال على قيد الحياة، ولكن قواي الجسدية قد انهارت، كما ترون، وما أنا بقادر على مساعدته. ومن السهل عليكم، أنتم الشبان اليافعون، أن تسعفوا رجلاً عجوزاً مسكيناً وتنقذوا لي حياة ولدي، أصغر أبناء أبنائي، فهو الوحيد

الذي سيحفظ اسم أسرتي من الضياع.

وعندما كان يتوسل إليهم هكذا، ويقطع شعره الأبيض، استطاع بطبيعة الحال أن يثير فيهم الشفقة جميعاً. فقام واحد منهم جريء القلب، غض الشباب، قوي الجسم أكثر من أي شخص آخر، وكان الوحيد الذي خرج سالماً من المعركة السابقة، وسأل بثبات عن المكان الذي وقع فيه الصبي، ورافق الشيخ، الذي كان يشير بأصبعه إلى شجيرات متشابكة في مكان قريب. وبعد أن قدم لنا العلف، وتم تناول الطعام وتضميد الجراح استعددنا لمواصلة رحلتنا، فأخذ كل واحد رزمته وسار في طريقه. وأخذوا ينادون الشاب باسمه أولاً ويكررون النداء، ثم أخذ الاضطراب يعتريهم عندما طال تأخره عنهم، فأرسلوا أحدهم لإحضاره، وطلبوا منه أن يذكر الرفيق بقرب موعد السفر ليلتحق بهم. إلا أن الرجل عاد بعد فترة قصيرة راكضاً، شاحب الوجه مرتعداً ليحمل إليهم هذا الخبر المريع عن زميله. وحدثهم بأنه شاهد الشاب مضطجعاً على ظهره، وقد أكل معظمه وجلس فوقه تنين رهيب. . ولكنه لم ير أثراً لذلك العجوز التعس في أي مكان! وعندما سمعوا هذا وقارنوه بكلام الراعي، الذي لا بد أن يكون قد عنى بتلميحه الغامض ساكن هذه المنطقة الرهيب لا غيره، تركوا المنطقة المنحوسة، وفروا منها مسرعين وهو يسوقوننا أمامهم، ويضربوننا بهراواتهم بنشاط كبير. وهكذا قطعنا بسرعة مسافة كبيرة، وبلغنا قرية، استرحنا فيها الليل كله. وهنا وقعت قصة غريبة أود أن أرويها:

كان أحد الخدم، جعله سيده رئيساً مطلقاً لعبيده ومسيراً لضيعته الكبيرة، التي كنا قد نزلنا فيها، قد تزوج أمةً من بين الخدم، ولكنه وقع في حب امرأة حرة لا تنتمي إلى البيت الذي هو فيه. فأحزنت تلك الخيانة الزوجية زوجته حزناً قطع نياط قلبها، فاشعلت النار وأحرقت وثائق زوجها كلها ومعها جميع ما احتوت عليه غرفة التخزين. على أن هذا الضرر لم يكن انتقاماً للعار الذي لحق بحياتها الزوجية، فاعتراها الحنق على لحمها ودمها بالذات، وعقدت جبلا، وربطت الطفل، الذي كانت قد ولدته منه فيما مضى، وألقت بنفسها في بئر عميقة جداً وهي تجر الصغير خلفها إلحاقاً له بها. وقد غضب سيدهما لهذا الموت غضباً شديداً، فأمر بالقبض على العبد، الذي كان تهوره وطيشه سبباً في هذا العمل المرعب، ودهنه بالعسل من أعلى إلى أسفل وربطه إلى شجرة من أشجار التين. فقد كان جذعها الهش مليئاً بعشاش النمل، الذي كان قد استوطنها وراحت تغمرها جيئة وذهاباً في انصبابات كثيرة متشابكة. وما أن شمت النمال رئحة عسل الجسم، حتى تعلقت به بقراصاتها الصغيرة بطبيعة الحال، ولكنها

وفيرة العدد وعنيدة، وانتشرت فوق جسده كله، وراحت تلتهم لحمه أولا على مهل ثم أحشاءه، وأتت عليه بكامله، فلم يبق عالقاً بشجرة الموت غير العظام، التي نزع عنها اللحم فأصبحت بيضاء كالثلج. ولم يحل لنا المقام بهذه المضيفة البشعة، فبينما كان سكان القرية يعانون من الألم العميق، سافرنا نحن ثانية وقطعنا العديد من الطرق العامة طيلة النهار، ووصلنا أخيراً متعبين مدينة عامرة راقية. فقرر الرعاة الإقامة فيها على الدوام، لأنها تقدم لهم، فيما بدا لهم، ملجأ يختبئون فيه عن أعين مطارديهم، ولأن كثرة الغلال الفاخرة كانت تدعو هم للبقاء فيها.

وبعد أن رعت دواب الحمل ثلاثة أيام، لكي يكون مظهرنا أكثر إغراء، قادونا إلى السوق. ونادى الدلال بصوت عالٍ بالأسعار المفردة، وفاوض الشراة من أصحاب المال على الأحصنة وكذلك على الحمير واشتروها، ولكني أنا بقيت وحدي، وكان معظم الناس يتخطونني في احتقار. وفي النهاية قرفت من لمسات الناس، الذين كانوا يريدون معرفة عمري من أسناني، وعندما كان أحد الأوغاد ينكت لثتي بأصابعه النتنة، خطفت يده القذرة وعضضتها عضة بالغة! فأفزع ذلك الواقفين حولي وامتنعوا عن شرائي لكوني في رأيهم شيطاناً شريراً. وأخذ الآن المنادي، الذي كان قد جف حلقه، وبح صوته من كثرة الصياح، ينكت ويمزح على حسابي ويقول:

- ولماذا نعرض هذا الحصان الهرم، الذي لا فائدة ترجى منه، للبيع، هذا البليد الأعرج، الذي اهترأت حوافره، واعوج شكله من شدة الألم، هذا الكسول المتبلد المتوحش، الذي لا يصلح لشيء إلا أن يكون غربالاً للردم على الإطلاق؟ ولهذا نريد أن نقدمه هدية إلى شخص ما، لا يهمه أن يبدد تبنه.

وعلى هذه الصورة أضحك الدلال من كانوا وقوفاً هناك. ولكن ربة حظي الغاضبة، التي لم أستطع الفرار منها خلال هروبي عبر مناطق عديدة، ولا استطعت استرضاءها بما عانيته من آلام حتى الآن، غرزت في من جديد عينيها العمياوين وقدمت لي مشتريا ملائماً لسوء حظي، تم لها العثور عليه على أحسن ما يكون. أريد أن أعرفكم من أي طراز هو: كان رجلاً يعشق اللذة، رجلاً عجوزاً يعشق اللذة، أصلع الرأس ما عدا شعيرات بيضاً تتدلى فوق عنقه بمثابة خصلة، كان إنساناً سيء الخلق من حثالة الناس، الذين يحملون الإلهة السورية (ايزيس) بالصناجات والصاجات المضجة من شارع إلى شارع ومن مكان إلى مكان ويرغمونها على التسول. لقد أراد بحماس أن يشتريني، وسأل الدلال عن المكان الذي أنتمي إليه، فأجابه بأن أصلي من

كابدوكيا وأنني أتمتع بصحة جيدة. وتساءل هو الآخر عن عمري، فقال معرضا بي:

ـ لقد قدر منجم، قرأ طالعه، عمره بخمس سنوات، ولكنه يعرف ذلك طبعاً من خلال معلوماته بشكل أفضل. فأنا أعرض نفسي للعقاب طبقاً للقانون الكورنيلي، إذا أنا بعت مواطناً رومانياً بصفته عبداً. ـ ولكن لماذا لا تشتري لنفسك مملوكاً جيداً جريئاً، يستطيع أن يقدم لك خدمات جليلة في البيت وخارج البيت على حد سواء؟

ولكن المشتري البغيض لم يكف عن ذلك بأية حال من الأحوال، وعاد يسأل عن هذا الأمر وذاك على التوالي، وفي النهاية تساءل في خوف عما إذا كنت مروضا. فقال الدلال:

ـ إن هذا الذي أمامك خروف، وليس حماراً! إنه هادىء في كل غرض يراد منه، لا يعض ولا يرفس كذلك، بحيث يمكن القول إن في جلد الحمار روحاً إنسانية! وليس من الصعب اختبار ذلك: إذا أنت وضعت وجهك بين فخذيه تماماً، فستختبر بنفسك كيف يهدأ لك بشكل رائع!

هكذا كان الدلال يداعب العجوز الفاسق بنكاته، إلا أنه لاحظ سخريته منه، فصرخ بنوع من الاستياء:

ـ أنت أيتها الجثة البكماء! ما أنت إلا دلال مجنون! فلتسلط عليك الإلهة السورية القوية أم الجميع، والقديسة سباديوس، وبيلونا، والأم الأيدية وفينوس مع زوجها أدونيس. ـ فلتسلط عليك العمى، لأنك تسخر مني الوقت كله بنكاتك الحمقاء! هل تتصور، أيها الغبي، أن في وسعي أن أئتمن عفريتا من دواب الحمل على الإلهة، يهز الصورة الإلهية المقدسة ويرمي بها أرضاً، وأمضي أنا الرجل المسكين رغماً عني بشعري المحلول للبحث عن طبيب ما لإلهتي التي وقعت على أنفها؟

عندما سمعته يقول هذا، أردت أن أثب إلى أعلى من حيث لا يدري لأريه ثورة توحشي، ليتخلى عن شرائي، ولكن المشتري سبق أفكاري وفوت علي الفرصة. فقد دفع الجبان في الحين ثمناً، قبله سيدي بكل سرور، لأنه كان قد سأمني، وكان الثمن سبعة عشر ديناراً. وشكمني بحبل قوي في عين المكان، وقدمني لفيليبوس (صديق الشباب). هذا هو الاسم الرسمي لسيدي الحالي.

وأخذ المالك خادمه الجديد وقاده إلى بيته، وصاح من عتبة الباب حالاً:

ـ انظرن هنا، يا بنات! لقد جئتكن بهذا الخادم الجميل الذي اشتريته!

ولكن أولئك الفتيات كن جوقة من غلمان اللذة، أخذوا في الحين يعبرون عن بهجتهم ويصرخون بأصوات رفيعة صارخة نصف نسوية، فقد تصوروا طبعاً أنه اشترى لهم حقاً خادماً لطيفاً في صورة إنسان يقوم على خدمتهم. وحين رأوا أنه ليس عذراء شبيهة بالظبية، وإنما هو حمار ضحية يعوض إنساناً، أنفوا من ذلك وأخذوا يسخرون من سيدهم قائلين له إنه لم يحضر إلى بيته خادماً، وإنما أحضر طبعاً عريساً، ثم صاحوا:

- هيه! إياك أن تعلف دجاجة جميلة من هذا النوع بمفردك! دعنا نقاسمك شيئاً من ذلك، نحن حماماتُك الساجعة!

وبينما كانوا يثرثرون وينطقون بهذا وما شاكله، قادوني أمام معلف وربطوني. وكان هناك غلام بدين إلى حد ما، وهو عازف ماهر على الناي، كانوا قد جمعوا المال تبرعاً واقتنوه من السوق. فكان يرافقهم عندما ينزلون بالإلهة إلى الطرقات، ويعزف على نايه، أما في البيت فكان عمله المضاجعة بصفته صديق عمل وشريكاً! وما كاد يراني في البيت، حتى وضع أمامي بحب وهوس علفاً كثيراً، وخاطبني في بهجة:

- ها أنت قد حضرت أخيراً لتحل محلي في القيام بالعمل التعس! إحرص على أن تبقى فترة طويلة على قيد الحياة، وتنال إعجاب سادتك، وأن تقدم خدمة لصلبي، الذي نال منه العياء تدريجياً!

حين سمعت هذا، أدركت مدى المتاعب الجديدة، التي ستجابهني. فقد اجتمعوا في اليوم التالي، وقد تلون كل واحد منهم بألوان مزركشة، أساءت إلى منظره وشوهته أكثر مما أحسنت إليه وغيرته، وطلوا وجوههم بالمساحيق، وكحلوا عيونهم، وتعمموا وارتدوا ألبسة من الحرير أو من الشاش وفيهم من ارتدوا قمصاناً بيضاء، ترسل نقوشها الأرجوانية الشبيهة بالحراب الصغيرة لمعانها إلى كل الجهات، وربطوها بأحزمة، ولبسوا أحذية برتقالية. أما الإلهة التي ألبسوها رداء حريرياً، فقد وضعوها فوق ظهري لحملها. ثم شمروا عن أيديهم حتى الأكتاف، ورفعوا سيوفاً وبلطا قوية، ووثبوا صائحين، والناي يعزف ويدعو إلى رقصة مجنونة. وبعد أن مروا بمجموعة من الأكواخ البئيسة، وصلوا إلى مزرعة، صاحبها رجل ثري. وما كادوا يدخلونها، حتى أخذوا يصرخون بأصوات رفيعة مختلطة ويندفعون إليها مفتونين، يطأطئون رؤوسهم، ويحركون رقابهم بقوة، ويديرون شعورهم المتموجة ضمن دائرة، ويعضون أعضاءهم أيضاً إلى أن يشق في النهاية كل واحد منهم ذراعه بسيفه ذي الحدين.

وفي أثناء ذلك اندفع أحدهم بقوة كبيرة دون توقف تماماً، وهو يصدر من أعماق صدره أصواتاً لاهثة متلاحقة كما لو حلت فيه روح إلهية، وتظاهر بالإصابة بالجنون، . كهذا وكأن البشر لا يصبحون بتدخل الآلهة أحسن مما هم عليه، وإنما يتعرضون للصدمات والأمراض! . فانظروا الآن إلى المكافأة المستحقة، التي خصته بها العناية الإلهية! لقد أخذ يصيح في انجذاب جنوني ويتهم نفسه مخادعة ومخاتلة بأنه أذنب في حق السنن الدينية المقدسة، ويطالب فوق ذلك بأن تُعاقب يداه، اللتان ارتكبتا الجريمة، عقاباً مناسباً. وتناول بعد ذلك سوطاً، وهو لازمة مميزة لأنصاف الرجال هؤلاء، وكان عبارة عن حبال من الجلد المصوف، غُرزت فيها عظام الغنم المدببة الشبيهة بالحجيرات، وراح يضرب نفسه به، وقد أبدى إرادة في تحمل الألم مثيرة للدهشة. ويا له من منظر حين ابتلت الأرض بدماء أنصاف النساء السمجة، التي أسالتها الخناجر وضربات السياط!

لقد اعتراني شيء من القلق، عندما رأيت الدماء تسيل من الجراح الكثيرة. فقد يحدث أن تشتهي معدة الإلهة الأجنبية بدورها دم الحمار، مثلما قد قد يحدث أن يشتهي نوع من الناس حليب الحمار!

وعندما تعبوا أخيراً أو ملوا على الأقل من التجريح والتقتيل، أخذوا الصدقات من النحاس ومن الفضة أيضاً، التي تسابق الكثير في تقديمها إليهم، ووضعوها في أجربتهم الواسعة، وأخذوا زيادة على ذلك برميل خمر وحليباً وجبناً وشيئاً من الفريك والدقيق، ومن ذلك أيضاً الشعير لحامل الإلهة. جمعوا هذا كله في جشع، وحشوه في الأكياس، التي كانت قد أعدت لهذا الأمر المفيد، وكدسوه فوق ظهري حتى أنني صرت تحت الحمل المزدوج مستودعاً ومعبداً في آن واحد! وراحوا يطوفون على هذا الوجه، فنهبوا المنطقة كلها، وتوقفوا في إحدى القرى، وأعدوا طعاماً لذيذاً فرحاً بما نالوه من ربح كثير. وطلبوا من أحد الفلاحين كبشاً سميناً بخدعة نبُوءة مزعومة، يقدم قرباناً ويشبع الإلهة السورية الجائعة. وبعد أن أعدوا الوليمة كما ينبغي، ذهبوا إلى الحمام وجلبوا معهم بعد الانعاش غلاماً فلاحاً نشيط الصلب، قوي البطن ليشاركهم طعامهم. وتناولوا في البداية شيئاً من الخضروات، ثم أقبل الفجار القذرون، قبل أخذ الوجبة الرئيسية، على أكثر الأعمال فضاعة في اشتهاء منحرف ورغبة بشعة، فقد نزعوا عن الغلام ثيابه وأناموه على ظهره، وازدحموا حوله، يطالبونه بأفواههم اللعينة بكل ما هو فاضح مهين. وبما أن عيني لم تحتملا هذه المخزاة طويلاً، فقد هممت بالصياح:

إلا أن المقاطع والحروف الأخرى قد تخلت عني ولم تخرج مني سوى أي ـ آه! وكانت يقينًا جهيرة مدوية وكما يتميز بها الحمار فعلاً، ولكنها كانت في غير محلها. ذلك أن عدداً من رجال قرية مجاورة جاءوا يبحثون عن حمار سخيف، كان قد ضاع منهم خلال الليل، وبحثوا عنه في حماسهم البالغ في كل خان من الخانات، وعندما سمعوا نهيقي في البيت، تصوروا أنني قد اختفيت في إحدى زواياه. ولكي يستعيدوا ما لهم بأنفسهم، دخلوا البيت فجأة في مجموعة كبيرة، فباغتوا الأوغاد وهم يمارسون أعمالهم الممقوتة. فنادوا الجيران من جميع الجهات في نفس اللحظة، وأذاعوا خبر هذا المشهد الفظيع، وراحوا يسخرون من الكهنة بالثناء على عفتهم. وقد أقلقت الكهنة هذه الفضيحة، التي رددتها ألسنة الشعب بسهولة، وسببت لهم عنده ما هم جديرون به من حقد واحتقار، فجمعوا أمتعتهم خفية في حوالي منتصف الليل ولاذوا بالفرار. وبعد أن قطعوا مسافة مهمة من الطريق قبل شروق الشمس، وبلغوا بعد طلوع النهار أرضاً مقفرة وعرة المسالك، تشاوروا فيما بينهم وتدبروا الأمر طويلاً، ثم أعدوا العدة لتشييع جنازتي، فنزعوا الإلهة عن ظهري، وجردوني من أحلاسي، وربطوني إلى شجرة من أشجار البلوط، وشرعوا يضربونني بذلك السوط، الذي كان كالسلسلة لما غرز فيه من عظام الغنم المسننة، حتى كادوا يجهزون على آخر نفس من أنفاسي. وكان أحدهم يهدد بقطع باطن ركبتي ببلطته، لأني طبعاً سخرت من عفته الملائكية سخرية غير لائقة، ولكن الآخرين أرادوا أن أبقى على قيد الحياة، لا حرصاً على سلامتي، وإنما حرصاً على صورة الإلهة الطريحة.

ووضعوا الأحمال فوق ظهري ثانية، وواصلوا السير، وهو يستعجلونني بسيوف مسطحة، وبلغوا مدينة معتبرة. كان يسكن في هذه المدينة رجل جليل القدر، ورع، شديد التقوى، فاجتذبته أنغام الصنوج، وصخب الدفوف، وأصوات الناي المحابية، فجرى نحونا، وأخذ الإلهة إلى بيته، واستضافنا كلنا في منزله الواسع، وأسرع يسترضي الإلهة بالأدعية الصادقة وبأكثر الأضاحي اكتنازاً وبدانة.

وهنا وصل الخطر على حياتي، وأنا أتذكر ذلك، أعلى قمة. كان أحد الفلاحين قد أحضر قسماً من صيده، وكان عبارة عن فخذ سمين كبير من لحم الأيل، أرسله هدية إلى الرجل بصفته سيداً له. كان اللحم قد علق دونما عناية خلف باب المطبخ في مكان، لم يكن عالياً كثيراً، فخطفه كلب، من كلاب الصيد أيضاً، خفية ومضى به فرحاً

دون أن تلحظه عيون الحراس. وعندما لاحظ الطاهي هذا الضرر، أخذ يلوم نفسه على غفلته ويولول مدة طويلة من غير أن يكون له من دموعه ما يسعفه. وحين فقد السيد صبره وألح على إحضار طعامه، استبد به الحق والخوف الجنوني، إلى درجة أنه ودع ابنه الصغير وتناول حبلاً، وهم بوضعه أنشوطة حول عنقه لإنهاء حياته. ولم يخف عن المرأة الوفية ما كان زوجها على وشك إرتكابه في يأسه، فقبضت بكلتا يديها على أنشوطة الموت، وصرخت به:

ـ أتراك قد أذهلتك هذه الحادثة المؤلمة وأفقدتك وعيك.. حتى إنك لا ترى هذا المخرج المفاجيء، الذي تقدمه لنا العناية الإلهية؟ إذا بقي لك من عقلك ما تملك به نفسك قليلاً في غمرة هذا الخطب الفادح فاستمع إلي بكل جوارحك الواعية: خذ هذا الحمار، الذي لجأ هنا، إلى مكان منعزل وأذبحه واقتطع منه فخذاً بطريقة تجعله شبيهاً بالفخذ الضائع، ثم أطبخه بعناية في مرق متبل بشكل مناسب، وقدمه لسيدك عوضاً عن فخذ الأيل!

ووافق حبل الأنشوطة على أن ينقذ حياته بموتي، وأثنى على ذكاء زوجته، وراح يشحذ المدية المخصصة لذبحي!

لكتاب التاسع

وهكذا أخذ هذا الجلاد التعس السلاح الأبيض في يده اللعينة ليذبحني. وبما أنه كان لا بد من القيام بعمل سريع حيال هذا الخطر الماثل، ولم يكن هناك من الوقت ما يسمح بالتفكير الطويل، فقد قررت أن أنجو من الذبح الوشيك عن طريق الفرار. فقطعت الحبل، الذي كنت مربوطاً به، في الحين، وفررت بسرعة وأنا أضرب بحافري بنشاط زيادة في الإطمئنان. وركضت هكذا بسرعة جنونية عبر رواق قريب وارتميت من غير احتراس في قاعة الأكل، التي كان رب البيت جالساً فيها يتناول طعامه في وليمة مع الكهنة، فأسقطت في أثناء ركضي المواعين والموائد والشمعدانات طولاً وعرضاً. وأهاجت هذه الفوضى الرهيبة صاحب البيت، فسلمني بصفتي حماراً أرعن مزعجاً إلى أحد الخدم، وطلب منه أن يضعني في مكان أمين حتى لا أزعج مرة أخرى جلساء الوليمة. لقد كانت هذه الفكرة الجميلة بمثابة الحماية بالنسبة إلي، فقد أنقذتني في اللحظة الأخيرة من يدي ذابحي، وابتهجت لمأمن السجن!

على أن الإنسان لا يستطيع، إذا رفضت ربة الحظ، أن يتجاوز شيئاً، فلا المشاريع الذكية، ولا الإجراءات البارعة المناهضة تستطيع قلب الأشياء المقررة من أعلى أو تغيير مجراها. ذلك أنني عرضت نفسي بتلك الفكرة، التي بدت لي وكأنها تمثل النجاة بالنسبة إلي في تلك اللحظة، لخطر آخر أكبر، بل لخطر الموت المباشر.

فقد حدث فجأة ـ ذلك ما جرى به همس الخدم ـ أن أقبل غلام، وهو مضطرب اضطراباً كبيراً، وقد بدا الخوف على وجهه، ودخل غرفة الأكل، وأخبره سيده أن هناك كلباً مسعوراً اجتاز قبل حين الباب الخلفي بعنف وهاجم كلاب الصيد بشكل مريع، ثم انتقل إلى الحظيرة المجاورة وفعل بدواب الحمل ما فعله بالكلاب، وفي النهاية لم يسلم منه حتى الناس، إذ أنه هاجم البغال مورتيلوس، والطاهي هيفايستيون، والحاجب هيبنو فيلوس، والطبيب أبولونيوس، وكذلك عدداً من الخدم، الذين حاولوا طرده، فعضهم وجرحهم في هذا المكان أو ذاك من أجسامهم. ومن

المؤكد أن عدوى الكلب قد انتقلت إلى بعض الحيوانات عن طريق العضات الخطيرة، فأصيبت هي الأخرى بهذا الكلب المرعب نفسه. لقد نزل هذا الخبر على الجميع نزول الصاعقة. فالتمسوا كل أنواع الأسلحة، اعتقاداً منهم بأنني قد أُعديت بدوري وأصبحت خطراً على الأمن العام، وتنادوا قائلين بأنه لا بد من الحد من انتشار الكلب، وأقبلوا علي - قبل أن يصيبهم هم أنفسهم الكلب - لإنهائي! وكانوا سيقطعونني بالحراب والمزرايق، بل حتى بالفؤوس المزدوجة، التي أحضرها الخدم معهم بكل بساطة، دون شك عضواً عضواً، لولا أنني ركضت، عندما رأيت الخطر المفاجيء يقترب مني، مباشرة إلى غرفة النوم، التي يسكن فيها أسيادي، فأغلقوا الباب خلفي بالمتراس، وبدأوا يحاصرون المكان ويحرسونه في انتظار أن يتمكن الكلبُ القاتل مني، دون أن يشكل لقائي بهم خطراً عليهم، ويقضي على حياتي. لقد مكنتني هذه الحادثة في النهاية من الحرية، فاعتبرت وحدتي هدية من السماء، وألقيت نفسي فوق السرير المجهز ونمت بعد حرمان طويل كما ينام الإنسان.

وعندما طلع النهار، وأزال الفراش اللين ما كنت أشعر به من تعب، نهضت، فسمعت الناس، الذين قاموا على حراستي الليل كله، يتناقشون في قضية صحتي:

- هل يمكن أن نصدق أن الحمار المسكين لا يزال يعاني الكلب خلف هذا الباب؟

- كلا، لا بد أن يكون السم قد تبدد بجنون متنام!

ولإنهاء هذا الخلاف، قرروا أن يتثبتوا من الأمر، فنظروا عبر شق الباب، ورأوني أنعم بالعافية وراحة البال. وشيئا فشيئا تجرأوا على فتح الباب قليلا، رغم ما قد يكون في ذلك من مجازفة، ليعرفوا ما إذا كنت لا أزال محافظا على هدوئي ووداعتي. وعندئذ اقترح أحدهم، وقد أرسلته السماء منقذا لي حقا، على الآخرين الاختبار الآتي للتأكد من صحتي وسلامتي، وهو أن يقدموا لي وعاء من الماء البارد لأشربه، فإذا أنا أخذته كالعادة، دون خوف، وشربته بلهفة، فإن ذلك يعني أنني عادي وفي كامل الصحة والعافية. أما إذا أنا ، على العكس من ذلك، تجنبته وكرهت رؤيته ولمسه، فإن الكلب لا يزال، بناء على التجربة، متمكنا مني بشكل عنيد خطير. فلا بد إذن من مراقبة ذلك، وهو ما توصي به كتب الحكمة القديمة أيضا.

فوافقوا على اقتراحه، وأحضروا من البئر القريبة ماء غذبا صافيا كالبلور، وقدموه إلي، بنوع من الحذر، في وعاء كبير. فتحركت دونما انتظار، ومضيت إليهم، وانحنيت قليلا عطشان، وأدخلت رأسي كله في الوعاء لأرتشف الماء، الذى كان ماء

معدنيا حقا. وعندما أخذوا بعدئذ يضربونني بأيديهم، ويجرونني من أذني، ويقودونني من زمامي، صبرت على ذلك كله إلى أن ثبت لهم، خلافا لفكرتهم الجنونية، أنه لا ضرر مني وأنني على أحسن ما يرام.

بعد نجاتي من هذا الخطر المزدوج، حملوني في اليوم الموالي الأردية الإلهية الرسمية وقادوني تحت أنغام الصنوج والصاجات إلى الطرق بصفتي جماعا متنقلا للصدقات. وبعد أن طفنا بعدد من القرى والأماكن هنا وهناك، بلغنا قرية، أقيمت - على ما حدثنا به أهلها - على أنقاض مدينة غنية قديمة، واختفت بين آثارها. وعثرنا على مسكن في أقرب خان، سمعنا فيه قصة جميلة عن رجل مسكين، خانته زوجته، ينبغي أن تطلعوا عليها أنتم أيضا.

كان هذا الرجل يقتات الفتات، ويتعيش من المبلغ القليل الذى يكسبه بوصفه عاملا مساعدا. وكانت له امرأة، كانت هي الأخرى مسكينة، بالية الثياب، لكنها كانت معروفة بطيشها البالغ. فعندما ذهب في صبيحة أحد الأيام للقيام بعمل التزم به، تسلل إلى بيته زوج خائن وقح. وبينما كانا ينعمان بالتقلب في الفراش في هدوء، عاد الزوج، الذى لم يكن يعرف عن الأمر شيئا ولم يخامره الشك في حدوث شيء من هذا القبيل، إلى منزله على حين غرة. فوجد حينئذ الباب مغلقا ومسدودا سدا محكما، فأثنى على معرفة زوجته بالواجبات المنزلية، ودق الباب وأعلن حضوره عن طريق الصفير. فأطلقت الزوجة، التي كانت ماكرة وبارعة في مثل هذه الأعمال اللئيمة، الرجل من بين ذراعيها في تلك اللحظة، وأخفته بمهارة في برميل، دفن نصفه في إحدى الزوايا، ولكنه كان فارغا. ثم فتحت الباب وحيت زوجها عند دخوله بلهجة قاسية:

- هكذا تعود إلي إذن، أيها الكسول المتثاقل، بيديك في جيبيك، من غير أن تذهب إلى عملك المعتاد لتهتم بطعامنا وتحضر لنا ما نتبلغ به؟ أما أنا، الكائن المسكين، فإن علي أن أغزل الصوف إلى أن تتخدر أعصابي، أفعل هذا ليلا ونهارا، من أجل أن يشتعل في بيتنا سراج على الأقل! إن جارتي دافني لأحسن مني، فهي تشرب الصبوح الصافية وتنعم بالوجبة الصباحية وتتقلب في الفراش مع عشيقها!

وبعد هذا الزجر، الذى تلقاه الرجل، قال:

- وماذا في ذلك؟ لقد ذهب صاحب العمل لتسوية شأن من شئونه في المحكمة، وأعطانا اليوم عطلة، ومع ذلك فقد حرصت على أن يكون لنا اليوم ما نأكله. أنظري،

إن هذا البرميل فارغ دائما، يأخذ مكانا كبيرا ولا من فائدة ننالها منه سوى أنه يعيق حركتنا. لهذا بعته بخمسة دنانير، وسيأتي الرجل بعد حين لدفع ثمنه وأخذه. فارتدي إذن مريلة وساعديني على إخراجه من حفرته لنسلمه إلى المشتري في الحين!

وحين وصل الأمر إلى هذا الوضع، أرسلت المرأة الداهية قهقهة صارخة، وقالت:

ـ يا له من رجل عبقري وصاحب عمل طموح هو هذا الرجل الذى تزوجته، فهو يبيع بثمن أقل ما سبق لي أنا، بصفتي امرأة ملازمة للبيت، أن بعته قبل حين بسبعة دنانير!

فرح الزوج بهذه الزيادة في الثمن، وقال:

ـ ومن هو الرجل الذى اشتراه بهذا المبلغ؟

فردت قائلة:

ـ يا لك من غبي! قبل قليل دخل البرميل ليتأكد من أنه سليم تماما!

وفهم الرجل الآخر كلمة المرأة الفاجرة، فخرج من البرميل، وقال:

ـ أتريدين معرفة الحقيقة، أيتها المرأة؟ إن برميلك قديم جدا وفيه ثقوب وشقوق كثيرة.

والتفت في نفاق إلى زوجها وقال له:

ـ أنت، أيها الرجل الفولاني، أحضر لي مصباحا حتى أستطيع أن أقشط الأوساخ بعناية وأتثبت بدقة من أنه لا يزال صالحا! أم تراك تتصور أنني أخذت مالي سرقةً؟

وأشعل الزوج الفاضل الغر، دون أن يفكر أو يرتاب في شيء، مصباحا، وقال:

ـ تنح جانبًا، يا عزيزي، وانتظر هنا بكل هدوء إلى أن أهيء لك البرميل كما ينبغي.

ونزع ثيابه بعد هذه الكلمات، وأخذ المصباح ونزل، وبدأ يقشط القشرة القديمة، التي تغطي الطين الهش. وعندما انحنت زوجته فوق البرميل، انحنى شاطر الشطار الزاني فوقها بدوره، وراح يواصلها بكل هدوء. فأحنت المرأة رأسها في البرميل بصورة أعمق، وشرعت، على غرار ما تفعله المرأة المتهتكة، تسخر من زوجها وتشير بأصبعها أن افعل هذا وذلك، وسو الآخر مرة أخرى، وهكذا إلى أن انتهت العمليتان معا، ووجد العامل المغبون نفسه بعد استلام الدنانير السبعة مجبرا على حمل البرميل فوق كتفه إلى بيت عشيق زوجته!

بقوا هناك عدة أيام، ملأوا بطونهم خلالها بهبات الشعب السخية، وحشوا جيوبهم بما أخذوه من ثمن العرافة، ثم فكر هؤلاء الكهنة في طريقة جديدة، فكانوا يطبقون النبوءة نفسها على حالات كثيرة، ويخدعون على هذا المنوال العديد من الناس، الذين كانوا يسألونهم عن أشياء متباينة. وصيغة النبوءة هي:

تحت النير يشق الثور الأرض

لينبت الزرع وينمو مستقبلا!

وعندما يسألهم من يريدون الزواج مثلا، يزعمون لهم أن الجواب يتضمن ذلك، إذ عليهم أن يدخلوا تحت نير الزواج وينجبوا الأطفال. وعندما يسألهم من يريد أن يشتري الأراضي، يردون أن هناك فعلا ثيرانا ونيرا وحقولا مزهرة تعلن قدومها. وإذا كان هناك من يحمل هم رحلة، سيقوم بها ويحتاج إلى نصيحة، فإن أفضل ذوات الأربع قد أعدت له وأن التراب الخصب يعني السعادة. وحين يهم أحدهم بالخروج إلى أرض المعركة أو مطاردة عصابة، ويسألهم ما إذا كان ذلك سينتهي بسلام بالنسبة إليه، يؤكدون له أن النصر سيكون حليفه، لأن الأعداء سيطأطئون رؤوسهم تحت النير، وأنه سيستولي على غنائم اللصوص. وبهذه الطريقة الماكرة جمعوا أموالا كثيرة بواسطة العرافة وقراءة الطالع.

وعندما أتعبتهم في النهاية كثرة الأسئلة والأجوبة، استأنفوا رحلتهم على طريق أسوأ من كامل الطريق، الذى كنا قد قطعناه خلال الليل، وهذا أمر أكيد. فقد كان مليئا بالثقوب والشقوق والثقوب، يمر في بعض الأماكن عبر مستنقع من المستنقعات، زلقا في أماكن أخرى موحلا. وكان فخذاي قد تلقيا في النهاية ضربات عديدة من الصدمات والزلجات المستمرة، فكنت لا أكاد أستطيع الوقوف على أرجلي وأنا أقطع الطريق الريفي.

وفجأة طلعت علينا مجموعة من الفرسان المسلحين، لا تكاد تتحكم في ألجمة أحصنتها لما كان لها من رغبة جنونية في الركض، وهاجمت فيليبوس ورفاقه بشدة. ووضع أولئك الفرسان الحبال حول أعناقهم، وشتموهم واصفين إياهم بمدنسي المعابد والأسافل، وانهالوا عليهم ضربا بقبضات أيديهم. وقيدوا أيديهم كذلك، وراحوا يضيقون الخناق عليهم ويحاصرونهم، وطلبوا منهم أن يظهروا لهم الكوب الذهبي، مكافأتهم الآثمة، واتهموهم بأنهم ، بدعوى الطقوس المقدسة، التي تمارس خلف الأبواب المغلقة، قد اختلسوا الكوب الذهبي في صمت من معبد الإلهة مباشرة،

وخرجوا من المدينة قبل طلوع النهار خفية ظنا منهم بأنهم يستطيعون النجاة من العقاب على هذه الجريمة البشعة. وكان أحدهم قد وضع يده فوق ظهري، وأخذ يبحث في حضن الإلهة المحمولة علي، فعثر على الكوب الذهبي، وأخرجه أمام أنظار الجميع. إلا أن هؤلاء الأوغاد السفلاء لم يعترهم أي خوف من هذا العمل الفظيع، ولا أخرجهم عن أطوارهم، وإنما جعلهم يتصنعون الضحك ويبحثون عن الأعذار الواهية ويقولون:

- ها أنتم ترون كيف يتابع الظلم وتجري الأمور بالعكس ! إن المتاعب لتصل دائما الأبرياء من الناس! من أجل كوب سخيف، كانت أم الآلهة قد قدمته لأختها الإلهة السورية هديةً، يدفع بالكهنة بسبب جريمة دينية أمام المحكمة الجنائية!

وبينما كانوا يقدمون مثل هذه الأعذار وغيرها من غير فائدة، قادهم الفلاحون إلى الخلف، وألقوا بهم مقيدين في السجن. أما الكوب وصورة الإلهة، فقد أعادوهما فوق ظهري إلى المعبد باعتبارهما ملكية مقدسة. ووضعوهما في غرفة القرابين، وخرجوا في اليوم الموالي إلى السوق، ليعرضني الدلال للبيع مرة أخرى. واشتراني طحان القرية المجاورة بثمن أغلى من الثمن، الذى اشتراني به فيليبوس، وهو سبعة دنانير. وفي الحين حملني القمح، الذى كان قد اشتراه أيضا، وساقني فوق طريق حجري غير ممهد، تكتنفه أشجار من كل نوع، إلى الطاحونة، التي يديرها.

كان هناك عدد كبير من الدواب تدير عددا كثيرا من الطواحين فوق مسارات دائرية، ولم يكن ذلك يتم في النهار فقط، وإنما كان يتم في الليل أيضا، فتظل الدواب تؤدي عملها من غير أن تتوقف الدوارة، وهذا حتى لا يتوقف إنتاج الدقيق. أما أنا فقد هيأ لي سيدي الجديد مسكنا فاخرا حتى لا أخاف العمل منذ البداية. فقد أعطاني عطلة في اليوم الأول، وملأ معلفي فوق ذلك بعلف كثير، إلا أن راحتي وعلفي لم يدوما مدة طويلة. فقد ربطوني في اليوم الموالي إلى طاحونة، كانت على ما ظهر لي أكبر الطواحين. ووضعوا غطاء فوق رأسي، وقادوني إلى المسار الدائري، وكان علي بعدئذ أن أسير فوق مواطىء أقدامي بصورة متواصلة دونما هدف. ولم أفقد في أثناء ذلك صفاء ذهني وذكاءه إلى الحد الذي يجعلني أتعلم هذا العمل بمهارة. حقا لقد رأيت، عندما كنت إنسانا بين الناس، طواحين من هذا النوع تدور، ولكني تظاهرت بأنني لا أعرف شيئا عن هذا العمل، وتغابيت وبقيت واقفا كالنابت فوق الأرض! فقد كنت أحب أن يتصوروا أنني لست قادرا على عمل من هذا القبيل وأنني لا أصلح له، وأنهم بناء

على ذلك سيقدمون لي عملا آخر أسهل على أية حال أو يعفونني منه ويتركونني أتناول علفي، إذ سرعان ما أحاط بي صف من الأوغاد يحملون بأيديهم عصيا، وبينما كنت واقفا وعيناي مربوطتان لا أعرف عن الأمر أي شيء، أخذوا يضربونني ضربا كاويا، وهم يصرخون صراخا جماعيا، فأخرجوني عن طوري، فلم أعد أفكر في شيء، ووضعت نفسي في المسار كالخبير بالأمر ورحت أدور في صحوة ذهنية تامة. وهذا التغيير في مقصدي حمل الجماعة كلها على الضحك!

وعندما مر الجزء الأكبر من اليوم، وبلغ مني التعب أقصى حد، نزعوا عني الرباط، وأطلقوا سراحي من الطاحونة، وربطوني إلى المعلف. كنت متعبا إلى حد كبير، في حاجة إلى الراحة، يكاد يقتلني الجوع، ولكن الفضول العادي كان يشغلني عن ذلك ويربكني إلى حد ما، حتى إنني تركت المعلف كما هو على كثرة ما فيه، وشرعت أتأمل بنوع من السرور عمل الطاحونة مع أنه لم يكن مريحا!

يا إلهي! ما أكثر ما كان هناك من خلائق! كانت بشرتهم تحمل علامات الضرب الزرقاء، وكانت ظهورهم المضروبة ممسوحة بخرق بالية أكثر مما هي مغطاة بضمادات، وكان بعضهم لا يرتدي أكثر من إزار صغير. كانوا على أية حال يرتدون كلهم أسمالا تظهر منها عظامهم! وكانت جباههم معلمة، ورؤوسهم حليقة إلى النصف، وأرجلهم مغلولة، وقد جعلتهم الصفرة يبدون أشبه بالأشباح، واحمرت أجفانهم بفعل الدخان والبخار في الظلمة، الأمر الذى أضعف من قوة بصرهم، وكانوا كالمصارعين، الذين يطلون أجسامهم عند المصارعة بقشرة رملية، وسخين وساخة بيضاء مصدرها الدقيق!

وماذا أقول عن رفاقي في العمل؟ كيف أتحدث عنهم؟ يا لها من بغال مسنة وأفراس متهدمة! كانت هذه الدواب واقفة حول المعلف، تضع رؤوسها فيه وتقضم نصيبها من التبن، وقد تقيحت أقفيتها وورمت، واتسعت مناخيرها من النفخ المتواصل، وامتلأت صدورها بالدمامل بسبب الحزام الذى لا يتوقف عن الحك والحركة، وتعرت أضلاعها من كثرة الضرب حتى ظهرت عظامها، وتشوهت حوافرها من كثرة الركض هنا وهناك إلى حد كبير، وتصلبت جلودها بسبب قشرة الأوساخ والجرب والجفاف!

وبما أنني كنت أخشى أن أجد نفسي مثلها في هذا الوضع المؤلم، وفكرت في سعادتي القديمة عندما كنت لوكيوس، ورأيت نفسي مدفوعا إلى حافة الهلاك، فقد

طأطأت رأسي مغتما حزينا. فلم يكن لي من تعويض عن هذه الحياة الأليمة الموجعة سوى أن أرضي فضولي الطبيعي بمشاهدتهم وهم يعملون ويتحدثون كما شاءوا دون أن يهتموا بوجودي معهم. لقد أصاب شاعر الشعراء (هوميروس) الإلهي عند اليونان عندما قال في أحد أناشيده في وصف إنسان متميز الذكاء بأنه قد توصل بإمكانياته إلى فضائل رفيعة عن طريق زيارته لعدد كبير من المدن وتعرفه إلى العديد من الشعوب. وإني لأحب أن أشكر جلد الحمار، الذى لم يكد يزيد من ذكائي، عندما ارتديته وتعرضت لمغامرات عديدة، ولكنه زودني بمعارف جمة.

لذلك فكرت أن أروي لكم قصة جميلة ساحرة، وهذه هي:

كان ذلك الرجل الذى اشتراني بالمال طيبا ومستقيما إلى حد كبير، ولكنه كان متزوجا من امرأة شريرة لا تضاهيها في شناعتها امرأة أخرى، كان يتألم منها ليلا ونهارا بصورة لا تصدق، ويعلم الإله أنني كنت في أغلب الأحيان أتنهد في صمتي بدلا منه. ذلك أن هذه المرأة الدنيئة لم يكن بها عيب واحد، وإنما اجتمعت فيها حقيقة كل العيوب مثلما تجتمع في بالوعة. كانت ماجنة، سكيرة، فاسقة، عنيدة، متكبرة، جشعة عند الأخذ، بخيلة عند العطاء، تنفر من اللياقة، وتعادي الأخلاق. وكانت تسخر زيادة على ذلك من الآلهة المقدسة، واعتاضت عن العقيدة الثابتة بتصور آثم، ابتدعته ابتداعا عن إله واحد آمنت به، وادعت أن لديها تعاليم معينة، فخدعت الناس جميعا، وخدعت زوجها المسكين، ولقد كانت تبدأ في الصباح بشرب الخمر الصافية وممارسة الدعارة بلا كلل.

كانت هذه المرأة بالذات تلاحقني بكراهية خاصة، فكانت تطلب قبيل طلوع الشمس، وهي لا تزال في فراشها، أن يربط الحمار الجديد إلى الطاحونة. وكانت لا تكاد تخرج من غرفتها، حتى تأمر بضربي بحضورها ضربات كثيرة موجعة قدر الإمكان. وعندما كان يصل موعد الفطور، وينزع الرباط عن الدواب الأخرى، تأمر بإبعادي أنا عن المعلف وبتأخيري عن رفاقي.

لقد زاد لؤمها هذا في فضولي الطبيعي وتطلعي إلى معرفة عاداتها أضعافا مضاعفة. وهكذا لاحظت كيف كان أحد الشبان يدخل إلى غرفتها ويخرج منها دونما حرج، وكان يطيب لي أن أنظر عندما كان الغطاء ينزع عن رأسي بطبيعة الحال، فما كنت لأعجز عن كشف آثام هذه المرأة اللئيمة بطريقة من الطرق.

على أنها كانت لها عجوز، تلعب دور القوادة والواسطة بينها وبين الزناة، لا تفارقها

من الصباح إلى المساء، فكانت تضع معها، أثناء الفطور وتعاطي الخمرة الصرفة، مهزلة خداعها، التي تسخر بها من زوجها.

لقد كنت بدوري غاضبا غضبا شديدا على فوتيس، التي أرادت أن تجعل مني طائرا، وإذا بها تحولني إلى حمار. ومع ذلك فقد كان لي في تشويهي المزعج بعض العزاء المناسب، وهو أنني جهزت بأذنين عظيمين، يسهل علي أن أسمع بهما حتى ما يقال بعيدا عني نوعا ما. وهكذا تناهت إلى سمعي ذات يوم الكلمات الآتية، التي نطقت بها تلك العجوز المرائية:

ـ عليك أن تتدبري الأمر بنفسك، يا سيدتي، مع هذا الذى حصلت عليه دون مساعدتي! فهو عشيق بطيء متخوف، تحفق جوانحه جبنا، عندما يطرف زوجك الكريه بعينيه، ولذلك يجعل حبه المتراخي المتعب من معانقته لك عذابا بالنسبة إليك. إن الشاب فيلستيروس (الرامي) أحسن منه بكثير، فهو جميل، سخي النفس، جريء، يعرف كيف يبطل مفعول تدابير الأزواج بشجاعة! وهو الوحيد، الذى يحق له أن ينعم بمفاتن النساء حقا، الوحيد، الذى يحق له أن يحمل فوق رأسه تاجا ذهبيا، وذلك لأنه قبل كل شيء استطاع في الفترة الأخيرة أن يخدع زوجا غيورا بطريقة جريئة. فاسمعي إذن وقارني بين مواهب العشاق المختلفة: أنت تعرفين بارباروس، عضو المجلس البلدي، الذى أطلق عليه الناس اسم العقرب لطبيعته اللاسعة. لقد عني هذا الرجل بحراسة زوجته، التي كانت من عائلة شريفة، وذات جمال فائق الفتنة، وحبسها في المنزل، وغلق عليها الأبواب بطريقة غير عادية!

فقالت امرأة الطحان الفاجرة:

ـ طبعا أعرف المرأة. أنت تعنين أريتة، زميلتي في المدرسة !

قالت العجوز:

ـ إذن، فأنت تعرفين قصة فيليسشيروس معها!

قالت المرأة:

ـ كلا، ولكني أرغب من كل قلبي في معرفتها. أرجوك، أيتها القلب الكبير الطيب، أن ترويها لي على الترتيب بكل تفاصيلها.

وفي الحين بدأت العجوز الثرثارة، التي لا تعرف التعب تروى القصة:

كان بارباروس هذا ينوي القيام بسفرة ضرورية، وبما أنه كان يرغب في أن يحافظ على زوجته الغالية بعناية كبيرة، فقد أخذ خادمه الوفي الشاب ميرميكس (النملة) جانباً ليحدثه حديثاً جاداً وأمره بحراسة سيدته ورعايتها. وهدده بالسجن وبوضع القيود في رجليه بصورة دائمة، ثم بالموت جوعاً في النهاية إذا ما هو سمح لأحد من الناس، مهما كان، أن يلمسها ولو برأس أصبعه عند المرور بها، وأقسم على ذلك بكل القوى السماوية. وهكذا ترك ميرميكس المبلبل الخاطر حارساً لزوجته وسافر مطمئناً. فلم يترك ميرميكس سيدته تخرج إلى أي مكان، وعاندها بدافع الخوف القاتل عناداً كبيراً، وعندما كانت تقوم بأعمالها المنزلية، كان يجلس إليها لا يفارقها أبداً، وإذا ما هي اضطرت في المساء إلى الخروج إلى الحمام ظل إلى جانبها ماسكاً بذيل ثوبها كالشوكة! وعلى هذا النحو قام بالمهمة، التي اسندت إليه، ببراعة.

إلا أن جمال المرأة الكريمة لم يبق خافياً عن عيني فيليسيثيروس اليقظتين بشكل لاهب، وقد جعلتهما عفتها الشهيرة والحراسة المشددة عليها بصورة مكشوفة أكثر يقظة والتهاباً. واستعد للقيام بكل شيء ولمعاناة كل شيء، وصمم على مهاجمة العفة المنزلية المصون بكل قوة. وقد كان مقتنعاً بما يعتري الطبيعة البشرية من تقلب وبأن المال يسمح باجتياز المصاعب كلها وبأن الذهب يحطم حتى الأبواب الحديدية. فعندما التقى في لحظة مناسبة ميرميكس على حدة، باح له بحبه وتوسل إليه أن يساعده في التخلص من عذابه، فهو على وشك الموت إن هو لم يحقق له أمنيته بأقصى سرعة، وأنه ليس له ما يخشاه في مثل هذه الحالة البسيطة، ففي إمكانه أن يتسلل تحت جنح الظلام مساء إلى الداخل وينصرف ثانية في لحظة واحدة. وبهذا وما أشبهه من وسائل فن الإقناع استطاع أن يدق وتداً، حطم عناد العبد الشديد بقوة كبيرة، إذ مد يده وأراه قطعاً ذهبية جديدة ملتمعة، وحدد عشرين للمرأة الشابة وعشراً له هو، يقدمها له حالاً.

وتردد ميرميكس أمام هذه العملية الفظيعة، التي لا مثيل لها، فسد أذنيه وهرب منه في اللحظة نفسها، إلا أن لمعان الذهب لم يغرب عن عينيه، فرغم قطعه لمسافة كبيرة وركضه نحو البيت قدماً، ظل يرى لمعان القطع الذهبية الجميل وتأكد في وعيه من ضمان هذه الغنيمة الوافرة. كانت تدور في رأسه كعجلة الطاحونة، وكان نزاع الأفكار يجر المسكين إلى هذا الرأي حينا وإلى ذلك الرأي حيناً آخر، هناك النزاهة، وهنا الكسب، هناك العذاب، وهنا المتعة. على أن الذهب انتصر في النهاية على الخوف من الموت، وكذلك لم يلين الزمن من الطمع في النقود البديعة. بالعكس، فقد

اكتسب تحت ضغط الهموم، التي كانت تخامره ليلاً، الجشع المعيب، حتى أصبح تهديد سيده يلزمه البيت، والذهب يدعوه إلى الخارج. وعندئذ خنق إحساسه بالحياء، وضرب بروادعه عرض الحائط، وحمل طلبه إلى سيدته. فبقيت المرأة وفية لجنسها، وباعت عنقها دونما تحفظ بالمال الحقير! فمضى ميرميكس بفرحة فائضة ليركل نزاهته، وأراد أن يلمس المال، الذي جعله عنواناً لسوء حظه، على الأقل إن هو لم يضعه في جيبه. وانفعل انفعالاً بهيجاً وهو يخبر فيليسيثيروس بأنه قد حقق له أمنيته بصعوبة كبيرة، وطلب منه أن يقدم له المبلغ المحدد في الحين. فمسك ميرميكس حينئذ القطع الذهبية في يده ولم يكن حتى ذلك الحين قد عرف القطع النحاسية!

وعندما تقدم الليل، قاد العاشق الجريء بمفرده، وأوصله برأس مغطىً تغطية جيدة إلى غرفة نوم سيدته.

وتعرفا بالمعانقات الأولى على متع الحب المجهولة، وراحا يقودان، وهما عاريان، أول مرة معركة من أجل إلهة الجمال. وجاء الزوج، خلافاً للتوقعات العامة، مستغلاً فترة الليل المناسبة، ووصل على حين غرة إلى باب بيته. فأخذ يدق الباب، وينادي، ويضرب المدخل بالحجر، وبما أن الانتظار قد طال به، وأخذ الإرتياب ينتابه شيئاً فشيئاً، فقد راح يصب اللعنة على رأس ميرميكس ويتوعده بوضع الأنشوطة في عنقه وشنقه. لقد أربكت المصيبة المفاجئة ميرميكس، وبعثت في أعماقه خوفاً مثيراً للشفقة، فاعتذر لسيده ـ وهل له أن يفعل غير ذلك؟ ـ بأن ظلام الليل هو السبب في أنه لم يعثر على المفتاح الذي كان قد أخفاه بعناية. وكان فيليسيثيروس في أثناء ذلك قد لاحظ الضجة، فارتدى قميصه بسرعة، وخرج من غرفة النوم، وكان حافي القدمين بطبيعة الحال نظر الانفعال الذي كان يعانيه. وأخيراً أدخل ميرميكس المفتاح تحت المتراس، وفتح الباب واستقبل سيده، الذي كان لا يزال يصرخ بأن هذا شيء لا مثيل له. وبينما أسرع هو إلى غرفة النوم، تسلل فيليسيثيروس خفية إلى الخارج. وعندما اجتاز العتبة وأصبح من الهواء الطلق، أغلق ميرميكس الباب بكل هدوء وعاد إلى فراشه.

وحين أراد بارباروس عند طلوع النهار أن يغادر غرفة النوم، رأى تحت الفراش خفين غريبين ـ كان فيليسيثيروس ينتعلهما عندما تسلل إلى الغرفة ـ وفكر في الذي حدث بناء على هذا الظرف الراهن. ولم يبح بسره لا لزوجته ولا لأي شخص من خدمه، وإنما رفع الخفين ووضعهما بشكل خفي في جيبه. ثم أمر عبيده بتقييد

زميلهم ميرميكس وحمله إلى المحكمة، وأخذ طريقه بخطى سريعة، وهو يئن مع نفسه أنيناً متواصلاً. ولم يكن يشك في معرفة الزاني بسهولة كبيرة عن طريق الخفين، اللذين هما الدليل القاطع عنده.

تصوري الآن بارباروس يسير في الطريق بعروق منتفخة، وهو مقطب الحاجبين غاضب، وخلفه ميرميكس يرفل في قيوده الثقيلة، ومع أنه لم يكن قد ضبط متلبساً بالجريمة، فإن ضميره التعس قد أقلق باله، فحاول عبثاً ببكائه المر ودموعه الغزيرة أن يثير الشفقة. وإذا بفيليسثيروس قد أقبل لحسن حظه، وكان مشغولاً بعمل آخر حقاً، إلا أن المنظر المفاجيء لم يخرجه عن طوره بطبيعة الحال. وقد خطر بذهنه الخطأ، الذي ارتكبه في عجلته وأدرك بفطنته الحادة ما حدث. فتمالك نفسه في نفس اللحظة، ودفع الخدم جانباً، وتقدم صارخاً من ميرميكس، ولكمه لكمة قوية في فكه، وراح يقول:

ـ أهذا أنت، أيها الخبيث والكذاب الأشر؟ إن سيدك هذا وهؤلاء الناس، الذين أنزلتهم إلى الشارع بيمينك الكذبة الوقحة، من حقهم أن يلحقوا بك الأذى، لأنك سرقت خفي من الحمام يوم أمس! فأنت جدير بهذا، يعلم الله أنك جدير بأن تمزق بشرتك هذه القيود وأن تستقر في حبس مظلم فوق ذلك!

لقد أسرت حيلة الشاب الجريء بارباروس، بل أنزلته من فوق سرجه ووافقت سرعة التصديق عنده، فرجع أدراجه وعاد إلى البيت. ثم دعا بميرميكس، وأعطاه الخفين، وعفا عنه من كل قلبه، وأمره بإعادتهما إلى السيد، الذي سرقهما منه.

وبينما كانت العجوز تثرثر على هذا المنوال، قالت المرأة:

ـ ما أسعد تلك التي يحق لها أن تعاشر رجلاً جريئاً من هذا النوع بحرية. أما أنا المرأة المسكينة فقد وقعت على عشيق، يخاف حتى من سماع صوت الطاحونة ومن رؤية هذا الحمار الأجرب!

فقالت العجوز:

ـ والآن أريد أن أقنع ذلك الشاب الجريء وأشجعه لأضعه تحت تصرفك!

ووعدتها بالعودة في المساء، وغادرت الغرفة. أما الزوجة العفيفة، فقد قامت في الحين تهيىء وليمة، وتصفي النبيذ الثمين، وتعد شرائح اللحم المحشوة. وجلست إلى المائدة المعدة تنتظر الزاني وكأنها تنتظر ظهور رب من الأرباب. وقد شاءت

المصادفة أن يكون زوجها مدعواً لتناول الطعام عند جاره اللباد.

وعندما اقترب الليل واستطعت أن استرد قواي دون أن يزعجني رباط الجلد تحت حنكي، لم أفرح بتخلصي من غباء العمل كما فرحت بتأمل كل فنون المرأة الفاجرة بعينين طليقتين على الصورة التي تحلو لي.

كانت الشمس قد غابت في المحيط، وأضاءت أجزاء العالم تحت الأفق. وإذا بالزاني الوقح قد أقبل ملتصقاً بالعجوز الآثمة، وهو فتى يافع، يجلب خداه الالتفات بما لهما من ملامسة ولمعان، لا يزال هو نفسه بُغية عشاق اللذة! فاستقبلته المرأة بالقُبلات الوافرة وطلبت منه أن يجلس إلى المائدة المعدة.

على أنه ما كاد الشاب يتناول جرعة من نخب اللقاء، ويلمس بشفتيه لقمة من المشهيات، حتى عاد الزوج إلى بيته بأسرع مما كان متوقعاً. وعندها تمنت له الزوجة الفاضلة أن يكون من نصيب الموت والشيطان، وأن يتكسر رجلاه معاً. أما العاشق الشاحب المرتعد المفصل فقد أخفته في حوض خشبي، كان تلقى فيه عادة أخلاطاً من الحبوب، وكان على مقربة منها مصادفة. ولم تغزها الحيلة على عادتها، فلم تدع أحداً يلاحظ شيئاً من هذا المكر السيىء، وتصنعت وجهاً بريئاً، وسألت زوجها لماذا ترك الوليمة المريحة عند صديقه الحميم وعاد مبكراً.

إلا أن الرجل أجابها حزيناً متحسراً:

- إنني لم أستطع احتمال فضائح تلك المرأة اللئيمة، التي لا مثيل لها، فغادرت الوليمة هارباً. يا إلهي! امرأة معتدلة، وفية وعفيفة إلى حد كبير، تدنس نفسها عاراً وشناراً! أقسم بالربه مكيريس المقدسة، أنني ما كنت لأصدق ذلك من امرأة مثلها في هذه اللحظة!

وأصغت المرأة الوقحة إلى كلمات زوجها هذه، وبما أنها كانت تريد أن تعرف هذه القضية، فإنها أخذت تحث زوجها على أن يروي لها القصة من بدايتها. ولم تكف عن ذلك إلى أن استجاب زوجها لرغبتها، وأخذ يتحدث عن مصيبة بيت غيره دون أن يكون له علم بوضع بيته هو!

- كانت زوجة اللباد، صديقي، امرأة عفيفة، تتمتع على الدوام بسمعة طيبة، وتدير شؤون زوجها المنزلية بصورة جيدة، ولكنها وقعت في حب أحد الزناة، وأقامت معه علاقة سرية دائمة. وقد حدث أنها كانت مع عشيقها في اللحظة التي أتينا فيها، بعد

الحمام، لتناول الطعام، فسبب لها ظهورنا المفاجيء فزعاً، فأخفت ذلك الرجل، وفقاً لوحي اللحظة، تحت قفص من أعراف شجر الصفصاف، يشكل نصف دائرة محدبه متناسقة، يستعمل، بعد وضعه تحت بخار الكبريت الأبيض، لتبييض الثياب، التي كانت معلقة حواليه. وعندما جلس في مخبئه، كما تصورت هي ذلك، جلست إلى المائدة بكل هدوء.

وكان على الشاب في أثناء ذلك أن يبلع الكبريت الحارق الكثيف النتن، وانقطع عنه، في الوضع الذي كان فيه، الهواء تماماً، فكاد الخناق يقضي عليه، وسبب له، كما هي خاصية هذا المعدن، الرغبة الدائمة في العُطاس. وعندما سمع الرجل العطاس يأتي من ناحية زوجته خلف ظهرها، تصور أنه يأتي منها، وألقى إليها بالجملة المعهودة لك العافية!. وعندما تكرر ذلك مرة، ثم أخذ يتكاثر، فأثار دهشته، وشكه في نهاية الأمر في الذي حدث. فدفع المائدة في الحين، وأبعد القفص، وأخرج الرجل، الذي كان يلهث ولا يكاد يلتقط أنفاسه. ودعا في حدة غضبه من هذا العار بالسيف وهم بطعن الرجل المرشح للموت، ولكني استطعت بمشقة كبيرة - وقد رأيت الخطر محدقاً بالجميع - أن أباعد بينه وبين ما كان يهم بإرتكابه في غضبه، مؤكداً له أن خصمه سيقضي نحبه بعد حين نتيجة لمفعول الكبريت القوي. ومع ذلك لم يقتنع بحججي اقتناعه بالظروف الحتمية نفسها، فرمى بالرجل، الذي كان نصف ميت، في الشارع المجاور. وعندئذ كلمت المرأة وأقنعتها في النهاية بمغادرة البيت والإقامة عند صديقة من صديقاتها إلى أن يخف غضب زوجها الحانق مع مرور الوقت، فقد عزم، وكل الظواهر تشهد بذلك، على إلحاق الأذى بنفسه وبزوجته بكل تأكيد. وهكذا فقدت الرغبة في الأكل عند صديقي، فانطلقت هارباً وعدت إلى بيتي.

وعندما انتهى الطحان من هذا الذي رواه، راحت المرأة، التي كانت دائماً وأبداً جريئة وقحة تعبر عن اشمئزازها من زوجة اللباد، وتصفها بأنها إنسانة خائنة، وكائنة وقحة، بل هي عار لجنسها كله! تنسى عفتها وتدوس على رباط الحياة المشتركة! وتطبع بيت زوجها بطابع المبغى السيىء السمعة.

لم تبق لها قيمتها بصفتها زوجة، وإنما اتخذت لها إضافة إلى ذلك اسم البغي! - وأضافت إلى ذلك أن على الإنسان أن يحرق مثل هؤلاء النسوان وهن على قيد الحياة. ومع ذلك شعرت هي نفسها بوخز الضمير بشكل خفي، وأخذت تحاول، حتى تستطيع أن تحرر عشيقها مما هو فيه من عذاب المخبأ، أن تقنع زوجها بالذهاب إلى فراشه

مبكراً. إلا أنه كان قد فر هارباً من الوليمة، التي وقع ما نغصها عليه، فبقي صاحياً تماماً، ولهذا طلب منها بلطف أن تقدم له ما يأكله. فحملت إليه امرأته بسرعة ما كانت قد أعدته لغيره!

أما أنا فقد حز في أعماق روحي عندما فكرت أولاً في الفضيحة السابقة وفي الجرأة الراهنة لهذه المرأة الدنيئة ثانياً. وأخذت أنعم الفكر فيما إذا كان في استطاعتي أن أكشف حيلها بصورة واضحة كل الوضوح، فأسرع إلى مساعدة سيدي، فأدفع الغطاء، الذي يختفي تحته ذلك الشاب كالسلحفاة، وأظهره للجميع. وبينما كان عار سيدي يسبب لي مثل هذا العذاب، بادرت العناية الإلهية إلى نجدتي فقد ساقنا العجوز الأعرج، الذي أوكلت إليه العناية بنا، إلى البركة المجاورة، لأن موعد ورودنا الماء كان قد حان. فكان لي في ذلك الفرصة المنشودة للانتقام. ذلك أنني رأيت عند مروري أصابع العاشق تبدو من الناقوس الضيق، فضربتها بحافري ضربة مصوبة كما ينبغي وهشمت عظامها. ولم يحتمل الألم. فنهض ناحباً، ورمى الحوض جانباً، وظهر للناس وكشف عن مهزلة المرأة الوقحة.

ولكن الطحان لم يتألم لفقدانه لشرفه على نحو خاص، وإنما أخذ يربت على كتف الشاب، عندما رآه يرتعد شاحباً شحوب الموتى، وقال له في طلاقة وبشر:

ـ ما أنت بحاجة إلى الخوف مني على نفسك، يا صغيري! فما أنا برجل همجي، فقد تحررت من العادات الريفية الفظة، ولا أريد كذلك أن أقتلك، كما فعل اللباد الغاضب مع عشيق زوجته، ببخار الكبريت السام، حتى إنني لا أريد أن أجرك إلى المحكمة طبقاً للقانون الصارم المتعلق بالزنا، وأنت رجل صغير لطيف إلى حد كبير، وإنما أريد ببساطة أن أناصفك زوجتي! فبدل اقتسام الأموال أريد أن أناقش الأمر فيما يتعلق بالاستغلال المشترك، وهو ما يُتيحُ لنا أن نضطجع في الفراش نحن الثلاثة دونما نزاع وخصام. ذلك أنني عشت مع زوجتي عيشة منسجمة تمام الانسجام، إلى درجة أن لنا، كما يرى العلماء، ذوقاً واحداً. ثم إنه ليس من اللائق ولا من المناسب أن تتحكم المرأة أكثر مما يتحكم الرجل!

كان يسخر من الشاب بمثل هذا النوع من اللطافات، وقاده بعد ذلك إلى الفراش، فامتنع في البداية، ثم دخل خلفه. وغلق الباب على زوجته العفيفة في مكان آخر، ونام هو نفسه مع الصبي وراح يمتع نفسه بأجمل تعويض عن حياته الزوجية الفاسدة!

وما أن صعد قرص الشمس الملتمع في اليوم الموالي، حتى دعا أقوى خادمين من

خدمه، وأمرهما برفعه قدر الإمكان، وضربه بالعصا على مؤخرته، وهو يقول:

ـ ماذا؟ أهكذا تفوت على عشاقك، وأنت فتى غض معجب بنفسه، سنواتك الطرية، وتلتمس النساء، والحرات منهن فوق ذلك، وتحطم حياتهن الزوجية الشرعية، وتريد أن تلعب دور العاشق في مثل هذه السن المبكرة؟

شتمه بهذه الكلمات وبكلمات أخرى مماثلة لها، وضربه زيادة على ذلك ضربات موجعة، ليلقى به بعد ذلك خارج الباب. وهكذا نجا سالب قلوب النساء نجاة لم يكن يأملها حتى وإن هو تلقى في الليل والنهار ضربات موجعة فوق مؤخرته الملساء! واختفى مسرعاً في صمت. وأرسل إلى زوجته في الحين شهادة الطلاق وطردها من بيته وهو يحدث ضجة كبيرة.

لقد تأثرت المرأة، على ما بها من خلاعة ذاتية، لهذه الفضيحة تأثراً كبيراً، رغم أنها كانت بها جديرة، فرجعت إلى حيلها القديمة وشغفت بحيل النساء وكيدهن. فاختارت بعناية امرأة محنكة، اشتهرت بالوصول إلى كل شيء عن طريق استحضار الأرواح والأعمال السحرية. فألحت عليها وقدمت لها هدايا كثيرة، وطلبت منها واحداً من اثنين: إما أن تتصالح مع زوجها وتعيش معه في سلام، أو، إذا لم يكن هذا ممكناً، أن يهاجمه شبح أو أي شيطان جهنمي ويقضي على حياته. وبدأت المرأة، وكانت ساحرة تملك قدرات سحرية، عملياتها الشيطانية الأولى في الحال، وحاولت أن تزيل عن الرجل ما لحق به من إهانة كبيرة وأن تجعله عاشقاً لزوجته. وعندما لم يتسق لها الأمر كما كانت تريده هي، استبد بها السخط على الأرواح السحرية، وقامت قيامتُها، علاوة على مبلغ المكافأة المحدد، بسبب هذا الرفض. وأخذت تهدد حياة الرجل المسكين وتحرض عليه روح امرأة قتيل للقضاء عليه.

على أنك قد تلومني بصفتك قارئاً يقظ الضمير على قصتي وتعترض عليها كما يلي: كيف استطعت، أيها الحمار الفطن، أن تعرف، وقد كنت مربوطاً إلى الطاحونة، ما فعلته المرأتان خفية؟ فاسمع إذن كيف عرفت بصفتي إنساناً فضولياً تحت قناع حمار ما تسبب في هلاك سيدي الطحان:

عند الظهيرة تقريباً ظهرت فجأة في داخل المطحنة امرأة، تغيرت ملامحها بفعل الحزن والألم بشكل غير عادي، وكانت ترتدي ثياباً رثة لا تكاد تستر جسمها، وكانت حافية القدمين، صفراء كالسفرجل، نحيلة الجسم، منفوشة الشعر، مرمدية، وقد تعلق الرماد الوسخ بشعرها المتدلي فوق جبينها وفوق القسم الأكبر من وجهها. لقد

مسكت المرأة الغامضة الطحان برفق، وقادته، كما لو أنها كانت تريد أن تحدثه سرًا عن شيء ما، إلى غرفة نومه، وغلقت الباب وبقيت هناك مدة طويلة. وعندما انتهى العمال من القمح، الذي كان بين أيديهم، وكان عليهم أن يطلبوا غيره ضرورةً، اقتربوا من الغرفة، ونادوا سيدهم، وطلبوا منه قمحاً جديداً. وبعد أن نادوا سيدهم مرة ثانية وكرروا ذلك عدة مرات دون أن يرد السيد على ندائهمُ شرعوا يدقون الباب بقوة، وكان الباب قد أغلق بإحكام. ولذلك راحوا - لأنهم توقعوا أمراً أكثر جدية وخطورة - يرفعون أو يدفعون الباب بقوة كبيرة إلى أن شقوا لأنفسهم في النهاية طريقاً. لم يجدوا للمرأة أثراً، ولكنهم رأوا سيدهم معلقاً في عارضة وقد فارقته الحياة. فخلصوه من الأنشوطة وأنزلوه إلى الأرض، ثم أقاموا مأتمه بالعويل والنحيب، وغسلوه في الحمام آخر مرة، وشيعوا جنازته في النهاية وحملوه في مركب وفير العدد إلى مقره الأخير.

وجاءت ابنته في اليوم الموالي من البلدية المجاورة، وكانت قد تزوجت فيها قبل فترة، على جناح السرعة، وأخذت تهز ضفائرها في حزن كبير، وتضرب صدرها بيديها. وكانت قد سمعت بالكارثة. التي حلت بمنزل أهلها دون أن يخبرها أحد بذلك. فقد ظهرت لها في حلمها هيئة أبيها بالأنشوطة في العنق وحدثتها عن جرائم امرأة أبيها من خيانة زوجية وأعمال سحرية وأخبرتها كيف حمله روح إلى العالم السفلي قهراً. وبكت بكاء مراً، فطلب منها المجتمعُون في المنزل أن تعتدل وألا تبالغ في ذلك، فزال عنها حزنها في النهاية. وعندما انتهت في اليوم التاسع المراسيم المعتادة عند القبر، جاءت بالعبيد والأدوات ودواب الحمل إلى السوق لبيعها بالمزاد العلني. وبذلك أصبحت محتويات المنزل المتماسك ملكاً لمن اشتراها اتفاقاً، وذهبت أدراج الرياح بصورة تعسفية.

وقد اشتراني أنا بستاني بئيس بخمسين ديناراً، وكان ثمناً غالياً، على حد تعبيره، إلا أن علي أن أساعده في عمله وفي كسب قوته اليومي.

ويبدو لي من المناسب أن أصف عملي الجديد أيضاً . تعود سيدي أن يذهب بي، وأنا أحمل على ظهري خضروات كثيرة، إلى المدينة المجاورة في الصباح الباكر، وبعد أن يسلم البضاعة إلى التجار، يصعد فوق ظهري ويعود هكذا إلى البستان. وحين كان هو يحفر أو يسقي أو يعمل أي عمل يتطلب انحناءه، كنت أنا أتكاسل وأنعم بالراحة. إلا أنه حدث ما كان متوقعاً، فخلال مدارات النجوم المرسومة وفي تحولات الأيام والشهور المحددة دخلت السنة، بعد مرور الخريف بمسرات معاصر عنبه، مدار

الجدي الشتائي بصقيعه، عندما وجدتني سجيناً في حظيرة لا سقف لها في الهوا. الطلق تحت الأمطار المتهاطلة بدون توقف والطلال الليلية، يعذبني البرد بصور، مستمرة. ذلك أن سيدي كان لشدة فقره عاجزاً عن أن يهيىء لنفسه، فضلاً عني انا، شيئاً من القش أو غطاء صغيراً، وكان راضياً بالكوخ الظليل، الذي اتخذه سكناً له. وكان علي كذلك أن أطأ بحوافري المجردة الطين المتجمد وقطع الجليد المدببة، لقد كاد هذا يقضي علي، ولم يكن لي حتى أن أملأ معدتي بالوجبات المألوفة. فقد كنا انا وسيدي نتناول نفس الطعام القليل المتشابه، ويتكون من الخس العتيق العديم الطعم، الذي يتحول من بذور قديمة إلى مادة هشة ذات عصارة نتنة.

وذات ليلة وصل إلى بستاننا رجل من القرية المجاورة، كان قد انحرف عن الطريق الصحيح بسبب ظلام الليل الحالك والأمطار الغزيرة، وقد أخذ منه التعب كل مأخذ. فاستقبل استقبالاً حسناً، وإذا لم يكن الكوخ وفقاً للظروف القائمة مريحاً، فقد كان مع ذلك كافياً لاستراحته. وبما أنه كان يريد أن يعترف بجميل مضيفه، فقد وعده بأن يقدم له من ممتلكاته القمح والزيت وجرتين من الخمر. وفي الحين حمل سيدي العجوز كيساً وقراباً فارغة، وجلس فوق ظهري ومضى إلى مزرعة على بعد ستين مرحلة، أي حوالي ساعتين. وبعد أن قطعنا هذه المسافة، وصلنا إلى المزرعة المذكورة، وهناك دعا المضيف اللطيف سيدي إلى تناول طعام وافر.

وبينما كانا يتبادلان الحديث، وأحدهما يشرب نخب الآخر، حدثت معجزة مدهشة حقاً. انفصلت دجاجة عن الدواجن الأخرى وراحت تركض في الفناء، وهي تقوقىء على غرار ما يفعله الدجاج وكأنها تريد أن تضع بيضة. فنظر إليها صاحبها وقال:

- أجل، أيتها المساعدة والواضعة الماهرة! لقد حرصت على أن تضعي لنا يوماً بعد يوم شيئاً في العش نأكله، وأنت الآن، فيما أرى، تودين أن تهيىء لنا أكلة لذيذة شهية!

ثم صاح:

- أنت، أيها الغلام! ضع السلة للدجاجات البائضة في المكان المعهود!

وفعل الخادم ما أمر به، ولكن الدجاجة أنفت من الدخول إلى العش المألوف، ووضعت بين يدي صاحب البيت نتاجاً يدعو إلى الحيرة، لأنه لم يكن نتاجاً مكتملاً. فلم يكن يشبه البيضة كما نعرفها، إذ أنها وضعت فروجاً جاهزاً بريشه ومخالبه

عينيه، وصوته أيضاً، بدأ يجري حول أمه في اللحظة نفسها.

ومع ذلك وقعت معجزة أكبر، اهتزت لها طبعاً أوصال الجميع رُعباً. فقد انشقت الأرض تحت المائدة، التي كانت تحمل بقايا الطعام، وبعثت من أعماقها شريطاً سميكاً من الدم، تناثرت منه قطرات كثيرة، غمر رذاذها المائدة. وفي تلك اللحظة الذات، التي كان فيها الجميع قد أصيبوا بالدوار، وانتابتهم الرعدة، وذهلوا لهذه العلامة الإلهية، أقبل خادم من مخزن الخمور، وأخبر سيده أن الخمر، الذي خزن منذ مدة طويلة، قد رجع كله يفور في جميع الدنان بفعل حرارة الغليان، كما لو أن النيران قد وضعت تحتها والتهبت بقوة. وقد ظهر في أثناء ذلك ابن عرس، وهو يحمل بين أسنانه أفعى ميتة، وضفدع أخضر صغير الحجم، وهو يثب من فم كلب الرعي، وكبش، كان قد وقف على مقربة، وهو يهاجم الكلب نفسه ويقطع أنفاسه بعضة واحدة.

لقد سببت هذه الأحداث الغريبة رعباً كبيراً لصاحب البيت وأتباعه كلهم، وأذهلتهم عن أمورهم، فلم يعرفوا أي عمل يجب القيام به الآن وأي عمل يؤجل إلى وقت آخر، وأي عمل ينبغي التكثير منه وأي عمل يجب التقليل منه لإرضاء القوى السماوية الغاضبة؟ وكم هو عدد الأضاحي وما هو نوعها؟

وبيناهم في هذه الحالة من الذهول، يتوقعون حدوث مصيبة مرعبة، أقبل أحد الخدم راكضاً، ونقل إلى سيده خبراً، كان بالنسبة إليه الضربة الأخيرة القاضية.

كان له ثلاثة أبناء، ربوا تربية حسنة، وكانت لهم طبيعة مستقيمة، شرفوا بيته. وكان هؤلاء الشبان على صلة برجل فقير، يملك كوخاً متواضعاً، منذ مدة طويلة. وكانت الحقول الواسعة الخصبة، التي تقع على حدود كوخه الصغير، ملكاً لجار له، كان قوياً غنياً وشاباً، ينتمي، إلى أسرة محترمة، إلا أنه كان يسيء إلى مجد أجداده، إذ فرض نفسه مع أنصاره على سكان المنطقة وسمح لنفسه في البلدية بكل شيء، يتصرف فيها كما يشاء. فهجم كما لو كان في الحرب على أملاك جاره المسكين الصغيرة، وقتل الأغنام، وساق الثيران، وداس الغلة التي لم تنضج بعد. وبعد أن سلبه محاصيله كلها، عن له أن يستولي على أرضه، فحطم الحد الفاصل وأدعى أن الأرض كلها له. وهنا هب الفلاح المتواضع، الذي سلبه الغني الجشع أملاكه، وكان هو يتمنى أن يدفن ذات يوم في أرض أجداده على الأقل، إلى جمع من أصدقائه، وطلب منهم في غمرة خوفه المريع أن يساعدوه في تثبيت حدود أملاكه، وكان من بين أولئك الأصدقاء الإخوة الثلاثة، جاءوا لمساعدة صديق لهم قدر الإمكان.

على أن حضور عدد هائل من المواطنين لم يرعب ذلك الإنسان المتهور، ولم يخرجه حتى عن طوره، ولم يفكر في أن يكون معتدلاً في كلامه إن عز عليه أن يكون معتدلاً في سلبه ونهبه، وإنما راح يقسم فجأة، عندما قدم له الآخرون شكايتهم بهدوء وحاولوا أن يقنعوه، هو المتهور، بالكلمة الطيبة، قسماً مقدساً يجلب عليه وعلى أصدقائه الموت إن هم أعاروا اهتمامهم هذه المجموعة الكبيرة من الرجال. ولذلك فإنه سيأمر خدمه بجر جاره من أذنيه والإلقاء به بعيداً عن كوخه بمسافة كبيرة، وذلك في هذه اللحظة بالذات. واندهش الحاضرون كلهم لهذه الكلمات، التي سمعوها منه. وعندئذ أجابه أحد الإخوة الثلاثة دون تردد ودون محاباة إلى حد ما، قائلاً له بأنه لا فائدة له من الاعتزاز بماله والثورة هكذا كالطاغية المستبد، فهناك على أية حال قوانين رحيمة تحمي حتى الفقراء من اغتصاب الأغنياء لأموالهم. لقد صعدت هذه الكلمات، التي كانت بمثابة صب الزيت فوق الشعلة أو الكبريت فوق النار أو تقديم السوط لربة الثأر، من عناد الرجل الهمجي. فقد بلغ به الغضب مُنتهاه وهو يلعنهم ويلعن قوانينهم. وكانت له في مزرعته كلاب الرعي الضارية، وكانت متعودة على أكل الجثث، التي تلقى في الحقول، ومدربة فوق ذلك على عض المارة كيفما اتفق. فأمر بإطلاق سراحها، وحرضها قائلاً لها: اهبري!؛ وما إن سمعت الكلاب صفير الرعاة المعتاد وسرى في أجسادها كالبرق، حتى مسكها السعار، وانطلقت - وهي تنبح نباحًا بشعاً - نحو الناس وهاجمتهم بضراوة، فجُرح كل واحد منهم هنا أو هناك، وسُحب ومزق، ولم ينج منها حتى من فر فقد طاردته بشكل أكثر ضراوة.

وتعثر في زحمة الجموع المشدوهة أصغر الثلاثة بحجر، فاصطدمت أصابع قدمه به، ووقع أرضاً، فصار هكذا عرضة وفريسة رهيبة للكلاب الضارية. فما إن وقع فوق الأرض، حتى هاجمته، هو الشاب المسكين، وشرعت تمزق الفريسة وتجعل منها مزقاً عديدة. وعندما سمعه أخواه يصرخ صرخة الموت، أسرعا إلى مساعدته في لهفة، فلفا يسراهما بخرق وراحا يدقان الحجارة بعضها ببعض قصد انتشال أخيهم وإبعاد الكلاب عنه. ولكنهما لم يستطيعا تهدئة الكلاب الضارية ولا التحكم فيها، وعلى هذه الصورة اتسق لها أن تمزق أخاهما فقضى نحبه أمامهما، بعد أن طلب منهما أن ينتقما لموته من ذلك الشيطان الغني.

وعندئذ هاجم الأخوان، اللذان لم يدفعهما إلى ذلك اليأس بقدر ما دفعهما إليه عدم اهتمامهما بحياتهما الذاتية، الغني، وبدأ صراعهما معه بسيل من الحجارة بالغ الحدة والعنف، ولكن هذا الرجل المتعطش إلى الدم، الذي كان قد تعود على القتل في

اعمال إجرامية كثيرة من هذا النوع، رمى حرية، فأصاب أحدهما في صدره تماماً، فمات الرجل، ولفظ أنفاسه الأخيرة، ولكنه لم يقع في أثناء ذلك أرضاً، لأن الحربة كانت قد اخترقت جسمه، وخرجت من ظهره، وانغرزت في الأرض، فبقى الميت يترنح هكذا في جمود.

وكان هناك أيضاً أحد الخدم، وهو رجل طويل القامة، قوي الساعد، أسرع إلى مساعدة سيده القاتل، وصوب حجراً من مسافة بعيدة إلى الذراع الأيمن للإبن الثالث، إلا أن الحجر أصاب أصابعه في رفق عكس ما كان متوقعاً، ووقع فوق الأرض دون أن يحدث ضرراً. فجعل الشاب الماهر من هذا النهاية السليمة فرصة للانتقام، وتظاهر بأن يده قد شلت، وقال لذلك الغني الدموي:

ـ لك الآن أن تفرح بانتهاء سلالتنا كلها، ولينعم حقدك الرهيب بدماء الإخوة الثلاثة، واهتف هتاف النصر، لأن مواطنيك طريحون فوق الأرض! ومع ذلك دعني أقل لك: يمكن أن تسلب رجلاً مسكيناً ملكه وتوسع حدودك بشكل مستمر. رغم هذا سيبقى واحد جاراً لك! هذه الذراع اليمنى، التي كان في وسعها أن تفصل رأسك عن جسدك مرة واحدة، فقدر لها أن تتحطم هي الأخرى.

وزادت هذه الكلمات من حنق اللص الحانق، فسل سيفه واندفع نحو الرجل الضائع في لهفة، ليجهز عليه بيده. غير أنه كان قد تحدى رجلاً، لم يكن أقل قسوةً منه وصلابةً. فقد تصدى الرجل للدفاع عن نفسه على العكس مما كان يتوقع، فقبض على يد عدوه اليمنى بقوة، وأخذ يلوح بالسيف ويضربه به الضربة تلو الأخرى، فأخرج روحه السوداء من بين جنبيه. وقطع بعد ذلك عنقه بنفس السيف، الذي كان لا يزال يقطر منه دم عدوه، حتى لا يقع في أيدي الخدم الذين أسرعوا إليه.

هذا ما كانت العلامات المشؤومة قد أنذرت به، وكان هذا ما وصل إلى سمع صاحب البيت المنكود. لم تصدر عن الرجل العجوز في محنته هذه كلمة واحدة، ولا سقطت من عينيه دمعة أيضاً. وأخذ سكيناً، كان يقطع بها الجبن وما يتصل بذلك من مستلزمات الطعام ويوزعه على جلسائه، وغرزها في عنقه هو الآخر على غرار ما فعله ابنه التعيس الحظ، ثم سقط إلى الأمام فوق المائدة، يغسل البقع الحمراء الغريبة بسيل من الدم الجديد.

وتشكى البستاني من قصة البيت الأليمة، التي وقعت على هذا الوجه خلال فترة قصيرة، وأرسل هو نفسه تنهيدة تحسراً على ما حل به. فقد دفع ثمن فطوره بدموعه،

وكانت يداه، اللتان ضربهما فوق رأسه عدة مرات، فارغتين. وصعد بعدئذ فوق ظهري، وسلكنا نفس الطريق الذي كنا قد جئنا منه، عائداً إلى البيت، إلا أن رجوعه نفسه لم ينج من الإزعاج.

لقد التقى بنا إنسان طويل القامة، كان يظهر من لباسه وسلوكه أنه جندي في الفيلق الروماني. فسأله بلهجة جريئة متطاولة عن المكان الذي يذهب إليه بهذا الحمار الذي لا يحمل فوق ظهره شيئاً. على أن سيدي، الذي كان لا يزال مشوش الذهن حزناً ولم تكن له بالمناسبة معرفة باللغة اللاتينية، واصل طريقه في صمت. ولم يفهم الجندي سلوكه الوقح، بل اعتبر سكوته إهانة، فضرب الرجل بعصا العريف غاضباً، ودفعه ليُنزله عن ظهري. فأجاب البستاني في خضوع بأنه لا يفهم اللغة ومن ثم فإنه لا يستطيع أن يفهم ماذا يريده منه الآخر. فقال الجندي باليونانية:

- إلى أين تقود هذا الحمار؟

وحين أجابه البستاني بأنه يريد الذهاب إلى المدينة الموالية، قال له:

- طيب. لدي عمل له. فعليه أن يحمل مع دواب الحمل الأخرى أمتعة حاكمنا من القرية القريبة.

ومسكني في الحين، وراح يجر في من مقودي. إلا أن البستاني مسح الدم، الذي سال من رأسه من أثر ضربة العصا السابقة، وتوسل إلى الزميل من جديد أن يسالمه ويعامله بلطف، وأخذ يدعو له دعوات صادقة ويقول:

- لا يغيب عنك أن هذا الحمار كسول، ثم إنه غراب مشؤوم، فهو يعاني من الصرع، ولم تساعده أنفاسه الأخيرة إلا على حمل حزمات قليلة من الخضروات من البستان القريب. إنه لا يصلح لحمل الأشياء الثقيلة إطلاقاً!

وعندما لاحظ أن الجندي لا يريد أن يستجيب لرجائه بأية حال من الأحوال، وأنه أخذ يقترب منه، وأدار العصا في يده مرة أخرى ليفج بها رأسه. عندئذ لجأ إلى آخر وسيلة له. فقد تظاهر بأنه يريد أن يثير شفقته ويلمس ركبتيه، وانحنى وأخفى نفسه تحته، ثم سحب رجليه معاً، ورفعه عالياً، وضرب به الأرض، وأخذ في الحين يلكمه لكمات عديدة، يضربه بمرفقيه هنا، ويعضه بأسنانه هناك، والتقط حجراً وإنهال به ضرباً على وجهه ويديه وجانبيه. ولم يستطع العريف، حين وقع على ظهره، أن يرد على ضرباته ولا أن يدافع عن نفسه، وإنما راح يهدده بصورة مستمرة بأنه، إن هو

استطاع النهوض، سيقطعه بسيفه قطعة قطعة! واحترس البستاني من هذا التهديد، فأخذ منه سيفه، ورماه بعيداً عنه، وعاد بعدئذ ينهال عليه بضرباته الموجعة. ومنعت الجراح الجندي من الحركة، فلم يعرف كيف يسعف نفسه، فتظاهر - وهذا هو الاحتمال الوحيد - بالموت. فالتقط البستاني السيف، وجلس فوق ظهري ومضى مسرعاً إلى المدينة مباشرة. ونزل عند صديق له دون أن يفكر مجرد التفكير في رؤية بستانه. وروى له كل شيء ورجاه أن يساعده في وضعه هذا وأن يخفيه هو وحماره يومين أو ثلاثة أيام حتى يختفي عن الأنظار وينجو من محاكمة قد يكون فيها موته. فأبقاه الآخر في بيته نظراً لما بينهما من صداقة قديمة. وسحبوني أنا بأرجلي المثنية فوق الدرج إلى الطابق الأعلى. أما البستاني فقد اختفى في الدكان نفسه داخل صندوق وسحب الغطاء فوقه.

على أن الجندي قام، كما علمت فيما بعد، عن الأرض في النهاية كالسكران وجاء، وهو لا يزال يترنح ويشعر بالألم في كل مكان من جسمه ولا يكاد يستطيع الوقوف ماسكاً بالعصا، إلى المدينة ولم يجرؤ حياء وخجلاً على ذكر أي شيء عن قلة ضبطه لنفسه وهزيمته، واحتمل هذه الفضيحة في صمت، ولم يتحدث عن آلامه إلا مع عدد من أصدقائه حين التقى بهم. واتخذوا قراراً بأن يختفي هو الآخر في الثكنة. فقد كان يخشى عين المراقب العسكري بسبب سيفه الضائع فضلاً عن فقدانه لشرفه، أما هم فقد سجلوا علاماتنا وأخذوا في البحث عنا للتعرف علينا ومعاقبتنا.

ولم يكن يعوزنا الجار الخائن، فقد أخبر بوجودنا في المدينة واختفائنا فيها. فأحضر رفاقه رجال الشرطة، وأخبروهم بأنهم فقدوا وعاء فضياً من ممتلكات الحاكم في أثناء الطريق، وقد عثر عليه بستاني ولا يريد إعادته إلى صاحبه، وأخفى نفسه عند أحد معارفه. وعندما سمع رجال الشرطة بكلمة الضرر وبكلمة الحاكم، جاءوا إلى باب مخبئنا وصاحوا بصاحب البيت بأنهم متأكدون بأنه يخفينا في بيته وأنه من الأفضل له أن يسلمنا إليهم بدلاً من أن يعرض رأسه للخطر. ولكن الرجل لم يشعر بالخوف منهم، ولم يفكر إلا في سلامة الرجل، الذي جعل نفسه مسؤولاً عنه فلم يقل شيئاً فيما يتعلق بنا، وادعى أنه لم ير البستاني المذكور منذ أيام عديدة، ولكن الرفاق أكدوا له أنه مختبىء عنده لا في أي مكان آخر، وأقسموا له على ذلك باسم القيصر. وفي النهاية قرر رجال الشرطة تفتيش بيت الرجل، الذي تمسك بإنكاره في عناد. فأرسلوا المحضرين وغيرهم من الخدم إلى داخل البيت وأمروهم بالنظر في جميع الزوايا. وأخبروهم بعد حين أنه لا وجود لأحد في البيت، حتى الحمار نفسه

ليس موجوداً في البيت.

وعندئذ عاد الخصام من الجهتين بشكل أشد، فالجنود يؤكدون أن لديهم أ...ا أكيدة عنا، ويقسمون في كل مرة باسم القيصر، الذي هو الضمان لهم والآخر ... ويقسم دون انقطاع بأن السماء تشهد عليه. وما إن سمعت بالعراك والصراخ العال... حتى عن لي بصفتي حماراً فضولياً بطبيعتي محباً للاستطلاع من غير كلل أن ال... لأنظر عبر شقة في الباب وأعرف حقيقة هذه الثورة. وإذا بأحد الرفقاء يلقي بنظر... على ظلي ويُشهد الجميع. فقام في الحين صراخ كبير، وصعد الدرج بعض النا... فأخذوني وسحبوني كالأسير. وحين دب الآن النشاط في الجميع، وفحصوا كل شي... على حدة كما ينبغي، ظهر ذلك الصندوق أيضاً، فاكتشف البستاني المسكين وأخر... من مخبئه، وسلم إلى الشرطة، وحمل إلى سجن المدينة، ليكفر عن ذلك برأسه طبعاً وكانوا يقهقهون وهم يتحدثون عن نظري من خلال شقة الباب، وظلوا يرددون من ذلك باستمرار. وعن ذلك نشأ أيضاً المثل السائر عن الحمار، الذي يدس أنفه ويتوارد الحديث عن ظله!

الكتاب العاشر

لست أدري كيف كانت حالة سيدي البستاني في اليوم التالي. أما أنا، فقد أخذني الجندي، الذي كان قد تلقى ضربات رائعة بسبب عدم ضبطه لنفسه، من المعلف دون ان يعترض على ذلك أحد بطبيعة الحال وقادني من مسكنه ـ لا بد أن ذلك كان مسكنه . إلى الطريق وأنا أحمل أمتعته ومعداته العسكرية وسلاحه، فقد كان علي أن أحمل خوذة براقة ودرعاً، يرى لمعانها من بعيد إضافة إلى حربة ذات يد طويلة لافتة للانتباه ولم يكن له كل هذا طبعاً لأن قوانين الخدمة العسكرية تتطلب ذلك، وإنما أخذ هذه الأشياء معه ليخيف بها الرحالة المساكين، وكان قد كومها فوق أمتعته وكأنه قادم من معركة حربية.. وقطعنا مسافة فوق طريق ريفي لم يكن وعراً جداً، ووصلنا مدينة صغيرة، ولكننا لم ننزل في الخان، وإنما نزلنا في منزل عضو من أعضاء المجلس البلدي وسلمني فوراً إلى أحد العبيد وأسرع بنشاط إلى رئيسه، الذي كان تحت إمرته ألف جندي مسلح.

وإني لأذكر الآن أن هناك حادثة مريعة وقعت هناك بعد أيام قليلة، ومن حقكم أن تقرؤوها، ولذلك سأوردها في هذا الكتاب.

كان لصاحب المنزل ابن شاب، كان ذا ثقافة واسعة، ومن ثم كان قدوة في الطاعة الصبيانية والتواضع. لكم كنت تتمنى لو أنه كان ابنك أو كان لك ابن شبيه به! وبما أن أمه كانت قد توفت قبل سنوات، فقد تزوج أبوه امرأة جديدة، ولد له منها ابن أيضاً، بلغ الثانية عشرة من عمره. على أن امرأة الأب، التي كانت تتصرف في بيت زوجها لجمالها أكثر منه لطبيعتها، عشقت ابن زوجها ـ سواء أكانت عديمة الحياء بطبيعتها أم أن القدر قد دفعها إلى فضيحة لا مثيل لها.

عليك الآن أن تعرف، أيها القارىء الكريم، أنك تقرأ مأساة لا ملهاة، فتهيأ لما يسبب لك الألم ويبعثك على الرزانة والجد!

لقد قاومت المرأة، حين كانت شعلة الحب لما تزل صغيرة، لم تلتهم بعد ما حولها، عواطفها بسهولة، واستطاعت أن تسيطر على حمرة وجهها العابرة. ولكن ما إن امتلأت مهجتها بالنار، وطاف بها إله الحب آمور، حتى خضعت لغضبه، فتظاهرت بالمرض وحاولت أن تخفي جراح القلب عن طريق الألم الجسدي المزعوم. وما من إنسان إلا يعرف أن هناك تغيرات سيئة تطرأ على أوضاع المرضى والعشاق وملامسهم، تتناسب معهم تناسباً تاماً: شحوب مشوب، ونظرة باهتة، وتعب في الركبة، ونوم مضطرب، وكلما امتد الألم، اشتد التنهد. وهكذا كان من الممكن أن يتصور المرء أنها تعاني أيضاً من رعدة الحمى. لكنها كانت فوق ذلك تبكي:

أواه! ما أعجز عقل الأطباء عن معرفة أسباب تسارع نبضات القلب، وسرعة تغير لون الوجه، والتنفس الضعيف، والتقلب الكثير من هذه الجهة إلى تلك! يا إلهي! ما أسهل على كل إنسان، له معرفة بشغف الحب، - وما به حاجة إلى أن يكون طبيباً - أن يشخص المرض حين يرى إنساناً يلتهب دون حرارة جسدية!

هكذا تخلت في النهاية، وقد هيج الحب مهجتها، عن صحتها، واستدعته، هو الابن، إليها - وكم تمنت لو أنها قضت، لو هي استطاعت ذلك، على هذه الكلمة بالنسبة إليه، حتى تنسى أن عليها أن تحمر خجلا. وأطاع الشاب فوراً أمر زوجة أبيه المريضة، وقطب جبينه كرجل مُسن، ودخل غرفة النوم ليظهر لزوجة أبيه ولأم أخيه ما عليه نحوها من فروض الطاعة. على أن عذاب الصمت الطويل كان قد أضعف المرأة وجعلها لحيرتها تحس وكأنها جالسة فوق كومة من الرمل تحت الماء. وهكذا طرحت كل الكلمات، التي كانت قد بدت لها مناسبة لهذا الحديث إلى حد كبير، إذا كان خجلها لا يزال يربكها ويزرع الحيرة في أعماقها. واحتارت في الطريقة المثلى لبدء الحديث معه. ولم يحزر الشاب بعد ما وراء ذلك من شر، وسألها من تلقاء نفسه عن أسباب هذا المرض. وعندئذ اغتنمت الفرصة السيئة، التي أتاحتها لها ساعة الخلوة هذه، وراحت تبحث عن البداية الجريئة. فغطت وجهها بطرف ثوبها والدموع تنهمر مدراراً من عينيها، وقالت له بصوت مرتجف هذه الكلمات الكليلة:

- إن سبب ألمي الحالي وعلاجه والنجاة الوحيدة منه ينحصر فيك أنت! ذلك أن عينيك هاتين قد انغزتا من خلال عيني في أعماق قلبي، وأضرمتا في مهجتي ناراً جهنمية. فارحم هذه التي تذوب من أجلك! ولا ينبغي أن ترعبك مراعاتك لخاطر والدك، فأنت تستطيع أن تحتفظ له بزوجته، التي ستموت حتماً إن هي لم تنل ما

تصبو إليه! ذلك أنني أتعرف على ملامحه من ملامحك، ولهذا فإن من حقي أن أحبك. وعليك أن تطمئن إلى أننا وحدنا ولديك من الوقت ما يكفي لفعل ما يجب عليك أن تفعله. فلا شيء يعتبر حدثاً إذا لم يسمع به أحد من الناس!

وارتبك الرجل الشاب، الذي لم يكن ينتظر أن يتلقى مثل هذه الضربة، وقد شعر في أعماقه طبعاً بفظاعة مثل هذا العمل، ثم فكر في أنه لا ينبغي له أن يزيد الأمر سوء برفضه القاطع، بل عليه أن يلطف ذلك عن طريق التسويف والموافقة الحذرة. فقدم لها طوعاً وعوداً، وألح عليها أن تكون شجاعة وألا تفكر إلا في شفائها وصحتها إلى أن يتهيأ لها إشباع رغبتها الجنسية عندما يسافر أبوه. وابتعد بعد ذلك فوراً عن نظرة امرأة أبيه الخطرة. وبما أنه تصور أن مصيبة منزلية من هذا النوع تحتاج إلى مشورة مستفيضة، فقد روى ذلك في الحين لمربيه العجوز، الذي عُرف بسداد الرأي. وبعد مشاورة طويلة بدا لهما أن الحل الوحيد يكمن في الهروب السريع من العاصفة القدرية المهولة. إلا أن المرأة، التي لم تكن تحتمل التأخير مهما قصرت مدته، فكرت في مناسبة ما وأقنعت زوجها، في الوقت نفسه، بما لها من حيل مدهشة، بالسفر توا لتفقد أملاكه الواقعة على بعد أميال. وطالبت بعد ذلك، وقد أثار جنونها اقتراب موعد القطاف، بإنجاز الوعد. إلا أن الرجل الشاب كان يتعلل مرة بهذا، ومرة أخرى بذاك، ويتجنب منظرها المريع إلى أن لاحظت في النهاية من خلال أعذاره المتغيرة أنه لا يريد أن يفي بوعده.

وعندئذ تحول حبها الآثم، وهي على ما هي عليه من تذبذب وتقلب، إلى كراهية أكثر خطورة. واتصلت في الحين بعبد لئيم مستعد للقيام بأي عمل بشع، وكان من ممتلكاتها، وأخبرته بمشاريعها الماكرة. ولم يخطر ببالها شيء أفضل من القضاء على حياة الرجل الشاب! وهكذا أرسلت اللئيم في التو لإحضار سم سريع المفعول، وأذابته في الخمر بعناية، وأعدته لتقتل به ربيبها.

وبينما كان المجرمان يفكران في الفرصة المواتية لتقديم الشراب له، وصل الابن الأصغر، ابن هذه المرأة الشريرة، مصادفة إلى البيت عائداً من دروسه الصباحية في المدرسة. وشعر بالعطش بعد تناول الطعام، فعثر على قدح الخمر، الذي يتضمن السم، وشربه دفعة واحدة دون أن يعرف شيئاً عن الجريمة الظلماء! وما كاد يفرغ القدح، الذي كان قد أعد لأخيه، حتى وقع أرضاً بلا حياة. فهب معلمه المنزلي. وقد أفزعه سقوط الفتى على حين غرة، يولول متوجعاً ويدعو الأم وجميع الخدم. وعندما

عرفت حقيقة المشروب المسموم، اتهم الحاضرون عدداً من أشد الناس اخ‌لاما
باقتراف الجريمة، ولكن المرأة المرعبة، وهي أسوأ نموذج لامرأة الأب، لم تتأثر لم...
ابنها الفظيعة، ولا اهتمت بمن يشاركها في معرفة جريمة الأسرة، ولا بمحنة المنزل
ولا بحزن زوجها أو ألم مراسيم الدفن. لقد انتهزت فوق ذلك فرصة المحنة، ال...
حلت بالبيت، لتصل إلى انتقامها من أقصر طريق. فقد أرسلت فوراً أحد خدمها
ليخبر زوجها في الطريق بالضربة القاضية التي أصابت منزله. وعندما رجع زوجها
من سفره بعد ذلك، تظاهرت بالبكاء والنواح بشكل لا يصدق، مدعية أن ابنها قد قتله
أخوه من أبيه. ولم يكن ذلك كذباً كل الكذب، لأن الفتى كان في الواقع قد سبق إل...
القدح، الذي كان قد أعد لأخيه، ولكنها زعمت أن ربيبها قتل أخاه الأصغر بطريقة
إجرامية، لأنها رفضت أن تستجيب لرغبته الآثمة عندما أراد اغتصابها، ولم تشف
غليلها هذه الأكاذيب، فأضافت إلى ذلك أنه هددها بالسيف إن هي كشفت النقاب عن
هذه الفضيحة. وعندئذ أصابه، هو الرجل التعيس، موت ابنيه معاً في عمق قلبه،
فأخذ الألم يهزه كالعصافة، ذلك أن ابنه الأصغر دفن أمام عينه، أما الآخر - وهو لا
يعرف ذلك تمام المعرفة - فستحكم عليه المحكمة بالموت بسبب الزناء وقتل أحد
أفراد الأسرة. وزيادة على ذلك أثارت فيه ولولات زوجته المحبوبة المنافقة كراهية
عميقة لابنه.

وما أن وصل موكب الجنازة وانتهت مراسم الدفن، حتى أسرع الرجل الشقي من القبر مباشرة إلي ميدان المحكمة، وكانت الدموع لا تزال تبلل وجهه، وهو يقطع شعره الأبيض الذي ذر الرماد فوقه. وراح هناك يعمل جاهداً، دون أن يعرف شيئاً عن خديعة زوجته له، من أجل القضاء على الابن الذي بقي له. وأخذ يبكي ويتوسل ويحتضن رُكب المستشارين قائلاً لهم إن ابنه غشي المحارم في غرفة النوم الزوجية، وقتل أحد أقاربه حين أزال أخاه من الوجود، وأصبح مجرماً عندما هدد امرأة أبيه بالموت. واستطاع في النهاية أن يثير بما أبداه من حزن وكرب شفقة المحكمة والناس وغضبهم جميعاً، فنادوا كلهم بالتخلي عن المرافعات الطويلة، وتقديم البراهين الملموسة، والمناقشات السفسطائية وطالبوا بمعاقبة هذه الجريمة العلنية عقاباً علنياً، وذلك بالرجم.

على أن رجال القضاء خشوا أن يكون هناك خطر عليهم هم أنفسهم، وذلك فيما إذا تحول هذا الشغب الأول القليل إلى إخلال بالنظام العام للدولة، فراحوا يستحلفون المستشارين من جهة، ويهدئون المواطنين من جهة أخرى، فالعادات والتقاليد تتطلب

ان تجتمع المحكمة، وتنظر في الإفادات ثم تصدر في النهاية حكمها بطريقة ديموقراطية. إذ لا يجوز للمرء أن يدين شخصاً ما دون أن يسمع أقواله، على غرار ما بفعله الهمج الأميون أو الطغاة المتقلبون، لكي يقدموا في عمق السلام العالمي مثالاً للأعمال الوحشية.

وقد قبل هذا الاقتراح، ونادى مناد في الحين بأن أعضاء المجلس البلدي سيجتمعون في مقر البلدية. وبعد أن أخذوا أماكنهم المعهودة حسب مراتبهم، دخل، بعد مناداة المنادي، المدعي أولاً، ثم أعقبه حضور المدعى عليه. وحذر المنادي، وفقاً للقوانين الخاصة بأثينا والمحكمة الأثينية العليا، لمحامين من اللجوء إلى المقدمات والرمي من ورائها إلى الإثارة.

وإذا كان هذا قد حدث بهذه الطريقة، فقد سمعت ذلك من عدد من الناس، كانوا يتحادثون فيما بينهم. أما الكلمات، التي وصف بها المدعي القضية، والكلمات، التي رد بها عليه المدعى عليه، فأني لا أعرف عن ذلك شيئاً كما لا أعرف شيئاً عما دار في أثناء ذلك من أخذ ورد، لأني كنت واقفاً عند معلفي في مكان بعيدٍ، ولهذا لا أستطيع أن أحدثكم عما بقي مجهولاً بالنسبة إلي. أما ما عرفته من ذلك معرفة دقيقة، فإني أود أن أقدمه في التقرير التالي:

ما إن انتهت المبارزة الكلامية، حتى اتخذ قرار بالتأكد من حقيقة هذه الاتهامات وصحتها عن طريق البراهين الثانية، وعدم الاعتماد في مثل هذه التهمة الخطيرة على مجرد مسوغات التهمة الأولية. ولهذا لا بد من إحضار العبد، الذي يعرف هو وحده، فيما يقال، مجرى الحادثة. على أن العبد الشرير لم ترعبه ظروف قضية مهمة من هذا النوع، ولا منظر قاعة المحكمة المزدحمة ولا حتى إحساسه بالذنب، ولم تمنعه من أن يقدم مختلقاته على أنها الحقيقة وقال بداية إن الرجل الشاب قد دعاه، وكان قد ثار لرفض امرأة أبيه، وطلب منه، لينتقم لنفسه لهذه الإهانة، أن يقتل ابنها، ووعده بمكافأة كبيرة على سكوته عن هذا الأمر، وهدده بالموت إن هو رفض الاستجابة لطلبه، وقدم له بنفسه السم المخلوط، ليقدمه لأخيه، وأنه ارتاب في أن يكون قد أخذ القدح في يده بمثابة الدليل ثم أعاده إلى مكانه، فقدم القدح في النهاية بنفسه لأخيه. وبعد أن روى اللئيم هذا على هذه الصورة تماماً، كما لو أن ما رواه كان الحقيقة، متظاهراً بالرعدة والخوف، انفضت المحكمة.

ولم يبق أحد من السادة المستشارين على نزاهته بحيث لا يثبت التهمة على الشاب

ولا يطلب أن يوضع في الكيس ويخاط عليه لإعدامه.

كان من الضروري بعدئذ أن توضع بطاقات التصويت. وكان محتواها واحداً، لأنهم كتبوا الصيغة نفسها - بناء على التقاليد القديمة في المرمدة المعدنية. فإذا ما اختلطت الأصوات فيها، فإن مصير المتهم يكون قد قرر، ولا يجوز تغيير أي شيء في وقت متأخر، وإنما تنتقل حرية التصرف في رأسه إلى يد الجلاد. وعندئذ وضع أحد أعضاء المحكمة، وهو رجل أمين يحظى بسمعة طيبة، يمتهن الطب، يده فوق فتحة المرمدة المعدنية، حتى لا يسهو أحد ويرمي صوته فيها، وروى للمحكمة العليا ما يلي:

- لقد أبهجني حتى هذه اللحظة رضاؤكم عن سيرتي. ولذلك فأني لن أحتمل أن يعدم شخص، قدمت ضده أدلة زائفة، بسبب خطأ قضائي، وأن تصبحوا أنتم، الذين تصدرون أحكامكم تحت طائلة القسم، عن طريق كذب عبد خسيس حانثين في إيمانكم. وأنا شخصياً لا أستطيع أن أدوس على احترامي للقوى الإلهية وأخون ضميري وأفيد إفادة مزيفة. فأسمعوا مني إذن حقيقة الأمر:

قبل فترة ليست بالطويلة جداً جاء إلي هذا الخسيس ليشتري سماً سريع المفعول وعرض علي مائة قطعة ذهبية ثمناً لذلك، وأخبرني أن هناك مريضا في حاجة ملحة إليه، يعاني من مرض قديم لا علاج له ويريد أن يضع حداً لحياته هذه. ولكني حزرت مقصد هذا الخبيث، عندما راح يثرثر ويتحدث عن أشياء لا شيء يربط بينها، وتأكدت أن هناك جريمة ما يستعد لها. حقاً لقد قدمت له مشروباً، قدمته له، ولكني لم آخذ، اتقاء للتحقيق القضائي المقبل، منه المبلغ الذي عرضه علي في الحين، وإنما قلت له: حتى لا يتضح فيما بعد - وهذا أمر جائز - أن قطعة من هذه القطع الذهبية، التي تعرضها علي، أقل قيمة أو مزيفة، دعها الآن في هذا الكيس واختم عليها بختمك، إلى أن يتم فحصها في اليوم الموالي بحضور خبير مصرفي. فانصاع لذلك ووضع ختمه على المال. وعندما قدم هذا الرجل الخبيث إلى المحكمة، طلبت من أحد أتباعي أن يحضر الكيس من عيادتي بسرعة فانظروا هنا، ها هو قد أُحضر، وأنا أظهره أمام الجميع! يمكنه أن يشاهده ويتأكد من ختمه! فكيف يتهم الأخ بالسم، الذي حصل عليه هذا الرجل؟!

وفي تلك اللحظة إعترت الرجل الخبيث رعدة قوية، وحلت صفرة الموت محل لون وجهه الطبيعي، وبدأ العرق البارد يتصبب من كامل أعضائه. وبدأ يقف على هذه الرجل طوراً، ويقف على الأخرى طوراً آخر، ويحك رأسه مرة هنا ومرة هناك، ويهمهم

وهمه نصف مغلق بعلل لا أعرف طبيعتها، بحيث لم يعد هناك أحد يعتبره بريئاً. ولكن ما أن استفاقت حيله من جديد حتى عاد إلى إنكاره في عناد كبير، واتهم الطبيب بالكذب. وعندما رأى الطبيب أنه سيفقد بصورة علنية صدقه أيضاً كما فقد احترامه امام المحكمة، بذل كامل جهده في إثبات إدانة العبد الخسيس إلى أن تقدم حاجب المحكمة، بناء على أمر رسمي، منه ومسك يده، ونزع خاتمه الحديدي ليقارنه بخاتم الكيس. وقد قوت هذه المقارنة من التهمة القائمة. وأحضرت وفقاً للتقاليد اليونانية آلة التعذيب، العجلة والحصان، وأعدا له. ولكنه لعناده وإصراره لم يكن من الممكن كبح جماحه عن طريق الضرب ولا حتى عن طريق الكي بالنار. عندها قال الطبيب:

- إنني لن أقبل، كلا، وأيم الله لن أقبل بأن يتم إعدام هذا الشاب على نحو مخالف للقانون وأن يراوغ هذا الرجل الواقف هناك محكمتنا وينجو من العقاب على جريمته! ذلك أنني أريد أن أقدم الدليل القاطع لهذه القضية. عندما أراد هذا الخبيث شراء السم القاتل، رأيت أنه لا يتلاءم مع شرف مهنتي أن أساعد إنساناً على قتل نفسه. لأني كنت قد تعلمت أن الطب لم يخترع لقتل الناس، وإنما اخترع لسلامتهم. على أنني خشيت أيضاً أن أمهد، إن أنا رفضت تقديم السم له، بهذا الرفض، الذي لا يدل على المهارة، الطريق لإرتكاب جريمة، وأن هذا الشخص قد يستطيع الحصول على المشروب السام من إنسان آخر أو ينفذ جريمته المدبرة في نهاية الأمر بالسيف أو بأي سلاح آخر. ولذلك قدمت له سماً، ولكنه كان في الحقيقة منوماً، هو اللُّفاح المعروف، الذي اشتهر بعد أن أثبتت التجربة أنه دواء مخدر، يتسبب في نوم يشبه الموت. فلا عجب أن يسهل على هذا اللص اليائس. ومن المأكد أن يعاقب عقاباً أسوأ، يصله وفقاً للعرف القديم - احتمال هذا العذاب، فهو بالنسبة إليه الشر الأصغر. حقاً، إذا كان الغلام قد تناول شيئاً من المشروب الممزوج، الذي قدمته له بيدي، فإنه على قيد الحياة، ينعم بالراحة والنوم. وعندما ينفض عنه النوم الرصاص الثقيل، يعود إلى ضاحية النهار. وأما إذا كان الموت قد أسرع إليه، فعليكم أن تبحثوا عن أسباب موته في مكان آخر.

وما أن تحدث هذا الرجل الجليل على هذه الصورة، حتى اتخذ الأعضاء قراراً بالذهاب فوراً إلى القبر الذي يضم جثمان الغلام. ولم يتخلف أحد من المستشارين ولا من النبلاء، ولا حتى من أبناء الشعب، إذ دفعهم الفضول كلهم إلى هناك. وذلك ما كان فعلاً! فعندما رفع الأب بيده غطاء التابوت، كان الغلام قد نفض في تلك اللحظة غفوة الموت عن عينيه، ونهض ليعود من مملكة الموتى. وعندئذ أخذ ابنه بين ذراعيه،

وضمه إلى صدره، وقاده، وقد جعلته بهجة اللحظة عاجزاً عن النطق بأية كلمة يوجهها إلى الناس في الخارج، وحمل الغلام كما هو، وكان لا يزال ملفوفاً في كفنه، إلى مجلس المحكمة. واتضحت حينئذ جريمة العبد اللئيم والمرأة الأكثر لؤماً ووجدت الحقيقة طريقها إلى النور. فحكم على امرأة الأب بالطرد المؤبد، فيما حكم على العبد بالصلب، وسلمت القطع الذهبية إلى الطبيب الطيب بالإجماع، ثمناً للنوم الذي أنقذ حياة الغلام.

وهكذا كان لتجربة ذلك الشيخ الفريدة، التي يلذ سماعها، نهاية جديرة بالعناية الإلهية. فبعد فترة قصيرة، بل بعد لحظة بالغة القصر رزق بعد خطر الوحدة التامة بصبيين دفعة واحدة.

أما أنا فقد ظلت أمواج القدر تتقاذفني هنا وهناك، وقد حدث ذلك كما يلي:

كان على ذلك الجندي، الذي كان قد اقتناني دون بائع وحجزني دون مال، أن يطيع أمر رئيسه، كما تقتضي اللياقة ذلك، وأن يحمل رسالة إلى القيصر الأكبر في رومة. وهكذا باعني بأحد عشر ديناراً لعبدين أخوين من المنطقة المجاورة. وكان لهما سيد ثري جداً، كان أحدهما حلوانياً، يصنع الكعك والحلويات، والآخر طاهياً، يطهو أطعمة لذيذة باللحوم والتوابل، ويتركها تتحمر في المرق الشهي. وكانا يسكنان معاً في غرفة واحدة. وقد اشتراني لأحمل الأوعية العديدة، التي يستعملها سيدهما لأغراض مختلفة، عندما يسافر من منطقة إلى أخرى. لقد سمح لي إذن بمشاركة الأخوين في غرفتهما بصفتي شخصاً ثالثاً، ولم تنعم علي ربة الحظ بمثل ما أنعمت به علي في هذه المرة. ذلك أن سيدي تعودا أن يحملا بعد الوجبات اللذيذة، وكانت دائماً فاخرة، إلى غرفتهما الكثير من بقايا الأطعمة. أحدهما يحمل ما يتبقى من لحم الخنازير الصغيرة، والديكة البرية والأسماك وأنواع اللحوم المختلفة بكميات كبيرة؛ أما الآخر فيحمل الخبز والحلويات والفطائر والهلاليات والكعك الحلزوني الشكل وأصنافاً أخرى من مثل هذه الحلويات وكنت، عندما يغلقان باب الغرفة ويأويان إلى فراشهما، أملأ بطني بهذه المأكولات التي نزلت إلي من السماء. ذلك أنني لم أكن غبياً ولم أكن حماراً حقيقياً حتى أتخلى عن هذه الأطعمة اللذيذة وآكل بدلها التبن الكريه!

وقد وفقت فترة طويلة إلى اختلاس الأطعمة كما ينبغي، لأني كنت لا أزال خائفاً مقتصداً، لا آخذ إلا القليل من الكثير، ولأنهما لم يكونا يتوقعان حيلةً من حمار. إلا أنني ما إن تأكدت تدريجياً بأن أمري لن يكشف، وأصبحت لا أبلعُ إلا القطع السمينة

ولا أختار من الحلويات إلا أكثرها لذة وحلاوة، حتى أخذ الغضب يحز قلبي الأخوين. ورغم أنهما لم يظنا بي بعد مثل هذا الظن، فقد أخذا يبحثان عن شخص يحملانه ذنب ما يخسرانه يومياً.

وفي النهاية اتهم أحدهما الآخر بالسرقة الوضيعة، وبدآ منذ تلك اللحظة يعنيان بحراسة أشيائهما عناية أكبر. فحرساها بحدة، وكانا يعدان القطع المفردة. وفي آخر الأمر تغلب أحدهما على خجله، وصاح بالآخر:

ـ لا يجمل ولا يليق بك حقاً أن تختلس يومياً القطع الجميلة وتبيعها لتحسن بذلك مصروفك الجيبي، ثم تأتي لتقاسمني ـ الباقي بالمساواة! فإذا كان تدبيرنا المنزلي المشترك لا يحظى بإعجابك، ففي استطاعتنا أن نكون أخوين في كل شيء آخر، ونتخلى عن هذه المعيشة المشتركة. ذلك أنني أرى أن الخصام حول الضرر سيمتد بنا إلى ما لا نهاية له ويزرع شقاقاً كبيراً بيننا!

فأجابه الآخر:

ـ إنك لجريء حقاً، وإن علي، بحق الآلهة، أن أعترف أنا نفسي بذلك. فأنت تختلس خفية بضع قطع يومياً، ثم تسبقني بشكواي، التي أحملها معي متنهداً في صمت منذ مدة طويلة. حتى اتهم أخي علانية بسرقة قذرة. وإنه لمن المناسب حقاً أن يتم هذا الحديث بيننا للبحث عن وسيلة لإزالة الضرر، قبل أن تحل بيننا العداوة الخفية وتدفعنا، على غرار إتيوكليس (ابن أوديبوس)، إلى مبارزة أخيه (بولينيكس)!

وبعد أن وجه أحدهما إلى الآخر هذه التأنيبات وما أشبهها، أقسم كل منهما بأنه لم تصدر عنه أية خيانة ولم يقم بأية سرقة. ورأياً أن عليهما أن يتسعملا طريقة ماهرة للعثور على السارق، الذي يلحق بهما ضرراً مشتركاً. فالحمار، وهو الوحيد الذي كان حاضراً، لا يهتم بمثل هذه الأطعمة، ومع ذلك تختفي المأكولات اللذيذة يومياً. ومن المؤكد كذلك أنه لن يدخل غرفتهما ذباب كبير (مثل طيور) الهاربيس (ذوات الأجسام والأجنحة الغريبة)، التي كان تسلب الملك فينيوس طعام وجباته.

وكنت في أثناء ذلك قد ملأت بطني بالمأكولات الكثيرة وحشوته بالأطعمة البشرية حتى أعلاه. وظهرت السمنة على جسمي بما فيه الكفاية، وكان جلدي قد أصبح ناعماً بفعل الشحم، واكتسب فروي بريقاً لطيفاً. إلا أنه قدر لوضعي الجسمي الملائم أن يفضي بي أنا الحمل الوديع إلى درجة من الضعة الكبيرة.

لقد كان ظهري المكتنز بشكل غير عادي يثير دهشتهما، وبما أنهما لاحظا ا
التبن يبقى كما هو يومياً دون أن يمس، فقد وجها انتباههما إلي كلية. وأخذا يتظاه ، ا
في الساعة المعتادة بأنهما يريدان الذهاب إلى الحمام، ويغلقان الباب كالعاد
ولكنهما كان يراقباني من خلال فتحة صغيرة، فشاهداني وأنا أقدم على الأطعمة
الموضوعة في كل مكان. ومن غير أن يفكرا في الضرر الذي لحق بهما، راحا يبديا
دهشتهما من رغبات الحمار العجيبة، وانفجرا ضاحكين بصورة قوية جداً. فنادا
هذا وذاك ثم عدداً كبيراً من رفاقهم العبيد، وأرياهم شهية حمار الحمل البليد. وفي
النهاية أصبح الضحك عالياً منطلقاً من القلب، حتى إنه وصل إلى سمع سيدهم الذي
مر بهم مصادفةً.

وسأل أخيراً عن الأمر الذي يضحكهم. وعندما عرف ما حدث، نظر هو نفسه
عبر الفتحة، وفرح فرحة كبيرة جداً، ثم انتابته هو الآخر نوبة من الضحك، صعب
عليه أن يتحكم فيها حتى أوجعه جانباه. فأمر بفتح الغرفة، واقترب مني وأخذ
يتأملني شخصياً. وبما أنني رأيت مرة واحدة محيا ربة الحظ يبسم لي بعذوبة،
وأوحت لي بهجة الحاضرين بالثقة، فإنني لم أنزعج، وإنما واصلت تناول طعامي
بهدوء إلى أن أمر صاحب المنزل بإبعادي ابتهاجاً بهذا المشهد الجديد، بل قادني
بنفسه إلى غرفة الطعام، التي أعدت فيها ألوان من الأطعمة. والأطباق، لم يلمسها
أحد بعد.

ومع أنني كنت قد أكلت أكلاً جيداً، فقد رحت ألتهم الأطعمة المعروضة بنهم
الجائع، ولم لا وقد أردت أن أظهر لسيدي بمظهر لطيف مناسب! ذلك أنهم فكروا على
نحو ذكي في الشيء الذي يمكن أن يعافه الحمار، وقدموا لي ما يختبرون به ألفتي:
لحماً متبلا بعشبة العضبة، ولحم الدجاج المفلفل، والسمك المعد في المرق الأجنبي.

وارتفعت في أثناء ذلك قهقهات عالية جداً. وأخيراً قال المهرج، الذي كان
حاضراً:

- صبوا لهذا الرفيق شيئاً من الخمر الصافي!

فاستجاب السيد لهذه الدعوة وقال:

- هذه فكرة لطيفة، أيها الخبيث! فمن الممكن أن يتناول زميلنا في المنزل قدحاً
من نبيذ العسل.

ونادى بعد ذلك:

- هيا، يا غلام، اغسل هذا الكوب الذهبي الكبير، واملأه بنبيذ العسل، وقدمه لجليسي! ونبهه إلى أنني أشرب نخب صحته!

وانتاب الجلساء توتر ذهني شديد، على أنني لم أعبأ بهم، وطويت بهدوء كامل وبصورة احتفالية أطراف مشفري وجعلت منها ما يشبه الملعقة، وارتشفت الكوب الكبير دفعة واحدة. وكانت هناك ضجة كبيرة عندما صرخوا بي كلهم وكأنهم يصرخون من حنجرة واحدة: هنيئاً لك!.

وأثملت البهجة الكبيرة صاحب المنزل، فاستدعى عبديه، اللذين كانا قد ابتاعاني، وأمر أن يدفع لهما الثمن أضعافاً. وقدمني أنا لعتيق له عزيز عليه، وهو رجل غني إلى حد ما، ولكنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن ألقى خطاباً طويلاً طلب منه فيه أن يهتم بمعاملتي معاملة حسنة، وقد حرص هذا على أن يقدم لي ما يكفي من العلف بأدب ولطف، وحاول، لينال عند سيده تقديراً أكبر، أن يبهجه بما علمني من مهارات. فقد علمني أولاً أن أتكىء على المائدة بأحد مرفقي، وأصارع، وكيف أرقص برجلي الأماميتين المرفوعتين، وكذلك كيف أنحني، وذلك ما أدهش الجميع بشكل خاص، عندما يخاطبني، بحيث أرفع رأسي حين لا أريد شيئاً، وأحنيه عندما أريد ذلك، وأطلبُ الماء، حين أشعر بالعطش، فأنظر إلى الساقي وأغمز بحاجبي بالتناوب! وكنت انصاع للجميع بسهولة، وكنت سأفعل ذلك حتى لو لم يطلبه أحد مني. على أنني كنت أخشى، إن أنا تصرفت في الغالب تصرفاً إنسانياً دون معلم، أن يتصوروا أن ذلك فأل نحس، ويقطعوا رأس بصفتي مارداً رهيباً ويلقوا بي للنسور فريسة دسمة.

وسرعان ما وصلت إلى الرأي العام إشاعة تتحدث عن الشهرة وعن السمعة الطيبة التي جلبتها لسيدي عن طريق مهاراتي الفنية، وقال الناس:

- إنه ذلك الرجل، الذي يزامله ويجالسه حمار، يصارع، ويرقص، ويفهم الكلام البشري ويعبر عن أفكاره بإحناء رأسه!

على أنني أريد الآن على الأقل أن أحدثكم بما كان علي أن أحدثكم به في البداية وأخبركم من هو الرجل ومن أين أتى: تياسوس (موكب) - سيدي يحمل هذا الأسم. أصله من كورنت، عاصمة مقاطعة أشايا كلها، وكان قد تدرج، كما يتطلب ذلك نسبه ومركزه، في سلم الوظائف، وتولى الآن السلطة الإدارية لمدة خمس سنوات، ووعد،

ليتناسب ذلك مع الوظيفة المرموقة، التي سيتولاها، بإقامة دورة يتصارع فيها المسايفون تدوم ثلاثة أيام، لأنه أراد أن يتسع مجال سخائه. وهكذا أوصله طموحه إلى إثارة إعجاب الناس إلى زيارة ثيساليا أيضاً للحصول على الوحوش الضارية والمسايفين المشهورين بشكل خاص. وقد انتهى الآن حسب تقديره من تدبير أموره وشراء ما كان يريد شراءه، وأخذ يستعد للسفر إلى بيته. ومع ذلك استهان بالعربات الفاخرة، ولم يستعمل أي نوع منها، وكان بعضها مغطى وبعضها الآخر غير مغطى، وقد ضمت إلى الموكب من غير فائدة، ولم يركب كذلك الخيول الثيسالية والجياد الغالية، التي يمنحها نسبها قيمة نفيسة. تخلى عن ذلك كله، وأمر بأن أجهز بدروع ذهبية فوق صدري، وسرج مزركش، وأحلاس أرجوانية وأزمة فضية، وأحزمة مطرزة، ونواقيس صغيرة مصلصلة، وجلس هو نفسه فوق ظهري. وكان يخاطبني من حين لآخر بكلمات لطيفة وأعلن فيما أعلن عن بهجته الكبيرة بأن أكون نديمه ومركوبه في آن واحد.

وبعد أن قطعنا رحلتنا براً طوراً، وبحراً طوراً آخر، وصلنا كورنت. وهناك تقاطر الناس مجموعاتٌ كبيرةٌ واجتمعوا لرؤيتي، فيما ظهر لي، أكثر مما اجتمعوا للاحتفاء بقدوم ثياسوس. ذلك أن صيتي ذاع هناك أيضاً إلى درجة أنني أصبحت مصدر دخل بالنسبة لحارسي. فعندما لاحظ أن هناك عدداً كبيراً من الناس يريدون باهتمام كبير مشاهدة أعمالي البهلوانية، أغلق الباب وتركهم يدخلون واحداً واحداً، وهكذا تعود أن يجمع مما يتقاضاه يومياً ثمناً للدخول مبالغ محترمة.

وكانت هناك بين هذه الجماعة أيضاً سيدة نافذة الكلمة غنية. بعد أن دفعت، كما دفع الآخرون كذلك، ثمن المشاهدة، اجتذبتها ألاعيبي البهلوانية المختلفة، وانتابتها لشدة حماسها تدريجياً رغبة غريبة في! وبما أنها لم تكن لها من وسيلة أخرى ترضي بها فضولها الجنوني، فقد طلبت - ياسيفاي (زوجة مينوس ملك كريته) ثانية، الأولى عشقت الثور، وهذا تطلبني أنا الحمار - لمعانقتي بلهفة كبيرة. واتفقت مع حارسي على أن تدفع له مبلغاً كبيراً نظير ليلة تقضيها معي، وقد وافق على ذلك دون أن يفكر إطلاقاً في أية إثارة يمكن أن تنطلق مني، لأنه لم يكن يفكر إلا في تجارته.

كنا قد تركنا غرفة الأكل بعد تناول الطعام مع سيدنا فيها، وإذا بنا نجد تلك السيدة، التي كانت تنتظرني في مرقدي منذ مدة. يا إلهي! ماهذا الذي أعدته، وبأية فخامة! كان هناك أربعة خصيان يعدون لنا بنشاط من وسائد كثيرة، مملوءة بالريش

الناعم، فراشاً فوق الأرض، ونشروا غطاء أيضاً مطرزاً بالذهب والبرفير الحيواني، وكوموا فوقه وسائد أخرى كثيرة، ليست كبيرة جداً، تستعملها السيدات الراقيات وسائد للخدود أو للأعناق. وحتى لا يكون حضورهم سبباً في تأخير مسرات سيدتهم أطول مما تأخرت، أغلقوا باب غرفة النوم، وانصرفوا وقد حولت أضواء الشموع الليل الحالك في الداخل إلى نهار.

ونزعت الآن ثيابها كلها، ونزعت كذلك الحمالة، التي ترفع نهديها الجميلين، ثم وقفت في الضوء ودهنت نفسها كما ينبغي بزيت عطر أخرجته من قارورة قصديرية صغيرة، ودهنتني أنا به كذلك بعناية، وعطرت منخري باستغراق خاص. وبعدئذ راحت تقبلني متمطقة بعنف. ولم تكن هذه القبلات كتلك القبلات، التي تعودت البغايا على منحها في المواخير من أجل المال طوراً، ويتعودن على منحها الزوار بدل المال طوراً آخر، وإنما كانت فعلاً قبلات صافية صادقة، أتلقاها منها بكلمات التدليل: أحبك؛ وأنا مشتاقة إليك؛ وأحبك أنت وحدك؛ ولا أستطيع أن أعيش بدونك؛ وما أشبه ذلك مما تعبر به النساء عن رغباتهن حين يردن إغواء أشخاص آخرين. وأخذت زمامي وجعلتني أضطجع كما تعلمت، فقد كنت آنئذ أتصور أنه لن يكون من الجديد ولا من الصعب علي إذا أنا - ولا سيما بعد هذا الوقت الطويل - ارتضيت معانقات امرأة جميلة مشتهية، خاصة وأنني كنت قد انتشيت قبل ذلك بخمر من الطراز الأول ودهنت بمرهم عطر أثار شهوتي.

على أنني كنت أشعر بالخوف الشديد، عندما أفكر في الطريقة التي أصعد بها برجلي الكبيرتين جداً فوق سيدة رقيقة، وأحتضن بحوافري الصلبة هذه الأعضاء البيضاء البيضية الملتمعة، كأنها مصنوعة من الحليب والسكر، وأقبل بفمي هاتين الشفتين الرهينتين الأرجوانتين المخضلتين بالرحيق، والحال أن فمي عريض جداً، قليل اللطف بسبب أسناني التي تشبه الحجارة المربعة، وأفكر كذلك كيف تستطيع امرأة، ولو وصلت رغبتها الشهوانية إلى رؤوس أناملها، أن تنطوي على عضو بهذا الحجم الكبير. وهذا الأمر سيء بالنسبة إلي، فلو أنني شرمت سيدة نبيلة، فإني سوف ألقى أمام الوحوش الضارية، وأصبح مشهداً في حفلة سيدي!

وكانت في أثناء ذلك تردد كلمات التدليل الرقيقة والقبلات المتواصلة والهمسات العذبة، وهي تغمز بعينيها صعوداً وهبوطاً. وعند الذروة قالت: مسكتك، مسكتك، يا زاجلي، يا عفريتي! - وأظهرت بذلك أن تخوفاتي كانت من أجل لا شيء وأن همومي

كانت عبثاً. فقد احتوتني قدر ما استطاعت، وأخذتني كلي، حقيقة أخذتني وكلي ٠٠ ذاتها. وما أكثر ما كنت أسحب جزئي الخلفي، لأوفر عليها الألم، ولكنها كانت تتد.. م خلفي بقوة، وتمسك بعمودي الفقري، وتتعلق بي بشكل أكثر التصاقاً، إلى درجة أ.. تصورت أن لدي شيئاً ينقصني حتى أرضي شهوتها بصورة كافية، واقتنعت أن مته.. (باسيفاي) أم مينوطاوروس بالزاني الخائن لم تكن فارغة. ولم يكد عمل الليل الساهر ينتهي، حتى انصرفت المرأة لكيلا يعرف عنها ضوء النهار شيئاً، واتفقت على الليل.. التالية بنفس المبلغ.

وكان حارسي يستجيب لرغبتها في هذه المتع بكل سرور، وهذا كلما أرادت هي ذلك، لأنه كان يتلقى مكافأة وفيرة من ناحية، ولأنه كان يريد أن يهيىء لسيده مشهداً جديداً من ناحية أخرى. فكشف له في النهاية دون تردد على تمثيليتنا الغرامية كلها. فأنعم السيد على عتيقه بسخاء وطلب فيه أن أقدم عرضاً عاما. وبما أنه لم يكن من الممكن أن تقوم حليلتي بهذا الدور نظراً لمركزها الإجتماعي ولم يتم العثور - حتى نظير مبلغ كبير - على غيرها، فقد عثر المنظمون على امرأة خليعة، كان قد حكمت عليها المحاكم بأن تلقى طعاماً للحيوانات المفترسة. وكان عليها أن تظهر معي أمام الجمهور في مشهد علني لا أثر فيه للحياء. وقد عرفت عن سبب عقابها القصة التالية.

كان لها زوج، كان أبوه قد سافر في رحلة وترك زوجته - أم هذا الزوج الشاب - حاملاً وأمرها، إن هي ولدت بنتاً، أن تقتلها في الحين. ولكنها عندما ولدت بنتاً في غياب زوجها، طغى عليها حب الأم، فرفضت أن تطيع أمر زوجها، وسلمتها إلى جيرانها لإرضاعها وتربيتها. ثم أخبرت الزوج عند عودته أنها ولدت طفلة وقتلتها. على أن الأم لم تستطع، حين شبت الطفلة وأصبح تزويجها أمراً ضرورياً، أو تجهيزها دون علم زوجها كما ينبغي، ومن ثم لم يبق لها إلا مخرج واحد، وهو أن تبوح لإبنها بالسر الدفين، لأنها كان تخشى خشية كبيرة أن يجد ابنها نفسه في مناسبة من المناسبات مدفوعاً بحميا الشباب إلى حب أخته، التي لا تعلم عنه هي الأخرى شيئاً. وقد ألزم الشاب نفسه بإطاعة أمه ورعاية واجبه نحو أخته كما يتطلب ذلك ضميره المتعود على مثل هذه الأمور. فحافظ على سر البيت في صمت مهيب، وأظهر نوعاً من الإيثار العام، وحل مهمة علاقة النسب لها على الوجه التالي: لقد نقل البنت، التي كانت وحيدة، حرمت من مساعدة أبويهما، من المكان المجاور إلى بيته، وزوجها بعد فترة قصيرة من رفيق له يحظى باحترامه، وجهزها من ماله الخاص طواعيةً بسخاء.

على أن هذه التدابير الوقائية المحكمة، التي اتخذت ببراءة كبيرة، لم تنج من تصرفات القدر الشريرة. فقد كان هذا سبباً في نزوح الغيرة الشرسة إلى بيته. ففي نفس اللحظة بدأت زوجته ـ وهي نفس هذه المرأة التي حكم عليها بأن تلقى أمام الحيوانات الضارية ـ تتهم الفتاة في البداية بأنها عشيقة له وضرة لها، ثم تلعنها وتهيىء في النهاية أحابيلها للإيقاع بها في شباك الموت.

وفكرت في آخر الأمر في العمل الفظيع التالي: سرقت خاتم زوجها، وسافرت إلى الريف، وأرسلت عبداً، كان وفياً لها، ولكنه يستغل الوفاء والصدق لعمل الشر، إلى الفتاة ليخبرها بأن زوجها قد سافر إلى المزرعة ويطلب منها أن تلتحق به هنالك، وأن تحضر إليه في أقرب وقت ممكن دون مرافقة أحد. وقدمت له، حتى لا ترتاب في أمر السفر، الخاتم، الذي سرقته من زوجها، ليريها إياه ويكون دليلاً على صدق أقواله. واستجابت المرأة الشابة لطلب أخيها ـ وهي الوحيدة التي تعرف صفة الأخوة هذه ـ، إضافة إلى أنها رأت خاتمه أمام عينيها، وسافرت، كما طلب منها ذلك، بدون مرافقة. على أن الزوجة اللئيمة ثارت، عندما نجحت الحيلة التي دبرتها لها ورأتها واقعة في حبالها، ثورة عارمة، بلغت فيها الغاية القصوى. فقد مزقت أولاً ثياب أخت زوجها، وراحت تضربها بالسوط إلى أن طفرت الدماء من جسدها. وعندما أخذت الزوجة الشابة تصرخ وتقسم لها أنها الحقيقة وأن الأخرى ثائرة ضدها بناء على خيانة زوجية مزعومة، وتنطق بكلمة "الأخ" أكثر من مرة، دفعت، كما لو أنها كذبت عليها واخترعت كل شيء، بحطبة مشتعلة بين رجليها وقتلتها بهذه الطريقة المريعة.

وأفزع خبر هذه الميتة المحزنة كلاً من الأخ والزوج، وبكيا الزوجة الجديدة بكل أنواع البكاء، وحملاها إلى مثواها الأخير. ولم يحتمل الشاب موت أخته، الذي وقع له بشكل محزن لا يستحقه إطلاقاً، فقد جلس الألم من قلبه، وأثار غضبه بصورة خطيرة، أخذت تنتابه منذ ذلك الحين الحمى المرعدة، فأصبح هو نفسه في حاجة إلى من يسعفه حسب ما كان يظهر عليه. أما الزوجة، التي كانت قد فقدت منذ مدة طويلة اسم "الزوجة" وفقدت معه الوفاء والصدق، فقد قصدت طبيباً، يعرف بانعدام الضمير، كان قد تميز بإنهاء العديد من الصراعات مع الموت ونال عدة جوائز مهمة، يستطيع أن يظهرها لمن شاء ذلك، وعرضت عليه فوراً عشرة آلاف دينار، يستفيد هو منها في بيع سم سريع المفعول، بينما تستفيد هي منها في القضاء على حياة زوجها. وعندما اتفقا على ذلك، تظاهراً بأنهما سيقدمان للمريض، للتخفيف من حدة الكآبة النفسية، وإزالة إفرازات الحوصلة الصفراوية، مشروباً يطلق عليها العلماء الكبار اسم

"إكسير الحياة"، وفي نيتهما أن يقدما له بدله دواء آخر، هو إكسير الموت. وقد ... للطبيب أن يقدم للمريض، تحت نظر الخدم والأصدقاء المقربين والأقرباء، ال... المناسبة من المشروب بنفسه.

على أن المرأة اللئيمة، إزاحةً لمن يشاركها في العلم بالجريمة واحتفاظاً بالما... الموعود، مسكت القدح أمام أنظار الجميع، وقالت:

ـ لن أدعك، يا أفضل الأطباء كلهم، تقدم المشروب لزوجي الحبيب إلا بعد أ... تتناول منه أنت جزءاً كبيراً! فمن أدراني أنه لا يحتوي على سم مضرّ؟ ولا ضير عليا... بصفتك رجلاً ذكياً عالماً، على أية حال في أن أطلب منك بصفتي امرأة ورعة حريصه على سلامة زوجها مراعاة خاطري الضرورية.

لقد أربكت هذه الخطوة، التي اتخذتها المرأة الجهنمية بصورة لم يكن يتوقعها أحد، الطبيب على حين غرة، وبلبلت فكره تماماً. وبما أنه لم يكن لديه من الوقت ما يكفي للتفكير، فقد تناول، قبل أن تعتريه أية رعدة أو خوف يوحي بتهمة الإحساس بالذنب، جرعة كبيرة من هذا المشروب. فاطمأن الرجل الشاب بناء على ذلك وأخذ الكوب، الذي قدم له، وشربه كله. وبعد أن توصل الطبيب إلى حل هذا الأمر، بشكل موقت، على هذه الصورة، هم بالذهاب إلى البيت بأقصى سرعة ممكنة، ليتناول دواءً شافياً يقضي بسرعة على مفعول السم القاتل، الذي شربه. إلا أن المرأة الرهيبة لم تدع له، بعنادها اللعين، وكانت قد بدأت به هذه القضية كلها، المجال ليبتعد عنها مقدار أنملة، وقال له:

ـ لن تذهب قبل أن يتم هضم المشروب ويظهر أثره!

ولم تسمح له في النهاية بالذهاب إلا بعد أن توسل إليها بإلحاح وناشدها عديد المرات. وكان السم الخفي يتسلل في أثناء ذلك إلى أحشائه بسرعة كبيرة ونفذ إلى نخاعه، حتى إنه كان يحس بالتعب والخدر الرصاصي في أوصاله، فلم يصل إلى منزله إلا بعد جهد جهيد. وما كاد يروي كل ذلك لزوجته ويطلب منها أن تطالب على الأقل بالمكافأة الموعودة على الموت المزدوج، حتى أضاع هذا الطبيب الممتاز حياته على هذا الوجه العنيف ولفظ أنفاسه الأخيرة.

ولم يعش الرجل الشاب طويلاً أيضاً، فقد مات بالطريقة نفسها وزوجته ترسل فوقه دموع التماسيح. وبعد أن دفن ومرت الأيام، التي تقدم فيها عادة القرابين

للموتى، حضرت زوجة الطبيب وطلبت ثمن موت الإثنين معاً. فلم تتغير المرأة اللئيمة إطلاقاً، وتخلت عن أمانتها، ولكنه أظهرت جانباً صورياً منها، فأجابتها بلطف كبير، ووعدتها بأن تقدم لها من كل شيء ما يكفيها، ووافقت على أن تسلمها المكافأة الموعودة في الحين، إلا أنها ترغب في أن تحصل بعد على قليل من ذلك المشروب، حتى تستطيع الوصول بالمهمة التي بدأتها إلى نهايتها. ولم الإكثار من الكلمات؟ فقد وقعت زوجة الطبيب في المصيدة. ووافقت على ذلك. فلكي تظهر مدى مجاملتها للمرأة الغنية، أسرعت إلى البيت وأحضرت علبة السم كلها، وقدمتها لها. وهكذا أصبحت لدى المرأة اللئيمة مادة كافية لتمد يديها الدمويتين إلى أبعد حد وترتكب جرائمها بحرية تامة.

وكانت لها بنت من هذا الرجل، الذي قتلته قبل لحظات. وقد أفزعها أشد الفزع أن القوانين تفرض أن يعود الميراث الأبوي لهذه البنت. وبما أنها كانت تريد أن تستولي على ميراث ابنتها كله، فقد أخذت تسعى إلى قتلها. وكانت متأكدة من أن الأم تستطيع أن ترث أبناءها بعد حدوث جريمة، ولذلك سلكت مع ابنتها نفس السلوك الذي سلكته مع زوجها. كان الوقت مناسباً في تلك اللحظة بالذات، ولذلك هيأت فطوراً، وقتلت به ابنتها وزوجة الطبيب في آن واحدٌ بالسم نفسه. وقد أثر السائل القاتل في الأعضاء الداخلية اللينة للفتاة الشابة في الحين. ولكن زوجة الطبيب ارتابت في الأمر، عندما شعرت بالمشروب الرهيب ينحدر فوق طرق قاتلة في رئتيها، وخمنت ما حدث، ثم تأكدت من ذلك حين اعتراها ضيق التنفس، وأسرعت من فورها إلى بيت الحاكم في المدينة، وطلبت مساعدته وهي تملأ الدنيا صراخاً. وأقبل الشعب من كل جهة، ونظراً إلى أنها كانت لديها جرائم شنيعة تريد أن تكشف عنها، فقد فتحت لها أبواب الحاكم وحظيت منه بالاستماع إليها. وبعدئذ روت له كل الأعمال الإجرامية، التي قامت بها هذه المرأة الشيطانية منذ البداية. ثم خيم على وعيها فجأة ما يشبه السحابة، واعتراها دوار، وانغلقت الشفتان، اللتان كانتا مفتوحتين حتى النصف، وصدر عن أسنانها المرتعدة صرير دام بضع لحظات، ثم وقعت ميتة بين يدي الحاكم. ولم تكن للحاكم الحازم رغبة في أن تفقد جرائم الأفعى السامة العديدة شيئاً من أهميتها إذا ما تأخر الأمر طويلا ، ومن ثم أمر بإحضار خدم المرأة الحقيرة على الفور. وبعد أن عذبوا، اعترفوا بالحقيقة، فحكم عليها بأن تلقى. وكان ذلك أقل مما تستحق، ولكنه لم يكن من السهل التفكير في عذاب أنسب. أمام الحيوانات المفترسة على أية حال.

كان علي أن أقترن بامرأة من هذا النمط أمام الرأي العام! وكنت أنتظر يوم تقد..م هذا المشهد في خوف قوي غاية القوة. وقد أردت أكثر من مرة أن أنتحر حتى لا أفضح نفسي بملامسة المرأة المجرمة أو أدوس كرامتي في عرض علني. على أنه لم يكن في وسعي أن أستسل سيفاً بدون يد بشرية، وبدون أصابع، وما لي غير حافر مستدير تلم. ولكن بصيصاً من الأمل صغيراً مكنني من بعض العزاء في المحن الخطيرة: كان الربيع قد ورد ووشى الدنيا ببراعم الزهر، وخلع على المروج بريقاً مضيئاً. وبرزت الورود في أشكالها الشائكة الوضيئة، ناشرة حولها أريجها الزكي، وشذاها العبق، وهي التي كان عليها أن تحولني إلى صورتي القديمة بصفتي لوكيوس.

وجاء يوم العرض المحدد فعلاً! فقادوني إلى المدرج بمصاحبة الشعب، الذي كان يهلل للموكب. وعندما قدمت الرقصات في بداية العرض، كنت أنا واقفاً أمام الباب، أبهج نفسي بأكل الأعشاب الناعمة، التي نبتت عند المدخل مباشرة. وكنت أنعم على نفسي من حين لحين بإلقاء نظرة عبر الباب المفتوح على أحب العروض إلى نفسي.

كان هناك فتيان وفتيات جميلات في رونق الشباب النضر، يرتدون ثياباً بديعة، أخذوا يرقصون رقصة يونانية بخطوات رشيقة، ويقمن بأداء دوامة من التشكيلات الراقصة الرائعة فيشكلون مرة عجلة مستديرة، ومرة أخرى سلسلة منحنية، ثم يبتعدون بعضهم عن بعض ويشكلون مربعاً مفتوحاً، لينقسموا بعدئذ إلى مجموعات صغيرة. وما إن يعلن صوت النفير نهاية العرض، الذي تمثل في الغدو والرواح، والارتفاع والانخفاض، والدوران في حلقة مستديرة، حتى أسدل الستار، وسحبت الأقمشة المزينة، وتم إعداد المنصة.

فقد نصب جبل من الخشب، هو نموذج لذلك الجبل الشهير، الذي تغنى به الشاعر هوميروس باعتباره جبل إيدا، نصبه خبراء كبار، يحتوي على أدغال وأشجار حية وكانت هناك عين اصطناعية تتدفق من قمته وتسيل جدولاً، ومعاز قليلة تقضم العشب الأخضر، وراع شاب، ارتدى ثياباً جميلة مثل باريس، الراعي الإفريجي، كان - والثياب الغربية تنحدر من كتفيه وعلى رأسه قلنسوة ذهبية - يحرس القطيع. وكان هناك كذلك غلام لطيف، وهو عريان حتى كتفه اليسرى، التي كانت تغطيها عبارة الدخول في سن الرجولة، تتدلى من رأسه ضفائر شقراء، وقد خرج من شعره جناحان ذهبيان صغيران متناسقان، وحتى عصا الراعي كان يسمه بأنه الإله ميركور. وقد تقدم بخطوات سريعة راقصة، وهو يحمل في يمناه تفاحة مغطاة بورقة ذهبية، سلمها

إلى الممثل الذي يؤدي دور باريس، ويلمح له بأمر جوبيتر عن طريق الحركات، ثم ينسحب بسرعة ومرونة ويختفي عن الأنظار.

ودخلت بعده فتاة ذات ملامح جليلة، منظرها يشبه منظر الإلهة جونو. فقد كان رأسها محاطاً بإكليل مشع، وكانت تحمل صولجاناً أيضاً.

وبعدئذ دخلت أخرى، يمكن اعتبارها منيرفا، إلى المنصة عدواً، كان رأسها مغطى بخوذة ملتمعة، استدار حولها إكليل من أغصان الزيتون، رفعت الدرع، ولوحت بالحربة، وكان منظرها شبيهاً بمنظر الإلهة في أرض المعركة.

والتحقت بها فتاة أخرى باهرة الحسن، شيقة المنظر، تمثل ببشرتها الإلهية ربة الجمال فينوس عندما كانت لا تزال عذراء. كان جسمها العاري يكشف جمالها التام، باستثناء عانتها، التي كانت تغطيها غلالة حريرية ناعمة، لم تحجز منظرها عن الرؤية. وكانت الريح، لفضولها إلى حد ما، ترفع الغلالة عابثة بها في لطف حيناً، بحيث كانت تنحسر جانباً وتبرز الشبيبة المبرعمة، وتضغطها بنسماتها حيناً آخر، بحيث تلتصق بها وتظهر ملامح الأعضاء المغرية تلميحاً. على أن ألوان الإلهة أبرزت على الفور مفارقة محددة: جسمها ناصع البياض، لأنها نزلت من السماء، وغلالتها زرقاء، لأنها طفت من البحر.

وظهر الآن إلى جانب كل عذراء من العذارى، اللواتي يمثلن دور الإلهات، حراسها، فوقف قرب جونو كاستور وبولوكس (ابنا زيوس). وعلى رأسيهما خوذتان بيضاويتا الشكل، تتدلى فوق جبينيهما أهداب، وكان هذان الشقيقان غلامين تابعين للفرقة التمثيلية طبعاً. وتقدمت جونو تحت نغمات الناي، ووعدت الراعي، بحركات هادئة غير متصنعة وإشارات سامية، بأنها ستنصبه حاكماً لآسيا كلها إذا ما هو خصها بجائزة الجمال.

أما الأخرى، التي جعلت منها زينة السلاح، مينرفا، فقد رافقها غلامان حارسان، يمثلان الرعب والخوف، وكان يرقصان بسيفيهما المسلولين، وكان في المؤخرة عازف على الناي يعزف لحناً دوريا حربياً، يمزج فيه بين الأصوات العميقة والمرتفعة مزجاً أشبه ما يكون بصفير البوق، أدى بالحضور إلى القيام برقصة نشيطة متوثبة. وحاولت بعدئذ، برأس مضطرب وبعينين غاضبتين متوعدتين، أن تفهم باريس، عن طريق الحركات اليدوية القصيرة، بأنه سيكون بمساعدتها بطلاً يحمل نياشين حربية ملتمعة، إن هو منحها جائزة الجمال!

وها هي فينوس قد وقفت وقفة بديعة وسط شاشة المسرح تحت التصفيقات الكثيرة، وهي تبتسم ابتسامة مشعة، وقد أحاط بها سرب من الشباب المرحين، وكان هؤلاء الأطفال المستديرون الناعمون كالحليب يبدون وكأنهم آلهة الحب الصغار الذين جاءوا تواً طائرين من السماء أو من البحر، وكانت أجنحتهم الجميلة وسهامهم اللطيفة وغير ذلك من الألبسة مناسبة لذلك على نحو رائع، وكأنها كانت في طريقها إلى حفلة عرس، فراحوا يتقدمون سيدتهم والمشاعل تلتهب في أيديهم. وعندئذ دخلت أسراب بديعة من الفتيات العذارى، هنا بصفتهن ربات الجمال اللطيفات، وهناك بصفتهن حوريات بديعات الحسن، وكن يرمين بأكاليل الزهر والبراعم المفردة للاحتفال بإلهتهن، وشكلن حلقة رائعة وأحطن سيدتهن بزينة الربيع بوصفها سيدة الملذات. وانطلقت الآن من النايات أنغام ليدية جميلة. وبينما كانت هذه الأنغام تسلب ألباب النظارة وتفتنها، أخذت فينوس تقُوم، بشكل أكثر فتنة، بحركات رائعة، بدأتها بخطوات مترددة وخصر يهتز بنعومة ورأس ينحني في هدوء، ثم راحت تستجيب شيئاً فشيئاً لأنغام النايات الرقيقة بحركات أنيقة، وكانت عيناها تتحدثان حديثاً ليناً، وهما شبه مغمضتين، حيناً، وحديثاً متوعداً وهما محددتان حيناً آخر، وأخيراً راحت ترقص حتى بنظراتها. وعندما أصبحت أمام القاضي، بدت وكأنها تبشره برفيف ذراعيها أنها، إن هو فضلها على الإلهتين الأخرين، ستقدم لباريس امرأة رائعة الجمال تعد صورة مماثلة لها تمام التماثل. حينئذ قدم الشاب الفريجي في غبطة تفاحته الذهبية إلى الفتاة بمثابة الموافقة على انتصارها..

لم تتعجبون إذن أيتها الرؤوس الفارغة، بل أيتها النعاج الواقفة أمام المحكمة، بل أنتم أيتها النسور التي ترتدي زي المحاماة الرسمي، إذا أصبح كل القضاة في أيامنا هذه يبيعون أحكامهم بالمال! فقد زيف حكم قضائي في بداية تاريخ العالم، فصل فيه بين الآلهة والبشر عن طريق المساعدة في إخفاء الجريمة. ثم إن القاضي، الذي تم اختياره بناء على أمر جوبتير، وهو الفلاح والراعي، قد باع أول حكم في مقابل لذة جنسية، مما أدى إلى إهلاك نسله كله! وهناك أيضاً أحكام أخرى مشهورة بين الأمراء الآخيين الشرفاء. فقد حكم مثلاً على بلاميديس (الأمير اليوناني) المثقف الفاضل والعالم الواسع المعرفة بناء على إتهامه بالخيانة اتهاماً مزيفاً، وثم تفضيل أودوسيوس العادي الذكاء على بطل الحرب المتميز من نوع أياكس القوي الشجاع. ولكن ما هو الأمر في ذلك الحكم، الذي أصدره أولئك المشرعون والمعلمون الأثينيون المتبحرون في كل العلوم؟ ذلك الشيخ الإلهي الذكاء، الذي وضعه الإله في معبد دلفي لحكمته فوق

حميع البشر الفانين، سقراط. ألم توقعه في شباكها مجموعة دنيئة حاقدة متآمرة وقتلته بتهمة إفساد الشباب، الذي كبح في الحقيقة جماحه وأخضعه، عن طريق إعطائه كأس السم الزعاف؟ ولذلك خلع على مواطنيه وسمة العار أبد الدهر، فلا يزال الفلاسفة إلى يومنا هذا يفضلون تعاليمه بصفتها الأكثر صفاء، ويعقدون الأمل على اسم معلمهم في سعيهم الحثيث بحث عن السعادة.

ولكي يعتب علي أحد ثورتي ويقول في نفسه "انظروا! إن علينا الآن أن نترك حماراً يعلمنا الفلسفة!"، أريد أن أعود إلى النقطة، التي انحرفت فيها عن رواية القصة.

عندما انتهى باريس من إصدار حكمه، انصرفت جونو ومينيرفا حزينتين وكأنهما غاضبتان، وهما تعربان عن طريق الإشارات عن استيائهما لصدهما عن نيل الجائزة. أما فينوس فقد عبرت، مغتبطة طلقة المحيا، عن فرحتها برقصة أدتها مع المجموعة.

وبعد ذلك انبعث من قمة الجبل محلول الزعفران الممتزج بالنبيذ في الجو، وتساقط رذاذه العطر فوق المعاز، التي كانت ترعى في تلك الأنحاء، جعلها تتخذ مكان بياضها الطبيعي لوناً أصفر. وحين انتشر العطر الزكي دائر مدار المسرح كله، انشقت الأرض وابتلعت الجبل الخشبي.

وعندها أقبل جندي يركض على امتداد ميدان المسرح، وذلك ليحضر الآن من السجن العمومي، بناء على طلب الجمهور، تلك المرأة، التي كانت المحكمة قد حكمت عليها لجرائمها العديدة، كما سبق أن ذكرت، بأن تلقى أمام الوحوش الضارية، وعينت لأتزوج بها أنا زواجاً رائعاً. وأعد فراش بعناية كبيرة ليكون مضجعاً لنا، زين بقشرة السلحفاة الهندية الشفافة وبالوسائد المحشوة بالريش الناعم والأغطية الحريرية الملونة. وكان يعذبني بشكل خاص الخوف من الموت زيادة على عار القيام بمضاجعتها أمام الناس ومباشرة المجرمة الشنيعة فقد فكرت فيما يلي: إذا نحن التصقنا أثناء ممارسة جنسية بالذات وأدخلت علينا بهيمة مفترسة لتقتل المرأة. فإن هذه البهيمة لن تكون ذكية ماهرة أو مروضة على نحو راقٍ أو زاهدة بحيث تفترس المرأة النائمة إلى جانبي وترأف بي أنا لأني لم يُحكم علي ولست مذنباً!

وهكذا لم أعد أحمل هم سلوكي، وإنما أصبحت تهمني حياتي نفسها. وعكف حارسي على تهيئة المضجع كما ينبغي، وكان بعض الخدم قد انصرفوا إلى إعداد

الكلاب للخروج إلى الصيد، بينما كان بعضهم لا يزالون مأخوذين بالمشهد المث
وفي أثناء ذلك مكنت أفكاري من حرية القرار: بما أن أيا منهم لم يكن يتصور أن عل
أن يحرس حماراً مروضا مثلي، فقد أخذت أضع تدريجياً رجلاً أمام أخرى حتى بلغ
خفية الباب الموالي واندفعت هارباً بسرعة فائقة! وطويت ستة أميال كاملة دفعة
واحدة، فوصلت إلى كينخريا، التي تعرف بضاحية مستعمرة كورنت المزدهرة وتق
على البحر الإيجي أو في الخليج الصروني. وكان هناك كثير من الناس يرتعون في
مينائه، وهو ملجأ أمين للسفن. وقد تجنبت الزحام، وبحثت عن مكان منعزل في
الشاطىء، أرحت فيه أعضائي المتعبة قرب الأمواج وفوق فراش من الرمل الناعم.
وما إن انحنت عربة الشمس في اتجاه محطة اليوم الأخيرة. حتى غلبني النوم بين
أحضان السكينة المسائية.

الكتاب الحادي عشر

استيقظت من نومي أثناء نوبة الحراسة الأولى على التقريب، فاعتراني خوف مفاجيء، وشاهدت قرص القمر في تلك اللحظة يخرج من أمواج البحر في سطوع، وكان الليل المظلم قد اكتفني بصمته الهادئ. وقد شعرت على نحو أكيد أن الإلهة، التي تتحكم هناك في الأعالي، توجه مصائر عالم الإنسان برعايتها، ولا تبعث الحياة في كل ما هب ودب فقط، وإنما تبعثها كذلك في الجماد بنورها وإرادتها المقدسة. فتنمو الكائنات في الأرض وفي السماء وفي البحر معها حيناً، وتضأل معها حيناً آخر. لقد أمدني القدر، الذي كان قد شبع من كل المحن التي حلت بي، بالأمل في النجاة وإن جاء ذلك متأخراً. ولذلك قررت أن أدعو إلى ظهور الربة الجليل، التي كانت قريبة مني. فنفضت النوم عني في الحين، ونهضت مسروراً نشطاً، واستحممت في البحر وأنا أهفو إلى النقاوة. وغمست رأسي سبع مرات في أمواج البحر، لأن فيتاغوراس الموهوب كان قد اعتبر هذا العدد خاصة ملائماً للطقوس الدينية. ورحت أصلي للربة القوية والدموع تنهمر من عيني:

ـ "يا ربة السماء! سواء أكنت لكيريس، الأم الواهبة لغلال القمح، أنت التي سعدت بالعثور على ابنتك ثانية، فجعلت الحنطة الناعمة قوتاً للبشرية بدل الطعام، الذي كان مستديماً يستمد من أشجار البلوط للإنسان والحيوان معاً، وتحكمت في التربة الإلويزية الخصبة، ـ أم كنت فينوس السماوية، أنت التي جمعت الجنسين عن طريق آمور في البداية الأولى، وزرعت الإنسانية المتوالدة أبد الدهر، وتعبدين الآن في معبد يافوس، الذي تحيط به مياه البحر، ـ أم كنت أخت فوبوس (أبوللو)، أنت التي تقدم للنساء في حالة الولادة أدوية تخفف عنهن الآلام، وتستجلب الشعوب زمراً، وتقدس في معبد إفيسوس الفخم، ـ أم كنت بروسيربينا، أنت التي يعنيك الصراخ الليلي الرهيب، يا ذات الوجوه الثلاثة، التي تمسك بزمام الأشباح المخيفة، وتحافظ على قوانين الأرض، وتطوف عبر الغابات وتقدم لها طقوس متنوعة، ـ أنت يا من تضيء

بنورها النسوي كل منطقة، وتغذي البذرة بنارها الندية، وتضبط شعاعها المتغير حسب مجرى الشمس، ـ بأي اسم، وبناء على أي تقليد، وفي أية صورة يجب على أن أدعوك ـ ساعديني أنت الآن في محنتي الكبيرة، وأرفعي سعادتي عن أنقاضها، وامنحيني بعد كل ما عانيت من آلام قاسية الراحة والهدوء! كفاني متاعب، كفاني مخاطر! إرم عني صورة الحيوان البشعة، دعيني أر هيئتي مرة أخرى، دعيني أكن لوكيوس من جديد! وإذا كان قد وقع علي عبء غضب ألهة ما، فليكن من حقي أن أموت إن لم يكن من حقي أن أحيا حياتي!"

هكذا كنت أتوسل إلى الآلهة وأنا أبكي بمرارة، وعندئذ غمرت ذهني المجهد سحابة كثيفة من النوم، عطلت حواسي في عين المكان. وقبل أن أغفو تماماً، تبجس من البحر وجه إلهي، وألقى نظرة، تحظى بمودة السماء نفسها حتماً، ثم ظهر أمامي تدريجياً كائن شبحي كامل الهيئة، وهو ينفض عنه ماء البحر. وسأحاول أن أصف لكم مظهره، على الأقل على قدر ما يسعفني به فمي الإنسان من قوة التصوير أو ما يمدني به ذلك الكائن طوعاً من لباقة وسلاسة في الحديث.

لقد انحط شعر متماوج فخم وانبسط فوق العنق الإلهي وتسايل على نحو بديع، وقد استدار فوق الرأي الجليل إكليل من أزهار كثيرة ذات ألوان متعددة، وتراءى في وسطه فوق الجبين قرص دائري يشبه المرآة، بل يشبه نموذج القمر، ينطلق منه ضوء لامع. وقد تلوت عن يمينه ويساره أفاع متلاصقة، وتعلو ذلك سنابل فاخرة. وكان الثوب مصنوعاً من نسيج حريري ناعم ملون، يلتمع بياضة حيناً كالنهار، وصفرته الزعفرانية حيناً آخر، ثم الأحمر البرتقالي، وكان المعطف ـ وقد أعشى ضوؤه عيني من بعيد ـ أسود كالليل، يشع بنور الحرير المعتم، امتد على شكل دائرة، ماراً تحت الإبط الأيمن إلى الكتف اليسرى، ينحدر منه شريط على شكل مكور، ويصل الأرض على صورة مثنيات، تظهر الثنية الخارجية أهداباً متماوجة. وكانت النجوم الملتمعة متناثرة فوق أنسجته المطرزة وفوق مساحته نفسها، وفي وسطها بدر يقذف نيراناً ملتهبة. وما من طرف من أطراف المعطف الرائعة إلا تعلقت به أكاليل من أوراق الورد والثمار الناضجة.

وكل ذلك إضافة إلى هذه التجهيزات المختلفة! كانت اليد اليمنى ماسكة بصنج برونزي، له صفيحة منحنية ضيقة تشبه الحزام، علقت بها أعواد صغيرة، تصدر عنها نغمة ذات صرير، عندما تهزها الذراع ثلاث مرات. أما اليسرى فقد تعلقت بها صحفة

ذهبية لها شكل السفينة، وقد نصبت هناك، حيث يبرز مقبضها، أفعى عنقها العريض المنتفخ وكانت القدمان السماويتان تنتعلان خفين مضفورين من سعف نخلة النصر. بهذا الجمال البديع، الذي تفوح منها رائحة كالعطر العربي، تنازلت لتخاطبي بصوتها الإلهي:

- انظر إلي، يا لوكيوس! لقد نادتني دعوتك، فجئت، أنا أم الطبيعة، وسيدة العناصر كلها، وخلية الأجناس، - أميرة الأرواح، وملكة الموتى، وربة السماء، - جوهر الآلهة والإلهات. ضوء قبة السماء، ونسمة البحر الشافية، صمت الجحيم المفجع خاضع لإشارتي. أنا كائن، ومع ذلك فلي أشكال كثيرة، وشعائر متغيرة، أحظى بعبادة الكرة الأرضية كلها تحت أسماء متعددة. فأنا هناك عند الإفريقيين القدامى أم آلهة بسينوس، وهنا عند أهالي بلاس الاتيكيين منيرفا السكيروبية (الأثينية)، وأدعى عند أهالي جزيرة قبرص فينوس النافية، أما عند الرماة الكرتيين فاسمي هو ديانا الديكونية وعند الصقليين الثلاثي اللغة أدعى بروسيربينا الستوجية، بينما أدعى كيريس الأكيسية عند الألويزين القدامى. بعضهم يدعواني جونو، وبعضهم الآخر بيلونا، هؤلاء هيكاته وأولئك رامنوزيا؛ أما الأثيوبيون، الذين يضيئهم إله الشمس شروقاً وغروباً، والمصريون بما لهم من حكمة قديمة فيعبدونني حسب شرائعهم الخاصة ويدعونني الملكة إيزيس.

لقد جئت هنا رحمة بك في عذاباتك أنا هنا لأحسن إليك وأنعم عليك. فاعزف الآن عن البكاء، وتخل عن الشكوى، وانبذ الحزن. الآن يبزغ يوم سعادتك بفضل عنايتي. فأصغ إلي إذن وانتبه إلى ما آمرك به:

هذا اليوم، الذي ستبرزه هذه الليلة، هذا اليوم بالذات كرسته لي التقوى الدينية منذ الأزل. فقد هدأت العواصف الشتوية وسكنت أمواج البحر. ولذلك سيدشن كهنتي يوم غد سفينة جديدة لي بعد أن أصبح السفر ممكناً من جديد افتتاحاً للمواصلات. ولا يجوز لك أن تستقبل هذا الحدث المقدس بحزن أو بأفكار دنيوية. فعندما يتشكل الموكب كما ينبغي سآمر الكاهن بربط إكليل من الورد في الصنج المعلق بيده اليمنى. وهنا يجب عليك أن تندفع في الزحمة فوراً وتتبع الموكب واثقاً من إرادتي بكل نشاط! فإذا ما أنت اقتربت من الكاهن، فأرفع رأسك بهدوء، كما لو أنك تريد أن تقبل يده، وأقطف الورد، وستتخلص حالاً من جلد هذا الحيوان، الذي لم أحتمل وجوده أبداً. ولا تستصعب أي أمر من أوامري. ففي هذه اللحظة، التي أظهر فيها في هذه الجهة، أكون

قريبة كذلك من الجهة الأخرى وآمر كاهني في الحلم أن يفعل ما بقي فعله. ثم إن الناس سيتجنبونك بأمر مني في زحمة الموكب، ولن يهتم أحد في غمرة الحفلة البهيجة والأبهة الاحتفالية بمنظرك الكريه، ولن يسيىء أحد فهم تحولك المفاجىء ويفتري عليك بطريقة خبيثة. إلا أنه يجب عليك أن تفهم هذا وأن تحافظ عليه بكل ألياف قلبك، وهو أن ما بقي من سيرتك الأرضية إلى آخر نفس من حياتك كله في خدمتي! وإنه لمن الإنصاف أن تكرس حياتك المستقبلية كلها لتلك التي أعادتك نعمتها إلى إنسانيتك. وهناك مع ذلك حياة مليئة بالسعادة، مليئة بالمجد تنتظرك تحت رعايتي. وإذا أنت جاء أجلك ونزلت إلى العالم السفلي، فإني سأضيء هنالك أيضاً في نصف الدائرة السفلى ظلمات الجحيم، كما تراني، وأتحكم في قصر الموتى. أما أنت ـ وقد أصبحت أيضاً من سكان الروضة الإلوزية ـ فستعبدني على الدوام بصفتي منعمتك. فإن أنت دنت لي بالطاعة الحية، والعبادة الورعة، والزهد الصارم، وأصبحت جديراً بنعمتي، فأعلم أن لي وحدي الحق في إطالة حياتك بعد المدة التي حددها لك القدر.

هكذا أنهت الإلهة، التي لا تقهر، حديثها الذي يبعث الهيبة في النفس، وتلاشت في نفسها. وفي الحين نفضت النوم عن عيني، فغمرني الخوف والفرح ثم صبيب العرق، ونهضت. وخيل إلي أن معجزة وقعت حتى إن الإلهة القوية كانت قريبة مني بشكل واضح. فرششت نفسي بماء البحر، وتابعت خواطري أهم أوامرها، ففكرت في ترتيب المهمة.

وبعد لحظة انقشعت سحب الليل السوداء وأشرقت الشمس ذهبية. وإذا بسرب ورع من الناس يملأ الشوارع كلها كما لو أنه خرج للاحتفال بالنصر تماماً! وعلاوة على سعادتي الخاصة فقد بدا لي كل شيء مبتهجاً إلى حد أنني شعرت أن الحيوانات من كل نوع والدور في كل مكان واليوم نفسه تظهر وجهاً ذا طلاقة مشعة. وقد أعقب كذلك صقيع الأمس القاسي يوم مشمس رائق على حين غرة، حتى إن الطيور المغردة تجرأت في الهواء الربيعي الدافيء على الظهور، وراحت تغرد وتنشد نشيداً رائعاً لأم الأفلاك، جدة الأزمنة وسيدة الكون. أجل، حتى الأشجار التي تحمل الثمار منها، والعقيمة التي ترضى بمجرد الظلال ـ تحولت في الريح الجنوبية إلى براعم براقة وأرسلت حفيفها وهفهفتها عبر الأغصان المهتزة بهدوء ولطف. وهدأت أصوات العاصفة القوية، وسكنت فورة الأمواج المضطربة وأصبحت أمواج البحر تتكسر تكسراً هادئاً معتدلاً. وكانت السماء قد غادرتها السحب الداكنة، فسطع ضوءها عبر

زرقتها اللامعة.

وها هي طلائع الموكب الكبير تتقدم على مهل، وقد بدت على أفرادها بهارج متقنة، فواحد يمثل جندياً، ربط صنجاً إلى جسده، وآخر في معطف مشمر يؤدي بحزمته وحرابه دور صياد. وثالث يقلد بحذائه المذهب وثيابه الحريرية وزينته النفيسة وبشعره المستعار الضيق سيدة تسير بخطى متبخترة. وقد جلب آخر أيضاً الانتباه إليه بجبيرتي ساقيه، ودرعه، وخوذته وسيفه، يمكن اعتباره مصارعاً خرج الآن من مدرسة المبارزة إلى الشارع. وكان هناك كذلك أشخاص يمثلون بعصيهم وأرجوانهم دور الموظفين أو يمثلون فيلسوفاً بمعطفه الجوخ وعصاه ونعليه وبلحيته التي تشبه لحية التيس، أو يدخلون وبأيديهم عصي مختلفة، سواء لصيد الطير بالدبق أو لصيد السمك بالسنارة. وشاهدت كذلك كيف أدخلوا دُباً مروضاً في هودج يرتدي ثياب امرأة، وكيف كان قرد يمسك بقدح ذهبي، وعلى رأسه قبعة من القش، وعليه لباس فروجي أصفر، وعلى وجهه قناع الراعي غانيميد، وكيف كان حمار ذو جناحان ملصقان يضرب الأرض بحوافره إلى جانب رجل متداع، حتى إن المرء ليعتبر أحدهما بلليروفون، والآخر بيغاسوس، ويود أن يضحك على الاثنين معاً.

وبينما كانت هذه الأقنعة منتشرة في كل مكان لتسلية الجماهير، تحرك الموكب الحقيقي للإلهة السخية. تقدمت نساء يرتدين ألبسة بيضاء ناصعة، ويحملن في بهجة أدوات في أيديهن، وفي شعورهن عصابات من براعم الربيع، وكن ينثرن من أحضانهن أثناء الطريق أزهاراً صغيرة فوق الأرض، بينما أدارت غيرهن مرايا ملتمعة إلى الخلف ترحيباً بالإلهة المقتربة. وكان بعضهن يرفعن أذرعهن بأمشاط عاجية ويحنين أصابعهن كما لو أنهن كن يردن مشط الشعر الملكي وتمويجه. وكان بعضهن الآخر يقطرن البلسم الرائع بينما يصب أخريات العطر فوق الشوارع وكان هناك إلى جانب ذلك أسراب كثيرة من الجنسين، يحملون الفوانيس والمشاعل والشموع وما أشبه ذلك من الأنوار الاصطناعية تقرباً إلى طفلة أفلاك السماء. وبعد ذلك تناغمت في تناسق بديع ألحان المزامير والنايات الرائعة. وعقبت ذلك جوقة جميلة المنظر اختير أفرادها من أكثر الشبان يفاعة، وهم يرتدون ثياب العيد الملتمعة في بياض الثلج، ويتغنون على الدوام بأغنية ساحرة، كان قد ألفها شاعر موهوب بفضل عرائس الشعر، وتمرن عليها، فجعلت بوصفها نصاً تمهيدياً مطلعا للعبادات الكبرى. وصاحب الموكب أيضاً بعض من عازفي الناي، الذين يعبدون سرابيس (الإله المصري) العظيم، كان يعزفون نشيد معبد إلههم على مزامير تمتد حتى آذانهم اليمنى. وهذا إضافة إلى

مجموعة كبيرة من الناس كانوا يطلبون من الجماهير إفساح الطريق لمرور الموكب.

وبعد ذلك اندفع سيل من المتعبدين رجالاً ونساء من كل الأوساط ومن جميع الأعمار، وقد ارتدوا ألبسة من الكتان بيضاء براقة، النساء بخمر معطورة فوق خصلهن الزكية، والرجال برؤوسهن الحليقة وصلعاتهن الملتمعة، وحملوا بصفتهم الكواكب الأرضية للديانة العظيمة حاجات برونزية وفضية وذهبية أيضاً، وهم يصلصلون بها، فتنجم عنها أنغام متناسقة. وقد حضر الكهنة أيضاً، وكانوا يرتدون أردية كتانية بيضاء تنحدر من صدورهم حتى أقدامهم، ويعرضون لوازم القوة الإلهية المميزة. فكان أولهم يرفع مصباحاً ملتمع الضياء، لا يشبه في الحقيقة المصباح، الذي نستعمله نحن عند تناول الطعام، وإنما هو سفينة ذهبية صغيرة، تشتعل في وسطه المتسع شعلة أكبر حجماً إلى حد ما. وكان الثاني يرتدي ألبسة مشابهة، إلا أنه كان يحمل بيديه الاثنتين مذبحاً من النوع، الذي يدعى "المساعدة" ويعود الفضل في هذه التسمية إلى عناية الإلهة السامية السخية. وكان الثالث يرفع أثناء سيره نخلة ذات سعفات ذهبية، وكذلك عصا المنادي على طريقة ميركور. وأظهر الرابع صورة اليد اليسرى المبسوطة الممتدة بوصفها رمزاً للعدالة، فهي في ضعفها الطبيعي، دونما سوء ودونما مهارة، قد بدت أنسب إلى العدالة من اليد المينى. وكان الرجل يحمل أيضاً وعاء ذهبياً مستديراً له شكل الحلمة، يقطر منه حليب القربان. أما الخامس فقد أحضر مذرى من الأغصان الذهبية، وجاء بعده آخر يحمل جرة.

وظهر الآلهة بعد ذلك بقليل وقد تكرموا بالمشي على الأرجل البشرية. فها هو الرحالة بين العالم العلوي والعالم السفلي بوجهه السامي، الذي يتعاقب عليه اللونان الأسود والذهبي، وبرأسه الكلبي المرفوع، أنوبيس (ابن أوزيريس)، وقد مسك بيسراه عصا المنادي وبيمناه منشة من السعف الأخضر. وتبعته مباشرة بقرة منتصبة القامة، تمثل خصوبة الإلهة باعتبارها أما للجميع. وحمل أحد خدم المعبد فوق كتفي رجل، كان يخطو سعيداً متثاقل الخطى. وحمل آخر الصندوق، الذي يتضمن الأسرار ويخفي عن الأنظار أمور هذه الديانة المقدسة. وكان هناك آخر أيضاً أحضر في حضنه صورة مبجلة لجوهر الألوهية السامية، لم يشبه الحيوان الأليف، ولا الطائر ولا الأيل ولا حتى الإنسان نفسه، وإنما كان يشبه. وقد نال التقدير لمجرد كونه اختراعاً ذكياً. على نحو ما عقيدة أكثر سمواً، يجب المحافظة عليها بالصمت العميق، وقد رمز إليها بصورة لا يمكن التعبير عنها. على أنها كان لها الشكل التالي من الذهب اللماع: جرة صغيرة بطينة محكمة الصنع، قعرها تام التدوير، رُسمت فوقها حروف مصرية،

وكان مسر بها، الذي لم يكن قد رفع كثيراً، يشكل رقبة طويلة ذات مجرى ناتىء. أما من الجهة المقابلة فقد كان هناك مقبض داخل أحد التجاويف الخلفية، تلوت حوله أفعى رافعة عنقها المقشور المنتفخ المخدد.

واقتربت حقاً ساعة الخلاص المباركة، التي كانت قد وعدتني بها الإلهة المنعمة! وجاءني الكاهن الأكبر بصفته المجسم لخلاصي، وكان يحمل فعلاً ما كانت الإلهة قد وصفته لي مسبقًا، فكان يمسك بيمناه صنجاً للإلهة وإكليلا لي أنا، يعلم الإله أن هذه الإكليل كان أمراً منطقياً مشروعاً، فقد عانيت من آلام لا حصر لها ولا قياس، وقاومت أخطاراً كثيرة، وطرحت ربة الحظ، التي قست علي قسوة بالغة، أرضاً! ولم أدع في أثناء ذلك الفرحة تتغلب علي وتدفعني إلى أن أنطلق راكضاً ركضاً أهوج، فلم يكن يجوز لي أن أخل بمسيرة العبادة المقدسة الهادئة بصفتي حماراً من ذوات الأربع راح يهرول فجأة. ومن ثم تسللت بخطى هادئة متئدة على الطريقة الإنسانية تماماً. وتقدمت متلوياً ببطء بين الجماهير، التي كانت تتنحى عن طريقي استجابة لأمر إلهتي على ما بدا لي، وخرجت من الناحية الأخرى.

على أن الكاهن ـ وقد استنتجت ذلك من الوقائع ـ تذكر الرؤيا الليلية، فتوقف، وقد أدهشهُ أن يتطابق ما يحدث مع مهمته، ومد يده اليمنى تلقائياً إلى الأمام وقرب الإكليل من فمي تماماً. فتناولت الإكليل، وأنا أرتعد وقلبي يدق بشدة، وكان عبارة عن حزمة براقة من الورود اللذيذة، وأخذت التهمها مستبشراً. ولم تخدعني البشارة السماوية، فقد وقع عني القناع الحيواني الغريب دفعة واحدة! تساقط أولاً الشعر الخشن فوق الأرض، ثم ضمرت الطبقة السميكة من الشحم، وغار البطن المكتنز، وانسلخت بطون الأقدام عن الحوافر لتتحول إلى أصابع الأقدام، وتخلت اليدان عن أن تكون قدمين، فامتدت إلى أعلى للاستعمال، وتضاءل العنق الطويل، واستدار الرأس والفم، واستعادت الأذنان الكبيرتان شكلهما القديم، واتخذت الأسنان، التي كانت تشبه الحجارة المربعة، الحجم الإنساني واختفى عضوي، الذي كان أكثر تنكيلاً بي، على جناح السرعة! فاستغرب الناس ذلك، وانحنوا في خشوع أمام القدرة الإلهية السامية والتحول العظيم الهين ورفعوا أيديهم إلى السماء وراحوا يمجدون صوتاً واحداً الإلهة على نعمتها الظاهرة.

أما أنا فقد وقفت أمام دهشتهم المفرطة كالمغروس في الصمت الحائر، ولم يستطع ذهني إدراك فرحة مفاجئة عاتية من هذا النوع. فبأي شيء يجب علي أن

أنطق أولاً، وبماذا أبدأ نطقي الجديد، وما هي الكلمات، التي أدُشن بها لساني المهدى إلي ثانية على الوجه الأنسب، وما هي الكلمات، التي أشكر بها الإلهة العظمى وما هو عددها؟ على أن الكاهن كان يعرف عن طريق الوحي كل الآلام، التي عانيتها منذ البداية، ورغم أنه كان هو الآخر لا يزال تحت تأثير المعجزة الفريدة، فقد أومأ أولاً إيماءة مناسبة وأمر بأن يقدم لي إزار أستر به نفسي. ذلك أنه ما إن انحسرت عني جلدة الحمار الكريهة، حتى ضممت فخذي، ووضعت يدي فوقهما، وسترته، على قدر ما في استطاعة إنسان عارٍ، هكذا بهذه الستارة الطبيعية. وعندئذ نزع أحد أعضاء البلدية المستقيمة رداءه دون تفكير ورماه إلي بسرعة. وبعد أن تم هذا، وجه الكاهن نظرة المستنير، المنعزل عن الأمور الدنيوية فعلاً، إلي في حماس كبير وقال:

ـ لقد عانيت آلاماً كثيرة، وطوحت بك عواصف القدر الشديدة وأعاصير أكثر عتواً في أماكن عديدة، ولكن، ها أنت، يا لوكيوس، قد وصلت أخيراً إلى مرفأ السلام ومعبد الرحمة. ولم تستفد في أي مكان كان من نسبك ولا من مركزك على الأقل أو من ثقافتك الرائعة نفسها، وإنما وقعت في فترة الشاب الفج بين أحضان اللذة الوضيعة، وقد كان لك الجزاء السيء على فضولك الذي لم يكن في محله. وكيفما كان الأمر فقد قادك القدر الأعمى في لحظة الخطر المحدق والعذاب إلى هذه السعادة الدينية، سهواً منه من فرط خبثه! فبعداً له الآن، وليغضب وليحنق بلا حدود، إلا أن عليه أن يبحث عن شخص آخر يسلط عليه قوته! ذلك أن أولئك الذين كرسوا حياتهم لعبادة إلهتنا العلية، لا مكان لديهم لمثل هذا العداء الغاشم. فماذا أفاد القدر الحانق من اللصوص والحيوانات الضارية، ومن الرحلات المضنية فوق الطرق الوعرة ومن الخوف اليومي المميت؟ لقد تكفل بك الآن قدر، ولكنه قدر مبصر، يضيء نوره الآلهة الأخرى أيضاً. فابتهج كما يليق بردائك الأبيض وأنضم إلى موكب المخلصة الإلهية بخطى مهللة! ودع الملحدين ينظرون إليك، ينظرون ويعرفون خطأهم وضلالهم: انظروا، إن لوكيوس، الذي تحرر من ضائقته السابقة بفضل رعاية إيزيس العظيمة، يحتفل بانتصاره على القدر انتصاراً بهيجاً! إلا أن عليك، كيما تحافظ على نفسك وتحميها حماية أفضل، أن تنضم إلى هذه الديانة المقدسة. وقد طلب منك قبل فترة أن تقسم على ذلك.. فقف حياتك بوصفك شاباً على عبادتنا من الآن فصاعداً، وألزم نفسك بنير العبادة طوعاً! فإذا أنت بدأت عبوديتك للإلهة، فإنك ستشعر بأنك كسبت الحرية كسباً مضاعفاً!

على هذه الصورة تكلم الكاهن الفاضل بحماس، وتنفس الصعداء تعباً وسكت.

واختلطت بعدئذ بالجماهير المؤمنة، وتقدمت لمصاحبة الموكب، فجلبت انتباه المدينة كلها، فنظر الناس إلي وأشاروا إلي بأصابعهم وأومأوا برؤوسهم. وكانوا كلهم يتحدثون عني: . هذا الرجل حولته اليوم الإلهة القديرة إلى إنسان يسعى بين الناس ثانية وفقاً لإرادتها. حقاً، إنه لسعيد مغتبط غبطة ثلاثية! ذك أنه اكتسب عن طريق البراءة والاستقامة في الحياة السابقة هذه الحماية الرائعة من السماء، حتى إنه ألزم نفسه الانضمام إلى الشبيبة المقدسة وكأنه قد ولد من جديد.

وتقدم موكبنا ببطء تحت مثل هذه الأحاديث وفوضى الدعوات المتعبدة، وافتقر بنا من شاطىء البحر وبلغنا ذلك الموضع، الذي كان الحمار لوكيوس قد وجد فيه في اليوم السالف اصطبله. وهناك نصبت تماثيل الآلهة على الترتيب. وبعدئذ طهر الكاهن سفينة بديعة الصنع، كانت تملأ جنباتها رسوم مصرية غامضة ذات ألوان زاهية، بشعلة ملتهبة وبيضة وكبريت، وهو يتلو بفمه النقي دعوات ورعة وأوقفها على الإلهة منفعة وتقوى. وكان شراع هذه السفينة المكرسة قد رسمت فوقه حروف ذهبية، تشكل الدعاء بالسلامة للسفن التي تشرع في المواصلات البحرية الجديدة. وارتفعت الصارية المستديرة المصنوعة من خشب الصنوبر عالياً والشعاع ينطلق من قمتها بوضوح. وكان هناك إلى ذلك. مؤخرة السفينة المذهبة، التي كانت تتخذ شكل الأوزة وترسل بدورها أشعة تضيء خشب الليمون المصقول الذي صنعت منه السفينة، من أعلى إلى أسفل على نحو لماعٍ. وأحضر الناس كلهم، سواء أكانوا من المتبصرين بالدين أم من غيرهم، مُراهنةً سلالاً مليئة بالتوابل والهبات، وصبوا في مياه البحر مزيجاً حليبياً إلى أن امتلأت السفينة بالهبات الكثيرة والدعوات الميمونة، وفصلت حبالها عن المراسي، ودفعتها ريح رخاء لينة إلى البحر. وعندما ابتعدت عنا كثيراً وأصبحنا لا نكادُ نراها، رفع كل واحد ما كان قد أحضره إلى هنا من أوعية مقدسة، وانتظموا جميعاً في موكب مماثل عائدين إلى معبد الإلهة.

وما إن وصلنا المعبد جميعاً، حتى مضى الكاهن الأكبر ومن حمل تماثيل الآلهة للعرض أو كان قد اطلع سابقاً على طقوس العبادات المقدسة، إلى مضجع الإلهة، ليضعوا الأعمال الفنية، التي ملئت حياة، في أماكنها المعتادة. ثم وقف أحدهم، يطلق عليه عموماً اسم الكاتب، بالباب ودعا اتحاد البستوفوريين. هكذا تدعى هيأة الكهنة القديسين. إلى ما يشبه اجتماع المجلس البلدي الاستشاري. ثم قرأ من فوق منصة في نفس المكان أدعية، منقولة من كتاب نقلاً أميناً، تخص القيصر الأعظم، ومجلس الشيوخ ومنظمة الفرسان والشعب الروماني كله، والبحارة والسفن، التي تخضع

لامبراطوريتنا العالمية، ونطق باللغة اليونانية وعلى النحو المعتاد كلمة "فلويافيسيا" الخاصة بإقلاع السفينة. وقد دل هتاف الجماهير على أن هذا يعد دعاءً مباركاً للجميع. وراحت الجماهير، وقد مسكت في أيديها بالأغصان والأعراف والأكاليل، تقبل قدمي الإلهة، التي كان تمثالها الفضي فوق الدرج. وبعد ذلك انصرف الجميع ومضوا إلى بيوتهم. على أنني أنا لم أستطع أن أتخذ قراراً بأن أتزحزح عن مكاني قيد أنملةً، فرحت وأنا عزيق في تأمل تمثال الإلهة أستعيد في ذهني تجاربي السابقة.

على أن الإشاعة المجنحة لم تترك لجناحيها أن ينعما بالخمود والكسل، وإنما أسرعت إلى موطني لتتحدث عن النعمة، التي أصبغتها علي الإلهة الرحيمة، وعما حل بي من محن في أماكن عديدة. وهكذا تخلى أصدقائي وخدمي وأقربائي، الذين كانوا قد اعتبروني، بناء على خبر كاذب، قد فارقت الحياة، عن حزنهم على الفور، وأسرع كل واحد منهم في فرحة طاغية إلي، أنا الذي رجعت من العالم السفلي إلى ضوء النهار ثانية، لرؤيتي حاملاً معه هدية ما. لقد ابتهجت بهم أنا أيضاً، لأني لم أكن أتوقع رؤيتهم، وقبلت هباتهم الكثيرة بفرحة غامرة. وقد أحضر لي أصدقائي من باب الحيطة كل شيء لتكون لي حرية الحركة فيما يتصل بالثياب والمصاريف.

وحييت كل واحد منهم، كما يجب ورحت أتحدث بسرعة عن نكباتي السابقة وكذلك عن أفراحي الراهنة. ثم ذهبت مرة ثانية إلى الإلهة، التي أثلج صدري منظرها، وأكتريت بيتاً قريباً من المعبد واستقررت فيه مؤقتاً - في البداية باعتباري خادماً خاصاً إلى جانب الإلهة، على مقربة من مسكن الكهنة ومن القوة السماوية المعبودة.

ولم تمض ليلة واحدة أو نومة ما دون أن تتفضل الإلهة علي بطلعتها وإرشادها، كانت تصدر إلي أوامرها المقدسة مراراً وتكراراً بالانخراط في الطقوس المقدسة على الأقل طبقاً لما عهد به إليه منذ مدة طويلة. ومع أني كنت أريد ذلك وأرغب فيه، فقد ترددت في الأمر بدافع من الخوف الديني، ذلك أنني كنت قد عرفت أن الحياة بين أتباع الطائفة الدينية بالغة الصعوبة، وأن التقشف لا يمكن بلوغه بسهولة، وأن من الضروري أن يتصرف المرء بحكمة حيال حياة تخضع لمصادفات متعددة. لقد فكرت في هذا أكثر من مرة، وأجلت المسألة على نحو ما رغم نفاد صبري.

وذات ليلة حلمت بأن الكاهن الأكبر قدم لي حجره المملوء وأجاب عن السؤال "ما هذا؟" بأنها أشياء تخصني، أرسلت إلي من ثيساليا. وقد وصل خادمي المدعو كانديدوس من هناك أيضاً. وعندما استيقظت من نومي، رحت أفكر وأعاود التفكير

في الوجه الذي رأيته في حلمي: ماذا يعني ذلك، وأنا على يقين بأني لم يكن لي أبداً خادم بذلك الاسم؟ وكيفما كانت دلالة ذلك الحلم على أية حال، فقد خيل إلي أنه يرمز إلى شيء ما أناله، ما دامت أشيائي قد قدمت لي. ولذلك انتظرت بفارغ الصبر وفي حالة من التوقع المتوتر ما سينجم عن انفتاح باب المعبد في الصباح من مخرج مناسب. وسحبت الستائر الناصعة البياض من الجهتين، وأدينا صلاتنا في ورع أمام الإلهة، وصلى الكاهن وهو يدور حول المذابح هنا وهناك، يطلب البركة في أبهة ويصب من وعاء القربان الماء، الذي كان قد أحضر من أقدس الأمكنة. وفي أثناء ذلك - وختم كل هذا الآن بشكل لائق - حي الأتقياء النهار الجديد وتغنوا بقداس ساعة الصباح الأولى. وإذا بعبدي قد وصلا من هيباطا، وكنت قد تركتهما فيها عندما وضعت فوتيس سهواً الزمام في عنقي، وكانا قد سمعا بحكاياتي، وأحضرا لي فيما أحضراه حصاني السابق، الذي كان قد تداولته أيادٌ عديدة، ولكنهما تعرفا عليه بوسم ظهره واستعاداه لي. وتبعاً لذلك عجبت أشد العجب لدلالة ذلك الحلم، فقد تأكد ما وعدت بنيله وأعاد إلي حصاني تحت رمز العبد كانديدوس، الذي يعني الحصان الأبيض.

وبعد هذا الحديث عكفت على ممارسة الطقوس الدينية بدقة متعبة للغاية، لأن أمل المستقبل رهن بما لي الآن عند الإلهة من حظوة. وكانت رغبتي في قبول الأسرار المقدسة تزداد يوماً بعد آخر شدة. وكنت أستعطف الكاهن الأكبر على الدوام وأرجوه بإلحاح أن يرسمني في أسرار الليلة المقدسة، على أنه - وهو الرجل الرفيع الشأن، الذي اشتهر بالمحافظة على مراسيم التقشف - سوف مطلبي برقة ولطف على الطريقة التي تعود الآباء بها كبح رغبات أطفالهم السابقة لأوانها، واستمهلني إلى وقت أنسب، وحاول أن يصبرني على هذا المنوال. ذلك أن الإلهة هي التي تعطي الإشارة أولاً وتحدد اليوم، الذي يستقبل فيه الشخص المعين الأسرار المقدسة، وهي التي تختار ثانياً، بعناية، الكاهن، الذي يقوم بهذه العملية الدينية، يضاف إلى ذلك أنها هي التي تحدد على نحو مماثل المصاريف الضرورية لإقامة الحفل. ثم أشار علي بالتحلي بالطاعة والحيطة والصبر، إذ من واجب أن أحذر الشهوة والعناد وأن أتجنب هاتين الخطيئتين كما يجب، وألا أتأخر عند الدعاء وألا أستجيب قبل الأمر. وذكر أنه لا يوجد أحد من طائفته يجرؤ، مهما كان تطاوله وحرصه على الموت، على ممارسة وظيفة دينية بصورة تحكمية جنائية مميتة دون أن يتلقى أمراً خاصاً من الإلهة، فمزلاج العالم السفلي وكذلك حماية الحياة بيدها وحدها، وأن الإنسان يتلقى الأسرار

المقدسة نفسها بمثابة الموت الاختياري والتخلي عن نعمة الخلاص. فقد تعودت الآلهة، عندما تنتهي فترة الحياة المقررة ويقف الإنسان على عتبة الموت، على أن تدعو أولئك الذين يمكن أن تسند إليهم على نحو أكيد المحافظة على الأسرار المقدسة العظيمة، وعلى أن تضع من ولدوا ثانية بفضل رعايتها في تيار الحياة الجديد. وعلي أنا تبعاً لذلك أن أطيع أيضاً الأمر السماوي، حتى ولو كانت نعمة الإلهة العظيمة الواضحة قد اختارتني منذ مدة لأسعد بخدمتها و من واجبي كذلك أن أمتنع مثل بقية المتعبدين عن تناول الأطعمة الدنسة الآثمة كيما أسلك طريقاً أقوم للوصول إلى الأسرار الغامضة للديانة المقدسة.

هذا ما حدثني به الكاهن، وقد وطنت نفسي على الطاعة، فكنت أقوم بطقوسي الدينية كل يوم بهدوء وديع وصمت مجيد ولم تخذلني رحمة الإلهة القوية أو تعذبني بالمماطلة الطويلة، فقد بشرتني في ليلة مظلمة بشكل تام الوضوح بحلول اليوم، الذي انتظرته طويلاً، وبتحقيق ما كانت تصبو إليه نفسي. وأخبرتني كذلك بالمبلغ المخصص لإعداد الحفل، وأسندت إنجاز هذه العملية المقدسة إلى كاهنها الأكبر مثيراس (إله الشمس الفارسي)، الذي كان، وفقاً لما قالته لي، مرتبطاً بي ارتباطاً محتوماً بقران النجوم.

لقد بعثت أوامر الإلهة السخية هذه وغيرها الحياة في أوصالي، وما إن لاحت تباشير الصباح، حتى نفضت النوم عن عيني، وبادرت إلى غرفة الكاهن، فالتقيت به وهو يهم بمغادرة غرفته، وحييته. فقد كنت أرغب بإلحاح أكبر في أن أقبل بصفتي شاباً، لأن قبولي أصبح واجباً. على أنه ما كاد يراني، حتى قال لي من تلقاء نفسه: - آه، يا لوكيوس، إنها لسعادة وبركة أن تمجدك الإلهة السامية بمشيئتها المنعمة هذا التمجيد!

وأضاف يقول:

- ما لي أراك لا تزال واقفاً هنا، تسد الطريق على نفسك. لقد جاء اليوم. الذي كنت تصبو إليه بحرقة. ستدخل اليوم، بناء على الأوامر السماوية - للإلهة المتعددة الأسماء، الأسرار الدينية المقدسة على يدي هذه!

وبذلك وضع الشيخ في لطف كبير يده اليمنى فوق كتفي وقادني مباشرة إلى الباب الحقيقي للمعبد الواسع. وبعد أن افتتح الحفل على ما جرت به التقاليد القديمة وقدم القربان الصباحي، أخرج من الأدراج الإلهية المخفية بعض الكتب، التي كتبت بحروف

غامضة، كان بعضها يتضمن صورًا لحيوانات مختلفة، تشكل كلمات التمائم المختصرة، ويتضمن بعضها الآخر علامات متشابكة مستديرة مزخرفة أو متسلقة كالأغصان حماية لها ممن لا ينتمي إلى رجال الدين. وقدم لي منها ما هو ضروري لإعداد حفل دخول القدسية.

وأقبلت على إعداد ذلك بنشاط وبشيء من السخاء، أحضرت بعضه بنفسي، واشترى زملائي بعضه الآخر. وعندما حل وقت ذلك حسب كلمات الكاهن، قادني بمعية الجماعة المؤمنة إلى الحمام المجاور، وتركني بعدئذ استحم الاستحمام المعهود، وغسلني ورشني بالماء المقدس في كامل جسدي وهو يدعو لي أن يكون من نصيبي عطاء الإلهة ونعمها! وأعادني بعد ذلك إلى المعبد. وكان قد مضى ثلاثة أرباع النهار، حين وضعني عند قدمي الإلهة وقدم لي خفية إرشادات من الخسارة الإعلان عنها. ثم أمرني بصوت عالٍ، سمعه الجميع بأن علي منذ اليوم أن أكبح جماح شهيتي عند الأكل، وأن أتجنب مختلف اللحوم وتعاطي النبيذ. وحين ألزمت نفسي بذلك في تحكم مهيب، جاء اليوم، الذي خصص لتقديم النذر للآلهة. فانحنت الشمس وأقبل المساء، فانساب الناس من كل مكان، وقد حمل لي كل واحد منهم حسب التقاليد المقدسة القديمة هذه الهدية أو تلك! ثم أمر الكاهن من لبسوا من رجال الدين أن يقفوا بعيداً، ودثرني برداء جديد من القش، وأخذ بيدي، وقادني إلى داخل بيت القُدسية الحقيقي.

ولعلك، أيها القارئ المتطلع إلى المعرفة، تود آن تسأل في لهفة كبيرة فيم كان حديثنا وماذا فعلناه. وسأقول ذلك، لو جاز لي أن أقوله، وستسمعه لو جاز لك أن تسمعه. فالآذان، وكذلك اللسان، سترتكب إثماً، إما بمرض الثرثرة الملحدة أو بحب الاستطلاع الأحمق. وفي أثناء ذلك لا أريد أن أعذبك بالقلق المستديم، فلعل توقعك الديني يجعلك متوتراً. فاسمع إذن، ولكن عليك أن تؤمن بما هو حق! لقد اقتربت من حدود الموت، ونزلت فوق عتبة بروسيربينا، وعدت عبر العناصر جميعها. وفي منتصف الليل رأيت الشمس تلمع بضوء أبيض، واقتربت من آلهة الموت وآلهة السماء وجهاً لوجه، ودعوتها عن قرب قريب جداً. هانذا قد أخبرتك بما سمعته، ولكنك مع ذلك لن تستطيع فهمه! ولذلك لن أروى إلا ما يحق لمن ليسوا من رجال الدين أن يسمعوه دون إثم.

وأصبح الصباح، وخرجت بعد انتهاء الحفل، وقد قدست عبر اثني عشر مطرفاً،

وأنا أرتدي رداءً رسمياً ينطوي على أسرار، ليس هناك أدنى شيء يمنعني من الحديث عنه، فقد كان ثمة وقتئذ عدد كبير من شهود العيان. ذلك أنني قدمت نفسي في المركز الحقيقي للبيت المقدس، كما طلب مني ذلك، فوق منصة نصبت أمام تمثال الإلهة. وقد جلب ردائي المزركش المصنوع من التيل الأنظار إليه، وكان يتدلى من كتفي حتى كعبي من الخلف وشاح ثمين، وحيثما نظر الإنسان رأى في ثيابي صور حيوانات متعددة الألوان تحيط بجسمي كله. فهنا تنانين هندية، وهناك نسور شمالية، تشكل عالماً آخر من الطيور ذوات الأجنحة على ما لها من شبه بالأسود. ويطلق الكهنة على هذا الوشاح اسم المطرف. وكنت أمسك في يدي اليمنى شعلة ملتهبة، وقد استدار حول رأسي إكليل فاخر من سعف النخل الملتمع الممتد إلى الأمام على شكل أشعة. وهكذا كنت مجهزاً كإله الشمس ومنتصباً كالتمثال، وعندما سحبت الستائر فجأة، كان هناك جمع غفير من الناس الذين أرادوا رؤيتي. وبعد ذلك احتفلت بعيد ميلاد دخولي القدسية احتفالاً بهيجاً وأقمت مأدبة لذيذة الأطعمة رائقة المسامرة. واحتفلت في اليوم الثالث على الطريقة نفسها، فتم تناول طعام الصباح الديني وحفل اختتام القدسية المعهود.

وأقمت في المكان نفسه بضعة أيام أنعم بالحظوة الإلهية، التي لا توصف، تدفعني إلى ذلك مشاعر الامتنان للإلهة على نعمة لا يمكن إثابتها عليها. على أني تلقيت أخيراً إشارة من الآلهة ـ التي شكرتها شكراً كان غير كافٍ، ولكنه كان مناسباً لأوضاعي المتواضعة ـ بالسفر، فبدأت رحلتي إلى وطني بعد أن تأخرت كثيراً جداً، ولم أحرر نفسي من روابط الاستسلام إليها في حرقة في النهاية إلا بمشقة. فجثوت في نهاية المطاف أمام الإلهة ومسحت، ودموعي منهمرة، رجليها بوجهي مدة طويلة، بينما كان خطابي غارقاً في نشيجي وكلماتي مخنوقة:

ـ أيتها الإلهة المقدسة، يا منقذة البشرية إلى الأبد، يا كنز أبناء الأرض السخي، يا من تنعم على التعساء والمتعبين بمحبة الأم الرقيقة! فلا يمر يوم أو ليلة أو لحظة قصيرة فقط دون أن يكون لنعمك أثرها، لا أحد منها يمر دون أن تحفظي الناس بحراً وبراً، وتُبعدي أعاصير الحياة، وتقدمي يدك اليمنى للمساعدة، هذه اليد، التي تفك ما لا يفك من الأنسجة المتشابكة، وتحد من حدة زوابع القدر وأشرار النجوم في مداراتها. يدين لك بالطاعة من في السماء ومن في الأرض من الآلهة، تديرين قبة السماء وتشعلين الشمس. العالم عرشك، والجحيم مقعدك. تسير الأفلاك نحوك، وتتغير الفصول. تهلل لك الألهة، وتقوم العناصر على خدمتك. إشارتك ترسل الرياح،

وتُمطر السحب، وتنبت البذور، وتُنمي البراعم. أمام جلالك ترتعد الطيور وهي تطير في الفضاء، والحيوانات وهي تطوف في الجبال، والثعابين وهي تزحف فوق الأرض، والحيتان وهي تسبح في البحر على أني أنا تعوزني هباتك لأعبر عن حمدي لك، والأموال لأقدم لك الأضاحي. وليس لي في حبالي الصوتية من القوة ما يكفي لأعلن ما أحسه حيال جلالتك، فلا ألف فم ولا ألف لسان ولا صبيب مطر دائم من القول يكفي لذلك. أما ما يستطيع الإنسان أن يفعله وحده، وهو متدين، ولكنه فقير، فذلك أمر يهمني أنا. إني أريد أن أحتفظ بوجهك السماوي وكيانك الإلهي المقدس في سويداء قلبي على الدوام، وأحافظ عليهما وأضعهما نصب عيني.

هكذا صليت للقوة السماوية السامية، وعانقت متراس، الكاهن الذي أصبح الآن أبي، وتعلقت بعنقه أقبله قبلات كثيرة، ورجوته أن يغفر لي، لأني لا أستطيع أن أثيبه على ما له علي من نعم سابقة كما يليق بجلال قدره. وأخرتني بعد ذلك خطبة طويلة، عبرت له فيها عن شكري، إلى أن انصرفت أخيراً. وأسرعت بالعودة إلى بيت أبي ثانية بعد هذه الغيبة الطويلة؛ وجمعت أغراضي خلال أيام قليلة بناء على أمر الألهة القوية، وركبت باخرة متجهة إلى رومة. ووصلت بمواتاة الرياح الرخية ميناء أغوسطوس، وامتطيت من هناك عربة وواصلت رحلتي بسرعة، فبلغت المدينة المقدسة عشية ثلاثة عشر ديسمبر. ومنذ ذلك الحين لم يشغل قلبي شيء كما شغله الجثو يومياً أمام الملكة السماوية إيزيس، التي اتخذت اسمها هنا من موقع المعبد وحظيت باعتبارها "إيزيس حقل مارس" بنوع من القداسة الخاصة. وهكذا كنت خادمها الدائم، كنت غريباً في المعبد، ولكني كنت أهلياً فيه من حيث المعتقد.

ودارت الشمس الرائعة دورتها في البرج، وتمت السنة. وقطعت الإلهة الرحيمة في حدبها الدائم نومي مرة أخرى، وطلبت مني القدسية من جديد، وتقبل الأسرار من جديد. وقد انتابتني الحيرة فيما تقصد إليه وما هذا الذي تبشرني به بالنسبة إلى المستقبل، فقد كنت أعتقد أنني حقيقة قد رسمت في الأسرار المقدسة تمام الترسيم منذ مدة طويلة.

وبينما كانت هذه الأفكار الدينية تطوف بذهني مرة أمام منصة ضميري، وأخرى في مشاوراتي مع الكهنة، أتضح لي الأمر وضوحاً كبيراً. فقد تبين لي أنني عرفت أسرار الإلهة وحدها، ولكني لم أعرف بعد أسرار الإله الأعظم وأبي الآلهة أزيزيس، الذي لا يقهر؛ ذلك أنه مهما كانت التصورات الإلهية والدينية مرتبطة بعضها ببعض،

بل مهما شكلت في حد ذاتها وحدة، فإن هناك مع ذلك اختلافاً مهما في القدسية. فكان علي تبعاً لذلك أن أقنع نفسي بأن الإله الأعظم يطلبني أيضاً. ولم يتأخر بعد اتخاذ القرار لمدة طويلة. فقد ظهر لي في الليلة التالية أحد الكهنة وهو يرتدي ألبسة طويلة، حاملاً معه أعواداً من خشب الصنوبر وأغصان شجر اللبلاب وأشياء أخرى خفية، وضعها أمام مذبح بيتي مباشرة، وجلس على كرسي وأعلن إقامة وليمة دينية. ولكي يمكنني من التعرف عليه بعلامة شخصية أكيدة، أقبل وهو يميل كعب رجله اليسرى، يجر خطاه ببطء وبعد هذا التعبير الواضح عن إرادة الإلهة، ذهبت عني الحيرة كلها، وعندما قدمت للإلهة صلاتي الصباحية، نظرت إلى كل واحد، علني أجد قدمه تشبه قدم الشخص، الذي رأيته في حلمي. وسرعان ما تأكد ذلك. فقد جلب انتباهي فوراً واحد من بين الكهنة، كان مطابقاً للشخص، الذي تراءى لي ليلاً مطابقة تامة زيادة على العرج في رجله. وكان اسمه، كما علمت فيما بعد، أسينيوس (الحمار) مارتيكيلوس. ولم يكن الاسم عديم العلاقة بتحولي. فاتجهت إليه دون تأخر، وكان هو نفسه يعرف طبعاً بأن هذا المحادثة ستتم بيننا، لأنه كان هو ذاته قد تلقى أمراً مماثلاً بقبول الأسرار القدسية قبل فترة ليست بالقصيرة. وكان قد رأى فيما يرى النائم أنه قدم للإله الأعظم أكاليل، وسمع من فمه الخبير بكل المصائر الحياتية، أنه سيرسل إليه رجل مداوري فقير إلى حد كبير، يجب عليه أن يطلعه على الأسرار المقدسة فوراً. فعن طريق رعايته سيكون للرجل المذكور حميد الذكر لمعرفته الواسعة وسيكون له هو نفسه الجزاء الكبير على ذلك.

وهكذا كان علي أن أطلع على الأسرار المقدسة، ومع ذلك فقد وقع تأخير رغماً عني نظراً لقلة الأشياء المتوفرة لذلك. فقد أتت نفقات الرحلة في البداية على خزينتي الضعيفة إلى حد كبير، ثم إن مصاريف المدينة كانت تفوق بكثير مصاريفي السابقة في الإقليم. وهكذا وقف بي الفقر المدقع ونقلني إلى وضع يقع بين المطرقة والسندان، كما جاء في المثل القديم. أضف إلى ذلك أن الإلهة كانت تستعجلني وتلح علي على الدوام. وعندما رأيت أن إلحاحها علي ثم أوامرها تزداد فأتلقاها بدهشة كبيرة، بعت ثيابي وجمعت منها، رغم أنها كانت قليلة، مبلغاً كافياً. وكان قد قال لي هذا: "أما كنت ستضحي بأسمالك هذه ومن تفكير عندما تريد القيام بمغامرة ما؟ فما لك تتردد الآن، قبل الدخول في مثل هذه الاحتفالات، في أن تسلط على نفسك فقراً لا يعقبه ندم؟"

أعددت إذن كل شيء كفايةً، واقتصرت على تناول طعامي بلا لحم عشرة أيام مرة

أخرى، وحلقت رأسي كذلك. ثم صارت الأسرار الليلية لأمر الألهة تضيئني، فعكفت على عبادة أتباع العقيدة الدينية المزدوجة بإخلاص كبير. وكان هذا عزاء لي في الغربة ومكنني فوق ذلك من مسلك أروح لي في حياتي. وهذا أمر أكيد، فقد ساعدني الحظ فاستطعت العمل بصفتي محامياً باللغة اللاتينة وجمع قليل من المال من وراء ذلك.

وليتصور المرء بعدُ هذا بعد فترة قصيرة تلقيت من الآلهة أوامر أخرى. مفاجئة لم أكن أتوقعها إطلاقاً، تطلب مني فيها أن أخضع نفسي لعملية ثالثة من دخول القدسية! لقد انضاف بذلك هم كبير إلى هموم الأخرى. وعاودتني الحيرة التامة، ورحت أفكر تفكيراً عميقاً، وأقلب الأمر على وجوهه المختلفة وأتساءل ما الغرض من مشروع الأهداف السماوية الجديد المفاجيء، وماذا بقي بعد ترسيمي في الأسرار المقدسة مرتين اثنتين: "إما أن يكون الكاهنان قد خدعاني، وإما أنهما أخفيا عني شيئاً!" وبدأت فعلاً أشك في نزاهتهما. وراح ذلك يدور في رأسي كعجلة الطاحونة، وكدت أصاب بالجنون من فرط القلق، إلى أن أوضح لي الأمر ذات ليلة طيف لطيف الوجه بالكلمات التالية، فقال:

- ليس هناك من سبب يدعوك إلى أن تفزع من الطقوس المترادفة، كم لو أن شيئاً ما لم يؤخذ بعين الاعتبار! فالأجدى لك أن تبتهج للتقدير المستمر، الذي تلقاه من الألهة، وليثب قلبك مرحاً أن يكون لك ثلاث مرات ما يكون لغيرك مرة واحدة لا غير، وأفهم - ومن حقك هذا - من هذا العدد ضمان سعادتك الأبدية. ثم إن تقبلك للأسرار المقدسة القادمة لا مفر منه بالنسبة إليك. فاقنع نفسك على الأقل بأن أردية الإلهة التي ارتديتها في الأقاليم، يجب أن تبقى في المكان نفسه ولا يجوز لك أن تصلي بها، إن أنت أمرت، لا يصح لك كذلك أن تظهر للناس في تلك الزينة المقدسة. إذن فلتكن من نصيبك السعادة والبركة والفلاح! فأقبل على تقبل الأسراء المقدسة، والغبطة في قلبك، كما تأمرك بذلك الإلهة العظيمة!

هذا ما أمر الطيف، الذي أرسله الإله، بفعله وألح عليه إلحاحاً مقنعاً. ولم أهمل الأمر أو أؤجله تكاسلاً إلى يوم آخر، وإنما أخبرت كاهني في الحين بما حلمت به، وألزمت نفس فوراً بالتقشف بالتخلي عن اللحم، وامتنعت عن ذلك طوعاً أكثر من العشرة أيام المقررة، وأعددت الدخول القدسية العدة الكاملة بسخاء، فجمعت كل وسائلي المادية على قدر وازعي الديني أكثر مما هو على قدراً إمكانياتي. ولم أندم

في تلك الأثناء في الحقيقة لا على ما كلفني ذلك من متاعب ولا على ما كلفني من مصاريف، ولم لا؟ لقد مكنتني رعاية الإلهة السخية من مداخيل المحكمة على نحو رائع.

وفي النهاية ظهر لي الإله في حلمي بعد أيام قليلة، وكان أقوى أكابر الآلهة وأعظم الأقوياء وأسمى العظماء وملك أكثرهم سمواً، أوزيريس. فهو لم يظهر نفسه تحت أي قناع أجنبي، وإنما مجدني وجهاً لوجهٍ برضاه وبكلماته التي تزرع الرهبة في القلوب: فمن واجبي أن أبقى محامياً في المحكمة كما علمت حتى الآن، وألا أخشى ما يشيعه عني الحساد، الذين ينقمون علي معرفتي الواسعة وعلمي الراسخ. وحتى لا أؤدي له فروض العبادة في نفس الوقت مع بقية أفراد الطائفة، دعاني إلى أن أكون في هيئة كهنته، بل أن أكون رئيساً للمعبد خلال المدة، التي حددت بخمس سنوات. وفي النهاية حلقت رأس مرة أخرى، وأشرفت على إدارة هيئة الكهنة المحترمة، التي كانت قد أنشئت في أيام سولاً - لم تكن صلعتي لا مجملة ولا مغطاة، وإنما كانت دائماً ظاهرة للعيان! - وأديت وظيفتي في بهجة.

الجزائر، ابن عكنون/ الثامنة إلا عشر دقائق من يوم 1992/10/15

تحميل كتب ومجلات
abbassa.wordpress.com

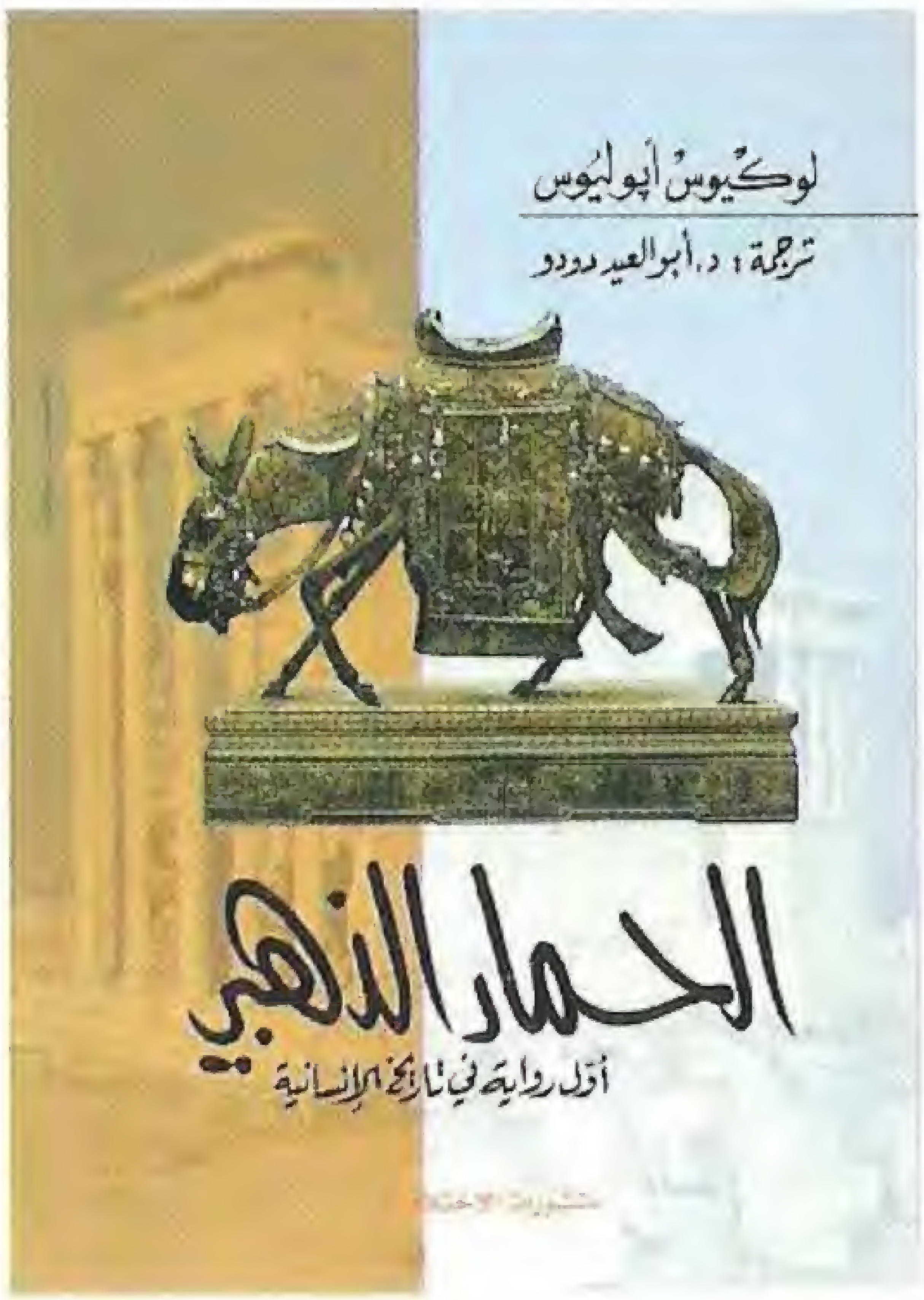

تصميم الغلاف: محمد سنوسي

و عندما تأملت كل أعضائي في هذا الوضع اليائس.
لم أرى نفسي طائرا بل رأيت نفسي حمارا! و هممت بتوجيه الشتائم إلى فوتيس على ما فعلته بي و لكن كنت قد فقدت حركتي و صوتي الإنسانيين.
كل ما كان في استطاعتي أن أفعله هو أن أنظر إليها جانبيا بعينين بليلتين و شفتي السفلى مدلاة، و أقدم لها شكواي في صمت.

أبو العيد دودو

ولد عام 1934، درس بقسنطينة في مدرسة قرآنية بعد الحرب العالمية الثانية ثم التحق بمعهد عبد الحميد بن باديس عام 1947 و منه انتقل إلى تونس فبغداد ثم إلى فيينا حيث نال بها الدكتوراه عام 1961.
انتقل بعدها إلى جامعة كييل بألمانيا، و عاد إلى الوطن عام 1969.
التحق بقسم اللغة العربية بجامعة الجزائر مدرسا.
له أربع مجموعات قصصية و مسرحيتان و صور سلوكية من ثلاثة أجزاء و كتب عديدة مترجمة إلى اللغة العربية عن الألمانية.
إنتقل إلى رحمة الله تعالى 2004.

منشورات الاختلاف

الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers
لمزيد من المعلومات حول منشورات الدار العربية للعلوم، زوروا موقع الدار على شبكة الانترنت من خلال العنوان www.asp.com.lb حيث يمكنكم التسوق من موقعنا مباشرة!

ISBN 9953-29-774-6
9 789953 297743

جميع كتبنا متوفرة أيضاً على الانترنت في
مكتبة النيل والفرات
www.neelwafurat.com
أكبر مكتبة عربية على الانترنت